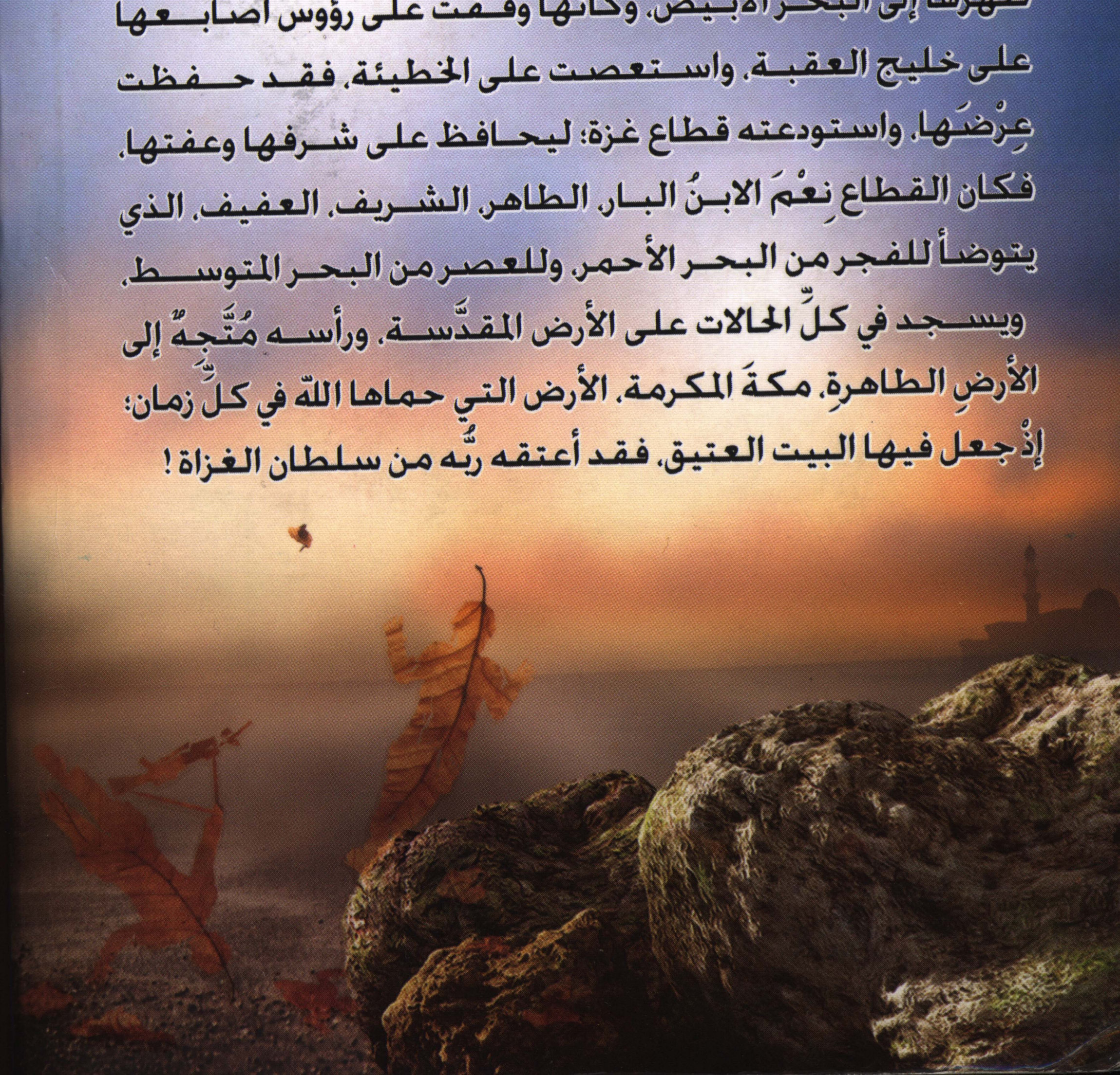
د. محمود الزهار

العصف المأكول



تبدو فلسطين على الأرض كأنها صبيّةٌ حسناء، صبيةٌ رغم قِدَمِ عُمُرِها، رفضت أن يغتصبها مجرمون، قليلون أو كثيرون، كانت ذات عيونٍ عسلية، وشعرٍ أسود، فتآمروا عليها مع جيرانها وبعض أبنائها؛ فعلّقوها، ووضعوا ظهرها إلى الغرب، وشدّوا وثاق ذراعيها لأعلى، بدت أذرعها كأنها مشدودة، تمدَّ يديها؛ لتتعلق بجبل الشيخ في سورية، فلا يسندها إلا الشيخ أو جبله، وكان ظهرها إلى البحر الأبيض، وكأنها وقفت على رؤوس أصابعها على خليج العقبة، واستعصت على الخطيئة، فقد حفظت عِرْضَها، واستودعته قطاع غزة؛ ليحافظ على شرفها وعفتها، فكان القطاع نِعْمَ الابنُ البار، الطاهر، الشريف، العفيف، الذي يتوضأ للفجر من البحر الأحمر، وللعصر من البحر المتوسط، ويسجد في كلِّ الحالات على الأرض المقدَّسة، ورأسه مُتَّجِهٌ إلى الأرضِ الطاهرةِ، مكةَ المكرمة، الأرض التي حماها الله في كلِّ زمان؛ إذْ جعل فيها البيت العتيق، فقد أعتقه ربُّه من سلطان الغزاة !



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١
أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ
طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ
٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥ ﴾

سورة الفيل (1- 5)

شكر

عملاً بهدى الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله"..

أتوجه بالشكر الجزيل، والدعاء الخالص لله تعالى أن يتقبل أبطال هذه الرواية الحقيقيين، الشهداء الذين هم تحت الأرض، وأن يحفظ المجاهدين فوقها، الذين ينتظرون ساعة استكمال فصول هذه الرواية، بدمهم وعرقهم، أبطال هذا الزمن بلا منافس، وأخص بالذكر أيقونة التضحية والفداء القائد المجاهد محمد الضيف الذي فقد زوجته المخلصة وابنه الحبيب في هذا العدوان، والشكر لإخوانه من قادة المقاومة وجنودها في حماس والجهاد الإسلامي، وباقي الفصائل المقاومة في فلسطين كلها.

كما وأتوجه بالشكر الجزيل، والمحبة الصادقة إلى أساتذة الأدب. ورعاة الكلمة المثمرة وحراسها، أطباء الرواية، الذين قاموا بالمعالجة الفنية لهذا المشروع؛ ليكون في صورته البهية؛ وفاءً لأبطاله الشهداء، وتصديقاً بأبعاده ومعانيه النبيلة، واستكمالاً لغاياته السامية.

وأخص بالذكر: أ. د. نبيل أبو علي، أ. د. عبد الخالق العف، أ. د. كمال غنيم، أ. د. محمد كلاب، أ. د. محمد الأغا، أ. زكريا معمر.

كما وأخص بالذكر أمين الشريعة واللغة والموعظة أ. د. يونس الأسطل، الذي كان تدخله في هذا العمل بارزاً ومميزاً في كل المجالات.

والشكر الجزيل للأخ المجاهد الكبير: القائد مروان عيسى، الذي قام بدور هام في متابعة هذا العمل.

والشكر والدعاء إلى روح أبي الحبيب "خالد الزهار"، وأبنائي "خالد وحسام"، وصهري "أحمد رجب عوض وأخته الدكتورة راوية" الذين قضوا في سبيل الله.

وإلى أمي "حسنة محمد أبو الشهود" التي أورثتني حب الأدب والأدباء. وإلى زوجتي المجاهدة سميحة خميس الأغا "أم خالد" شريكة مسيرة الألمِ والأملِ التي دفعت بفلذات أكبادها كما كل أم حرّة تؤمن بيوم التحرير..

وإلى أبنائي "سامي، ومحمد"، وبناتي "ريم، وسماح، وهدى" الذين عاشوا معاناة الاحتلال، وألم البعد بسبب السجن والإبعاد، ولوعة فراق الإخوة الأحبة، وعانوا كبقية شعبهم من إجرام العدوان.

كما أختم بالدعاء لإخواني أحبابي قادة هذه المسيرة السياسية والعسكرية، الذين يمسكون دفة السفينة بحكمة واقتدار، وهي تشق طريقها إلى القدس، والدعاء للشعب الصابر والمحتسب والمقاوم والمنتصر بإذن الله تعالى في كل مكان.

د. محمود خالد الزهار

إهـــداء

إلى رجال كتائب القسام وقيادة حركة حماس والجهاد الإسلامي وكل مقاوم..

إلى الذين سجلوا بأفعالهم ملحمة العصف المأكول، وقضوا في سبيل الله شهداء أو جرحى ..

إلى كل من يرنو للحياة الكريمة في كل فلسطين؛ ليعيش على قممها السامية في فضاء الحرية ..

لمن عاشوا دوماً على أمل الصلاة في ربوع الأقصى وساحات القيامة ..

لمن لم يبخل بنفسه وماله وجهده ووقته لأجل أن نحتفي بلحظة الخلاص..

لقبلة الأحرار في العالم .. للقدس صلة الأرض بالسماء !!

تحركت سيارة جيب قديم، أبيض اللون، يحمل رقم فلسطين (8-7-2014) يقودها شاب في بداية العقد الرابع من عمره، وكان أبوه بجواره، رجل كبير، أبيض الشعر واللحية، وضع على عينيه نظارات سوداء تحجب الشمس، وتخفي ما فعلت الأيام في جفونه، كان يرتدي معطفاً ثقيلاً، فقد كان برد فلسطين هذا الشتاء قارصاً.

وفي حجر الرجل الكبير وقف حفيده صلاح الدين ينظر إلى الطريق، وفي المقعد الخلفي جلس ثلاثة من الحراس الشبّان، والجيب يطوي الطريق بسهولة تحت عجلاته، حتى قطعوا مسافة خمسة كيلو مترات.

كان الحفيد سعيداً؛ لأن وعد جده تحقق بإلحاح من أبيه الذي يقود السيارة، قال أبو صلاح مبتسماً:

- سل جدك يا صلاح ما اسم هذه المنطقة.

ابتسم الجد، ونظر في عيني حفيده فوجدها ترجوه .. قال وقد عدّل جلسة الصبي في حجره:

- انظر يا صلاح.. هذه المنطقة كان اسمها معبر إيرز، كان الاحتلال اليهودي يصطاد فيه من يشاء من المجاهدين، كان هنا قفص طويل من القضبان الحديدية، ينزل إليه المسافر من غزة إلى وطنه المحتل، كان يمشي الكبار والصغار والرجال والنساء، المرضى والأصحاء على أقدامهم؛ ليصلوا إلى هذا البناء، حيث مخابرات العدو، ليتعرضوا فور وصولهم للتفتيش، والابتزاز، ومحاولات ربطهم أمنياً بالعدو !

قال الحفيد:

- ماذا يعني الارتباط ؟

- كانوا يغرونه بالمال، أو يهددونه بالسجن؛ حتى يعمل معهم جاسوساً..

- وهل عمل معهم أحد .. هل صار منهم جواسيس؟!

- ليس هذا هو المهم يا جدي، ولكن في هذا المكان مرَّ عماد عقل قادماً من الضفة الغربية بعد أن أشعل المقاومة، ثم عاد إلى غزة وقتها، والذي وصفه العدو صاحب الأرواح السبعة..

قاطعه الحفيد مبتسماً:

- لقد شاهدته في الفيلم، وهو في زي حاخام يهودي.

- صحيح، وهنا جاءت ريم الرياشي؛ وفجرت نفسها في هذا المكان على من فيه من الأعداء؛ وقضت شهيدة، وهنا جاء محمد أبو دَيّة وفجره أيضاً، وقتل منهم عدداً كبيراً، وذهب شهيداً.

ومن هنا مر محمد الضيف إلى الضفة لينظم العمل العسكري، في صولات وجولات، ومن هنا ذهب عبد الرحمن حمدان قائد الوحدة (101) التي قتلت أحد عشر صهيونياً، منهم ضابط المخابرات الكبير "نوعام كوهين"، وعلى الطريق نفسه انطلق حسن سلامة قائد عمليات الثأر المقدس؛ انتقاماً لاستشهاد المهندس يحيى عياش، و منه أيضاً سار إبراهيم سلامة القائد القسامي والمقاتل العنيد، وغيرهم من الفصائل الأخرى، ومن الضفة الغربية جاء يحيى عياش إلى غزة، وإسلام أبو رميلة ليؤكدوا وحدة المسار ووحدة الهدف..

سكت الرجل الكبير الذي بدا عليه الوقار والهيبة، وحجبت نظارته بلل جفونه عندما تذكر هذه الأسماء، كان يعرفها حق المعرفة، كانوا كأبنائه وبناته، وكانوا ممن وافق على إرسالهم، وسار في مشهد وداعهم، ورأى فرحة أهليهم، ودموع الحزن في عيونهم، وخاصة أطفال ريم !

أدرك صلاح الدين أن جده لا يريد أن يسترسل، فقد أشاح بوجهه يرقب مدينة حديثة، حتى إذا جاوزها أشار بإصبعه وقال:

- هنا يا بني يسكن أبناء فلسطين ممن جاءوا من مخيمات الشتات الفلسطينية، سكنوا هذه البيوت التي بناها اليهود وسموها "سديروت".

قال أبو صلاح:

- اسمها اليوم مدينة "الصلاح" نسبة إلى الشهيد القائد "صلاح شحادة" من بيت حانون، وسميتك باسمه لأنه كان حبيب جدك.

سكت بعدها الجد، والصبي، وانتبه أبو صلاح، فقد كثرت في الطريق السيارات القادمة من قطاع غزة، ومن مدن تنسيق النقب الغربي وقُراه في طريقها إلى القدس.

كان هذا صباح يوم جمعة، وكان على الرجل الكبير أن يزور أحبابه من رجال القدس، الذين عايشهم في جنوب لبنان زمن الإبعاد في العام 1993، وفي سجون الاحتلال اليهودي لسنوات طويلة.

وكان قد رتَّب خطته على المبيت في المسجد الأقصى، اعتكافاً في شهر رمضان الذي أوشك على الانتهاء.

مرت السيارات شرق مدينة المجدل، ومدينة إسدود، ...، ومن كل مدينة كانت الحافلات الكبيرة تنقل المتوجهين إلى المسجد الأقصى في الجمعة الأخيرة من رمضان.

كان المسجد الأقصى مزدحماً بضيوف الله تعالى، حين دخله الرجل الكبير وبجواره ابنه الذي كان يقود السيارة، وخلفه الحراس الثلاثة، وأمامهم كان اثنان من العاملين في

المسجد الأقصى، يفسحون الطريق للرجل الكبير وهو يسير خجلاً .. شدَّ المشهد انتباه المصلين؛ فنظروا إلى هذا الموكب الصغير الذي يشق طريقه بين الناس، وعرفوه؛ فصاحت الناس:

- الله أكبر ولله الحمد.

وتعالت التكبيرات، والدعوات، ووقف من وقف، وتحرك الكثير منهم؛ فمنعهم الزحام.

وصل الرجل إلى الصف الأول، وجلس أمام المنبر، وصلى ركعتين، والناس من حوله ومن خلفه يتهامسون، يدلُّ بعضهم على بعض، كان هذا خطيبهم اليوم، القادم من غزة، وما أدراك من هو القادم .. إنه أحد رجال العصف المأكول المعروفين.

أنهى الرجل صلاته .. بعد خطبة حمد الله فيها كثيراً، الذي نصر عبده، وأعز جنده، وهزم اليهود وحده ..

كانت دموعه تتمرد على تَجلُّدِه، وكان يمسحها بلا خجل، فقد كانت في خشية الله .. ضعفاً له .. وخضوعاً.

وكان مئات الآلاف داخل المسجد وخارجه، وفي الشوارع العتيقة يستمعون، وهم يشعرون أنهم يقفون بين الأرض وبين السماء .. كلهم يتمنى لو صافح الرجلَ الكبيرَ، أو شاهده .. إنه من غزة العزة.

كان وجهاء القدس وحيفا ويافا والخليل وبيت لحم وكفر قاسم وصفد وبئر السبع، وغيرهم قد ضغطوا على الرجل الكبير؛ ليحدثهم عن معركة العصف المأكول بتفاصيلها، لقد وعدهم بذلك قبل مجيئه، ولم يُجدِ معهم أن طلب منهم تأجيلها؛ ليظفر بقيام الليل، فاستجاب لهم، واجتمعوا حوله يتزاحمون، وكلٌّ رسم ابتسامة حب وشوق دون تكلف.

سيسمعون الليلة قصة العصف المأكول في المسجد الأقصى، في شهر رمضان المبارك، سيسمعه كل من جاء من قرى ومدن فلسطين .. كل فلسطين، من الشام كل الشام، ومن جزيرة العرب كل جزيرة العرب، وهناك عشرات الآلاف قادمون من مصر والمغرب العربي؛ لصلاة العيد في المسجد الأقصى.

***

في صباح الثاني عشر من حزيران عام أربعة عشر وألفين؛ استيقظ الشعب المظلوم على خبر مهم، أسعد قلوب الذين صادر العدو أعمارهم خلف القضبان، بعضهم دخل السجن منذ ثلاثة عقود، ومنهم من دخله قريباً، ولكن تنتظره جدرانٌ صمّاء؛ لتأكل عمره، كما ابتعلت من عمر غيره من أبناء الشعب المبتلى، الذي فقد وطنه، وانقطعت صلته

بمقدساته، وأخذوا مزرعته، وسكنوا بيته، وشرَّدوه في بقاع الأرض، في بيوت بنصف جدران، ونصف سقف، وربع شارع، وطعامُهُ كسرة خبزٍ معجونةٍ بدموع جيرانه!

استيقظوا على خبر يقول: إن ثلاثة جنود من الاحتلال الإسرائيلي وقعوا أسرى في يد شباب من مدينة خليل الرحمن، المدينة المعروفة "غزةَ الضفة" رجالِها، ونسائها، وجبروتها.

سارع إعلام لصوص الزمن الحديث، أحفاد من قتلوا شطر أنبيائهم، سارعوا باتِّهام حركة حماس بالمسئولية عن الخطف، وصمتت حركة المقاومة صَمتَ المسرور المنشرح صدراً، ينتظر الخبر اليقين.

كانت الحادثة صاعقةً، سقطت على رأس كلِّ لصوص الدنيا، جنديٌّ واحد في عام ألفين وستة للميلاد أخرج ألفاً من الأسرى، ومعهم سبع وأربعون ماجدة مجاهدة، واليوم ثلاثة جُنودٍ جُدُد ؟!

اجتمعت قيادة لصوص الوطن، واتَّهموا غزة على الفور، فصحيفةُ سوابقها في العقدين الماضيين تؤكِّد أنها هي، لا أحدَ غيرها، وتعالت الأصوات من الأحزاب والقيادات الصهيونية: "لابدَّ من ضربها، لابدَّ من سَحقِها، لابدَّ من نزع سلاحها، لابدَّ من هدم البيوت على رؤوسها"، لابدَّ من تحرير الجنود الأبرياء!

وذهبت عجلة الكذب البُواح الإسرائيلية إلى جيرانهم الأعزاء الأوفياء؛ ليحصلوا منهم على مباركة العدوان، والضرب، والسَّحق، ونزع السلاح، وحصلوا من آخرين على هَزِّ الرؤوس من أعلى لأسفل عدة مرات، مع ابتسامات ذابلة؛ تخشى أن يراها الناس؛ فتصيبهم منهم معَّرة!

هذه لحظةٌ مهمة للضرب والسحق، والنزع، والهدم، لا أحدَ مع حماس، لا الجيران، ولا أبناء العمومة، ولا الشرق؛ لأنه ساكت، ولا الغرب؛ لأنه لا يريد رؤية حماس على الخارطة، والفلسطينيون محاصَرون، ومفلِسون، وكلُّ شيء يقول: اضربوهم .. اسحقوهم .. انزعوا أسلحتهم .. واهدموا كلَّ شيء على رؤوسهم!

في هذه الأجواء جاء نبأٌ يقين: تَمَّ قتل الجنود الثلاثة، الذين وصفوهم بالأطفال، والأبرياء، والمستوطنين، وهم من الجيشِ أداةِ الضرب والسحق، والنزع والتدمير والهدم!

ظنَّ بعض الناس أن المشكلة انتهت، ولكن أشهر لصوص الزمان قرَّروا أن يلتقطوا اللحظة العبقرية؛ لتحقيق غاياتهم الكلية!

لقد قرَّروا أن يُشنوا حرباً على غزة، وسَمَّوْها سراً "الجرف الصامد"، ونسوا أن الجرف يعني أنه قد يصمد، وقد ينهار!

قال كبيرهم، رئيس وزرائهم:

- وكيف ينهار، ونحن رابع أقوى الجيوش في العالم، والجيش الأعظم في المنطقة ؟!

فلسطين بقعة صغيرة جداً من سطح الكرة الأرضية، لكنها بقيت جبلاً شامخاً، يستقبل رسل السماء النازلين على رسل الأرض بالكتب التي تهدي الإنسان، في مشواره القصير، بين مولده ومقبره، وفيها بيت، وصفه خالقه - سبحانه وتعالى- بالمقدس، وهو يعني الطهر، والنقاء، والصفاء، والبهاء، والبقاء أبد الدهر !

حول هذه القمة المميزة، كانت الجبالُ والسُّهولُ شاهدةً على خطى الأنبياء، احتفظت حجارتها بصورهم، وتعطَّرت بعرقهم، ورسمت أثر أقدامهم في قلب كلِ حبة ترابٍ ساروا عليها، واحتفظت كهوفها بكلماتهم؛ تردِّدها كلَّ حينٍ في جنباتها، وكانت هذه "الدُّرة" - ولا تزال- مطمعَ كلِّ لصوص الزمان!

جاءها الغزاة من القارة الباردة من أوروبا، التي غرقت في دماء مذاهبها المتناحرة، وجاءها من الفرس، والرومان الذين احتلَّوها في عام سبعين قبل ميلاد المسيح - عليه السلام- وظلَّوا فيها سبعة قرون تقريباً، حتى كنسهم الفتح الإسلامي.

ولعل السرَّ في تعميرهم كل تلك القرون أن اليهود حملة الرسالة في ذلك الوقت، بدل أن يقاوموا غَزْو الرومان رحَّبوا به، واتخذوه من دون الله وكيلاً، وقال الله فيهم:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وجاءها حَمَلَةُ الصُّلبان في عام 1099م، وبقيت فلسطين قبل هذه الغزوات وبعدها، وباد الغزاة!

أراد أصحاب الصليب أن يُحوِّلوا فلسطين إلى خُرَّاجٍ في جسم الأمة الموحدة؛ فقسَّموا الأمة المسلمة، ووزَّعوا لحومها، وكانت فلسطين من نصيب بريطانيا العظمى منذ عام 1917م، وقد نجحوا في منتصف عام 1948م؛ حيث جاءوا بلِصٍّ جديد على الساحة، جمع أكثر اللصوص جراةً على حقوق البشر، يهوداً من مختلف بقاع الأرض وأصقاعها؛ واحتلوا الأرض، وطردوا أهلها الذين صمَّموا أن يبقوا فيها، بعد مذابحَ متتالية للآباء والأبناء!

تجمَّع بعض الناجين منهم في منطقةٍ صغيرةٍ من فلسطين، صغيرةٍ جداً، كشريط من الأرض المسروقة؛ ليشاركوا في كتابة التاريخ الذي صبغت حروفه بدم الشهداء؛ فتغيَّر لونه ورائحته، تجمَّعوا في "قطاع غزة" الذي اكتسب

اسمه ودوره من تصدِّيه للغزاة، بقى قطاع غزة كشريطٍ على ساحل البحر الأبيض، طوله أربعون كيلو متراً، وشَماله ستة كيلو مترات، وجنوبه ضعف شَماله طولاً.

تبدو فلسطين على الأرض كأنها صبيِّة حسناء، صبية رغم قِدَمِ عُمُرِها، رفضت أن يغتصبها مجرمون، قليلون أو كثيرون، كانت ذات عيونٍ عسلية، وشعرٍ أسود، فتآمروا عليها مع جيرانها وبعض أبنائها؛ فعلّقوها، ووضعوا ظهرها إلى الغرب، وشدّوا وثاق ذراعيها لأعلى، بدت أذرعها كأنها مشدودة، تمدُّ يديها؛ لتتعلق بجبل الشيخ في سورية، فلا يسندها إلا الشيخ أو جبله، وكان ظهرها إلى البحر الأبيض، وكأنها وقفت على رؤوس أصابعها على خليج العقبة، واستعصت على الخطيئة، فقد حفظت عِرضَها، واستودعته قطاع غزة؛ ليحافظ على شرفها وعفتها، فكان القطاع نِعمَ الابنُ البار، الطاهر، الشريف، العفيف، الذي يتوضأ للفجر من البحر الأحمر، وللعصر من البحر المتوسط، ويسجد في كلِّ الحالات على الأرض المقدَّسة، ورأسه مُتَّجِهٌ إلى الأرضِ الطاهرة، مكةَ المكرمة، الأرض التي حماها الله في كلِّ زمان؛ إذ جعل فيها البيت العتيق، فقد أعتقه ربُّه من سلطان الغزاة!

كان في هذه الرقعة التي لم تحترق من فلسطين مسجدٌ، وفيه مؤذِّنٌ وإمام، أنقذ الإمام الناس من الهلاك المحتَّم

الذي يجلب اليأس، والشعور بالعجز، وما ينتج من ضياعٍ وانتحار، وأخذهم إلى عالم الأمل والعمل؛ لاسترداد الحقوق الثابتة، عودة الإنسان إلى الأرض، والصلاة في القدس، والحفاظ على العقيدة!

وقف ستة من فرسان حركة المقاومة الإسلامية- حماس، في اليوم التاسع عشر من حزيران عام ألفين وأربعة عشر، وقفوا مرفوعي الهامة كالنخيل على أرضٍ منبسطة، تنبت فيه العديد من النباتات البرية، شرق حيٍّ الشجاعية، الجزءِ الشرقي من مدينة غزة، كان العدد يتزايد بمرور الدقائق والثواني، الكلُّ في حالة انتباهٍ شديد، عيونهم مصوَّبةٌ إلى فتحة تحت أرجلهم، تقود إلى نفق عميق وطويل، يتجه نحو الشرق، تُظِلُّلهم شجرة عملاقة، جذعها عريض، وعمرها مديد، وأوراقها لا تغادر مواقعها، إلا إذا نبت منه جيل جديد، عرفوها بشجرة الكينيا، كانت تحجب عنهم حرارة الشمس، وتعمِّي عنهم عيون الطائرات الحساسة، ذات الطنين المزعج، الذي لا ينقطع؛ إنها الزنانة.

فجأةً خرج من عين النفق رجلان يحملان شاباً، أحدهما يرفع كتفيه، والآخر يرفع ساقيه، تتحرك ذراعاه بلا غاية ولا إرادة، فقد فارق الحياة، وجهه مضيءٌ، رغم الأتربة

التي تغطيه، جحظت العيون، ودارت في كل اتجاه، وأسرع شابٌ آخر إلى النزول في النفق، بينما تحركت الجثة محمولة على الأكتاف إلى سيارةٍ قريبة، وصاح أبو جمال القائد العسكري للمنطقة:

- هل كان وحده في النفق؟

قال شابٌ يقف على باب النفق، يمسح دموعه:

- يوجد خمسة آخرون.

فصرخ أبو جمال:

- اتَّصِلْ بالدفاع المدني بسرعة ..

قال الشاب الذي احمرَّت عيناه:

- هذا الذي أخرجناه هو من الدفاع المدني !

- هذا يعني أن الحالة خطيرة في الداخل .. ماذا حدث؟

رفع الشاب يديه عن أنفه، وقد وضع منديلاً ورقياً في جيبه:

- مع استهداف طائرة F16 في الطرف الآخر، انقطع الهواء، وشعرنا بالضعف، فخرجتُ مسرعاً قبل أن أفقد الوعي.

سحب القائد أبو جمال هاتفه المحمول بسرعةٍ وانفعال، ثم وضعه على أذنه:

- عندي مشكلة كبيرة، أريد المزيد من سيارات الإسعاف فوراً .. السلام عليكم.

دسَّ الهاتفَ المحمول في جيبه، ونزل مسرعاً إلى فوهة النفق، فصاح الشاب الباكي:

- لا تنزل؛ الجوُّ خانق!

مرَّت الدقائق ثقيلة، وانتهت بنقل خمسة شهداءَ إلى المشفى، منهم رجلٌ من الدفاع المدني.

بقي أبو جمال جالساً، وحوله أركان كتيبته، رطبت الدموع العيون، التي كادت تَبْيَضُّ حزناً على إخوة وجيران، وهم شركاء الصلاة في المسجد، وجنود المقاومة الأشداء.

ردَّد أبو جمال بلا انقطاع:

- إنا لله، وإنا إليه راجعون.

ساعاتٌ قليلة، وامتلأت شوارع غزة بالناس في طريقهم إلى مقبرة المدينة، كانت السواعد القوية تحمل الشهداء إلى بيوتهم الجديدة، يَحيَوْنَ فيها بلا مكابدة الأعداء، ولا مكايدة الجيران، ويغيبون حيناً عن صحبة الأوفياء، فهم الشهداء، مع النبيين والصديقين والصالحين، وحسُن أولئك رفيقا.

تحوَّلت هذه المواكب إلى مهرجانات تشبه حفلات الزِفَّاف، ثقافة انتشرت من المساجد، حوّلت النواح والصراخ، ولَطْمَ الخدود، وتعفير الرؤوس والوجوه بالتراب إلى زغاريد، ومجالس ذكرٍ وشكرٍ لله، ودعوةٍ للصبر والاحتساب، وذكر مآثر الشهداء وفضلهم.

جاء الثلث الأخير من شهر شعبان، جلس قادة حماس يدرسون الحادثة، كلٌّ واحدٍ منهم يشعر كأنه فقد ابنه أو أخاه أو جاره العزيز، نظروا إلى ما بين أيديهم من معلومات، فقال أحدهم، وهو ينظر في ورقة:

- من الواضح أن الحادث ليس للعدوِّ فيه دخل، وهذا ما أكَّده الناطق العسكري فور الحادث.

- إنه درسٌ لابدَّ من الاستفادة منه، نفقٌ طويلٌ وعميق، واستخدام آلاتٍ حادَّةٍ ينتج عنها شرر، وفي وجود أسطوانات الأكسجين، تَحدُثُ مثل هذه الأمور، المهم ألّا تتكرر، نحتاج إلى توجيهٍ عام للجميع.

- رحم الله الشهداء، وأسكنهم فسيح جناته.

فتح أحدهم هاتفه النقال، وقال:

_ أقرأ لكم هذه الرسالة: المصدر العسكري للعدوِّ ينفي مسؤولية كيانهم عن الحادث، ويؤكد التزامه بالتهدئة، ويحذِّر سكان المنطقة من ردود الفعل.

- يحذِّر اللصوص بعضُهم بعضاً !!

- المهم أن نستخلص العبر، ونستمرَّ في عملنا، مع أخذ الحيطة والحذر في كل المواقع.

أشعلت حادثة استشهاد المجاهدين الخمسة في نفق الشجاعية الضوء الأحمر؛ إذن توجد أنفاق تمتُّد إليهم من هناك!

سادت حالة من الخوف في جموع المستوطنَين شرق مدينة غزة، ونشطت الحفَّارات العملاقة في شرق المنطقة، تدق أنيابها الغليظة في الأرض؛ علَّها تصطدم بنفق؛ فتقومَ بتدميره، لقد أصحبت الأنفاق كابوس الأمن الإسرائيلي بكلٍّ أجهزته، استمرَّتِ الجرافات العملاقة تنتقل من مترٍ إلى آخر، ولم تعثر على شيء، كانوا قبلها قد بدؤوا الحفر في اقصى شمال قطاع غزة، ولم يعثروا على شيء، كانوا كمن يبحث عن إبرةٍ في كومة قشٍ كبيرة، استمرَّ هذا البحث شرق الشجاعية مُدَّةَ عشرة أيام، ثم تركوها؛ وذهبوا إلى شرق مدينة رفح، في المنطقة الواسعة الخالية من السكان تلك التي شهدت حادث أسر الجندي الإسرائيلي شاليط عام 2006م.

تابع رائد العطار وإخوانه ما حدث في نفق الشجاعية، وقد نشط في محافظة رفح، وأدرك أن العدوَّ قد عثر على خيط في المنطقة، وشجعهم هذا على الاستمرار في البحث لعدة أيام، حتى عثروا على نفق عميق، توغَّل في الأرض المحتلة طويلاً.

مرَّ أسبوعان على اكتشاف العدوِّ لعين النفق، وكان "رائد" القائد المجاهد - وهو المسئولُ عن هذا المكان- يجلس تحت شجرة، في مواجهة الأرض المحتلة، يرقب عن بُعدٍ تحرك دباباتٍ ضخمة، تنتقل من مكانٍ إلى آخرَ، تطحن الأرض تحت جنازيرها، كما يطحن الجنود واللصوص مزارع أصحاب الأرض في القدس وما حولها من الأرض المباركة.

سمع "رائد" صوت قصفٍ قريب، كادت أذناه تُصَمُّ من شدّة الانفجار، ذهب بصره سريعاً خلف طائرة نفاثة حربية، اتَّجهت إلى الشرق؛ وقد قذفت قنبلةً ضخمة، انفجرت غير بعيدٍ عنه؛ فتصاعدت غيوم الدخان السوداء الثقيلة، ثم نزلت على كلِّ شيءٍ في المنطقة.

مسح رائد وجهه من التراب، ونفضه عن ملابسه، وأخرج المنظار المكبر؛ ونظر فوجد الدخان قد غطَّى أشعة الشمس.

التفتَ حوله، فوجد ثلاثةً من أركانه يُهرعون بأسلحتهم نحو مكان الانفجار، قال أحدهم:

- عين النفق القريبة.

قال رائد: هل فيها من أحد؟

- عددٌ كبيرٌ من إخواننا داخل النفق.

- متأكدٌ أنهم بالداخل؟

- نعم؛ فقد تركتهم قبل نصف ساعة، منهم اثنان إخوةٌ تَوْأَم.

- حسبنا الله، ونعم الوكيل، اتَّصِلْ بالإسعاف، علَّنا نعثر منهم على أحياءً.

- اتصلتُ قبل دقائق.

نظر رائد في ساعته، ولم يعرف لماذا بحث عن تاريخ هذا اليوم، السابع من يوليو، اليوم السابع من الشهر السابع !

جلس قادة المقاومة السياسيون والعسكريون، والحزنُ يُخَيِّمُ على الجميع، قال قائد كتائب القسام:

- العدوُّ هو المسئول، الطائرة قصفتهم، وقادة المنطقة شاهدوا وصوَّروا.

استمرَّ اللقاء لساعات؛ أسفر عن الاستعداد لكلِّ طارئ، مع اتِّخاذ خطوات الحذر الشديد في الإقامة والتحرك، وعدم استخدام الهواتف، وتَجَنُّبِ التواصل الإلكتروني، ودعوة القيادة إلى جلسةٍ طارئةٍ جامعةٍ وعاجلة؛ لأخذ القرار فيما يجب عمله.

خرج "يعلون" الرجل البدين، الذي كلَّفته حكومة اللصوص بقيادة الحروب في هذه الحكومة، والذي تكفَّل بقمع أصحاب الأرض الأصليين، وسَمَّوْهُ -خَيْبَةً- وزيرَ دفاع.

خرج سعيداً، وخائفاً؛ كعادة كلِّ المترددين، المأسورين بطموحهم وبضعفهم، وبرغبتهم في تحقيق انتصار؛ يدفعهم للتقدم نحو منصب رئيس الوزراء، وضعفهم المرهون بقوة أعدائهم أو خصومهم، والذي يدفعهم إلى التوقف والالتفاتة يمنةً ويسرةً، أو التراجع للخلف.

جلس الرجل في السيارة الفاخرة، في المقعد الخلفي، ينظر إلى الجبال التي سرقها أبوه، الذي جاء من بريطانيا جندياً في جيشها، ثم صار جندياً ضدَّها ككلِّ الخونة في كلِّ زمانٍ، وكلِّ مكان !

خرج من مجلس الوزراء وهو يحمل عِبءَ نتائج احتمالين .. الأول أن تنشأ حرب مع غزة، بما تعنيه هذه الحرب من تهديد لمصيره البائس، ومستقبله السياسي، ولوجودهم كدولة، أو أن ينتصر؛ فيدخل المدينة؛ "فينظف" - كما قالوا كثيراً- المدن والقرى من السلاح، ويقضي على الصواريخ، ويهدم الأنفاق، التي شكّلت خطراً كبيراً عليهم، وعلى وأصدقائهم في المنطقة، ولصانعيهم، ومُستَخدِمِيهم في بلاد البرد والغيوم، البلاد النائية التي طردت أصحاب الأرض "الهنود الحمر"؛ واستولت عليها، كما فعل هؤلاء في القدس وما حولها !

هذا الانتصار سيكون جائزةً من الإله "يهوه" إلهِ الحرب والدم، وإله القتل والعنف، عندها سيصبح قائد حزب، وزعيمَ شعب، ورئيسَ حكومة، و.....، و..... !

استهواه الخيار الثاني في لحظاتٍ تتغلب فيها الأماني على الحقائق، في عقول الضعفاء، حين يصوّرون أحلامهم، وهم أيقاظ، ولكنهم رقود، وهم لا يشعرون.

حاول أن يخرج هاتفه من جيبه، فلم يسمح له كرشه الكبير، وضخامة جسمه، وضعف همته، وقلة نشاطه، فمال إلى جنبه، وانتزع هاتفه بصعوبة؛ ليكلم رئيس أركان الجيش.

- اجتماع في السادسة مساءً في مقرِّ الوزارة؛ هل سمعت؟

- نعم؛ سمعت.

بعد أن قررت الحكومة موعد الحرب على غزة؛ أبلغ وزير الحرب رئيسَ أركان الجيش بالموعد، راودته فكرة الفشل في تحقيق انتصارٍ على "المجانين" في غزة، ولم يستسلم لهذا الكابوس، فنظر في هاتفه مرةً أخرى؛ ليتحدث مع زوجته، فالحديث معها أهون عليه من تخيُّل الانكسار، وعدم الانتصار في غزة !

وصل قادة حماس إلى مكانٍ لا يجتمعون فيه إلاّ في حالات الصدام مع العدو، كلٌّ جاء يسعى بطريقة مختلفة، وكانوا قد أعدوا عدتهم لهذه الأيام القادمة.

استعرض قادة كتائب القسام اعتداءاتِ المحتلين على رجال المقاومة في جنوب قطاع غزة، واستفزازاتِهم، وغطرستَهم، وتدارسوا ما تَمَّ الحصول عليه من معلوماتٍ عن تحركاتهم، ونِيَّاتِهم المعلنة وغير المعلنة.

- هم يريدون استغلالَ الحصار المالي والسياسي على قطاع غزة، وانقطاعَ الكهرباء، وقلّةَ الأموال .. يريدون استغلال هذه الظروف في توجيه ضربة قوية للمقاومة.

سأل أحد الجالسين عن إمكانية دخول قوات الاحتلال إلى قطاع غزة؟ هذا الحدث هو الأكثر خطورة على برنامج المقاومة، إن الطائراتِ - مهما دَمَّرت- لن تقضيَ على المقاومة، إن الخطر كلَّ الخطر إذا نزعوا سلاح المقاومة، وقتلوا المقاومين، أو اسروهم.

كانت إجابة قيادة المقاومة قاطعة: استحالة دخول العدوِّ إلى عمق المدن والقرى، وما عدا ذلك فهو أذى.

واستفسر الحضور عن عدد الأيام التي يمكن أن يصمد فيها قطاع غزة، فكانت الإجابة مُطَمْئِنَةً، وخلص الجميع إلى تَجنُّبِ تَحَمُّلِ مسئولية بداية الحرب من جانبهم، ولكنْ إذا

اعتدى الاحتلال كعادته، يتمُّ الردُّ عليه في المناطق المحاذية للحدود العازلة.

كانت المقاومة قد أعدَّت نفقاً هجومياً تحت تجمعٍ لمستوطنين في كيبوتس كرم "أبي سالم"، كانت منطقة رفح توّاقةً لأسر جنديٍّ؛ لمبادلته بأسرى من الفلسطينيين، وفي اليوم السابع من يوليو في بداية معركة – العصف المأكول- أو الجرف الصامد وقتها إلى أن انهار بهم في نار جهنم، وهَوَت بهم الهزيمة في مكان سحيق، تقدم ثلاثةَ عشرَ مجاهداً مِنْ خيرة مَنِ اختارهم القائدان رائد العطار ومحمد أبو شمالة، نزلوا إلى النفق وكلُّهم شوق للقاء العدوّ، وكانوا يعرفون أن وحدة "ماجلان" تنشر قواتِها على الحدود، كانوا قد قرأوا عنها، وعن دورها في جنوب لبنان، وأنها مزوَّدة بدرّاجات نارية سريعة، ذات دَفعٍ رباعيٍّ، ويمكنها نقل أعدادٍ كبيرة من المهاجمين، وعندها قدرة أفضل للمناورة في مواجهاتٍ فيها تبادل لإطلاق النار.

كانت عملية تفجير كيبوتس كرم "أبي سالم" استفزازيةً بكلِّ المعاني، فهذه الأنفاق التي تنفجر تحت المستوطنات كانت سبباً في هروب شارون رئيس الوزراء في عام

2005م من غزة؛ ليكسر بنفسه ما قاله بنفسه: "إن نتساريم كتلٌ أبيب"؛ من حيث المستقبل لما يُسمى "دولة إسرائيل".

كانت التفجيرات تحت الموقع العسكري الحدودي مع رفح المصرية سبباً في هروبه، وكانت تفجيرات شمال خانيونس سبباً في تعزيز قواته، وأخيراً هرب؛ فهل تريد المقاومة أن تُذَكِّرَ جِراو شارون، وقد أخذه الله بِسُنَّتِهِ في فرعون وهامان وقارون؟!

فكما لم ينجحِ الجيشُ الكبير وقتها، لن تنجح وحدة "ماجلان" هذه المرة، وبقيت قيادة هذه الوحدة تنتظر مصيرها بعد ذلك في عيادة عبسان الطبية في منطقة الفراحين بخزاعة.

كانت صور المجاهدين بعد نسف المستوطنة، وهم يتجوَّلون باطمئنانٍ في المنطقة على شاشات الإعلام العالمية، تبشر بنتائج المواجهة في المنطقة.

زَرَعَت تلك القوةُ عبواتٍ ناسفةً تحت مباني المستوطنة، وعادت إلى النفق، وخرجت بسلام، وبعدها تَمَّ تفجير النفق بالقرب من كيبوتس كرم "أبي سالم".

جلس "بني غانتس" قائد قوات الاحتلال في مكتبه مع واحد من الضباط الكبار، "غسَّان عليَّان"، قائد لواء جولاني الشهير، كان غسان من كبار الجواسيس، هو وآباؤه الأولون، وأجداده الأقدمون من مواليد فلسطين، من طائفةٍ عُرفت

تاريخياً كأقلية تعيش في سورية، وفي لبنان، وفي فلسطين، تركب قمم الجبال؛ لأنها تعرضت في كل حقبة لهجمات المؤمنين الموحِّدين، كان دين هؤلاء خليطاً من الإسلام والمسيحية والوثنية، لا يُعلِّمون شعبهم ما هي تعاليم دينهم، يحتفظ بها كبار رجال دينهم بعد الأربعين من عمرهم، وهم أصحاب شواربَ ضخمة، ويحلقون لحاهم، ولهم زيٌّ مميَّزٌ، فيه طربوشٌ أبيض، سمحت قيادة هذه الطائفة لكلِّ جماعة، في أيِّ بلدٍ، أن تتعامل مع الحاكم، مهما كانت مِلّتُه، أو طبيعتُه، أو انتماؤه لهذه المنطقة، هل يملكها أو يحتلُّها؟! وسمحت لمن يرغب من أبنائها أن يلتحقوا في فلسطين بجيش العدو الصهيوني، فكان منهم الخسيس "غسان"، الذي وَلَغَ في دماء أبناء فلسطين، وهي التي آوتهم، وأطعمتهم، وحمتهم على مدار التاريخ.

أخبرهم "بني غانتس" رئيسُ الأركان: أن الجيش قد تلقى تعليماتِ الوزير ببدء العمليات، حسب الخطة المعدَّة سلفاً، وأنه في هذا اللقاء يعطي تعليماتِهِ، ويحدد مسئولية مَنْ سيتولى تنفيذ هذه الخطة.

- غسان .. طبعاً ستكون على رأس القوات المهاجمة.

- طبعاً .. بالتأكيد أنا من القادة الذين يتقدَّمون جنودهم دائماً..

- أعرف .. أعرف .. سيكون دخولك منطقة الشجاعية، في شرق غزة، مقدمةً لنزع سلاح المخربين، أنت أعددتَ الخطة قبل ذلك، وعليك أن تستعين بالأركان الذين ساهموا معك، حتى يتمَّ تنفيذها.

- طبعاً .. طبعاً "إيرز الكبيتس" قائد الكتيبة، و"يوئالي أور" رئيس هيئة اللواء.

- أنا أعرف أن "أور" رجل أعمالٍ متخصصٍ في بيع المعدات المتطورة للتشخيص الجنائي.

- وهو يبيعها لأذرع الأمن في جيشنا.

كانت هذه الجلسة إشارةَ البداية للعدوان الجديد، بعد أن أنهى رئيس الأركان لقاءه مع قيادات الطيران، والبحرية، والصورايخ المضادة للصواريخ، والتي سَمُّوها "القبة الحديدية".

كما أنهى رئيس الأركان مبكّراً اجتماعه بوزير الجبهة الداخلية.

حاولوا جميعاً أن يرفعوا من روحهم المعنوية؛ لينقلوا هذه الحالة النفسية إلى الجنود المرعوبين، عندما سمعوا من قادة الكتائب اليهودية أنهم ذاهبون "لتأديب غزة"، ومنع الصواريخ، وتدمير الأنفاق، وتسليم المدن والقرى لحلفائهم أو لحميرهم، وبخاصة من الفلسطينيون كما هو معتقدهم !

وقف غسان عليان أمام قادة اللواء في حركات استعراضٍ للشجاعة، وقال بصوت مرتفع في مكبر للصوت:

- لا تَتسَوْا أهداف العملية الكبيرة .. تدميرَ الأنفاق كلّها، وتدميرَ الصورايخ كلّها، والقضاءَ على كلّ سلاح المخربين،

قال ضابطٌ شَاحِب الوجه:

- هل سندخل غزة؟

قال يوئالي أور:

- ليس بالضرورة !!

- كيف ننزع كلَّ السلاح دون دخول غزة؟!

- سنضرب غزة لمدة أسبوع بالطائرات، سندمّر غزة، وكلَّ المدن، وسوف تستسلم غزة، سيرفعون الراياتِ البيضاءَ، وعندها ندخل؛ لنجمع السلاح.

انتشرت هذه الكلمات وسط الجنود، وسرى في أجسادهم الخوف والرعب، فبدأت تتوالى أخبار الهروب، والتفكيرُ الجادُّ بالاستقالة من الجيش، وامتناع أفرادٍ من قوات الاحتياط عن الالتحاق بالمراكز القتالية، وانتشرت حالات الإسهال والقيء دون مرضٍ عضوي، وكثرت دموع الأمهات والزوجات، والأبناء والبنات، والإخوة والأخوات، مودّعين أولادَهم الذاهبين إلى الجحيم .. الذاهبين إلى الموت !

كانت مدن قطاع غزة وقُراه، كبقية العالم الإسلامي، تتهيَّأ لاستقبال شهر الصوم، كانت الشوارع قد ازدانت باللافتات، وتَمَّ شراء الأطعمة الرمضانية المعروفة كالتمر، والخَرُّوب، كما بدأت "بسطات" الباعة المتجولين تظهر في الشوارع بالقرب من المساجد، والأسواق، وأرصفة المناطق التجارية، تعرض المخللات، والحلويات، ورؤوسَ نبات الفجل، وأوراق الجرجير، وبدأت الأسواق القديمة ذاتُ الشوارع الضيقة، والمحلات المزدحمة بأكياس الجوز واللوز والفستق والحُمُّص.

وبدأت محلات بيع الفول والفلافل تشحن مخازنها، وتهيِّئ مطاحنها، وبدأتِ المساجد تُطِلُّ من نوافذها؛ لترى كيف يقوم الشباب بتنظيف الشوارع، وسَقْيِ الأشجار، وتنظيم المرور!

كان المؤذِّنون والذين يُؤُمون بالناس في صلاة التراويح يُهيِّئون أنفسهم لمشوار شهر رمضان الكريم، وبدأت تظهر في شوارع غزة فوانيسُ إضاءةٍ جلبها أصحابها من مصرَ في سَفْراتِهِمُ القليلة والنادرة من معبر رفح في الشهور الأخيرة.

بدأ أصحاب الذنوب تهيئة أنفسهم ليتطهروا، وطمِعَ أصحاب القلوب المُنيبة أن يزيدوا من رصيدهم، فيتعبدوا ويتقربوا .. كان الكُلّ ينتظر الصلاة؛ ليجلس الفقير بجوار الغني، والقائدُ مع أفراده، والمسؤولون وسط العامة، شهر رمضانَ قادم، في شهرٍ حارٍّ، الصيام فيه شاقٌّ، ولكنه محبَّبٌ،

اليوم طويل، ولكنه بأجرٍ ليس بالقليل، والليل قصير، ولكنَّ القيام فيه على الخاشعين يسير.

فرغ أبو جمال قائدُ كتيبة منطقة التفاح، وهي الحيُّ المحاذي للأرض المحتلة التي تقع إلى الشرق منه، بينما تداخلت بيوته جنوباً مع بيوت حيِّ الشُّجاعية.

وفرغ قائد منطقة الشجاعية "أبو المنتصر" من لقائه مع قادة سرايا منطقة الزيتون في الغرب منه، وقد نَسَّقُوا خطَّتهم، وزرعوا ما احتاجه كلُّ "لواء" من الأسلحة والذخائر، وكلٌّ منهم قد استمع إلى كلمات القائد العام لقوات كتائب الشهيد عِزّ الدين القسام المكتوبة، وقد شرحت الموقف بالتفصيل.

لقد علموا يقيناً أنها حالة الطوارئ القصوى، وأن الاستعداد للمواجهة أمرٌ مؤكَّد، وأن الموقف هو الردُّ في حدود غزة، في محيط القطاع، ضدَّ القرى والمستوطنات، في الغلاف القريب لهم، كردٍّ على أيِّ عدوانٍ محدودٍ من العدو، فإذا طوَّر المعتدون هجومهم؛ فعليهم انتظارُ أوامرَ جديدةٍ.

كان الجميع يمسك بسماعة الهواتف الأرضية الخاصة بهذه الوحدات القتالية من شمال قطاع غزة إلى جنوبه، لا يقدر – بفضل الله- أن يتنصت عليها أحد، وهم على تواصل مع القيادات السياسية الموزعة على طول المنطقة

وعرضها، في أماكن آمنة، ومزودة بكل وسائل التواصل والمعيشة الضرورية، ومتابعة وسائل الإعلام العصرية والمتقدمة، فقد صدرت الأوامر للجميع بمنع استخدام الهواتف المحمولة، وخاصة الحديثة منها.

وأبلغهم القائدُ العامُّ أنه تَمَّ التواصل مع حركة الجهاد الإسلامي، وبقية الفصائل المقاومة الأخرى، وأن حالةً من التنسيق تَمَّ الاتفاق عليها، إذا بدأ الأعداء هجومهم.

أعلنت دولة العدوان الحرب في بيان رسمي، بعد يومٍ من تفجيرات كرم أبي سالم، كانت دولة اللصوص تتوق لضربِ غزةَ، وتأديبِ أهلها، وضَمِّهم إلى حظيرة الاستسلام التي انحرفت إليها سفينة منظمة التحرير الفلسطينية، وقد رست على ميناء سلطةٍ، تتعاون فيها مع عدِّوها ضدَّ نفسها وضد شعبها، كانت البيئة من حول غزة مشجِّعةً لتهشيم رأسها، أو على الأقل بتر أطرافها؛ حتى لا تسير، وحتى لا تتقوى؛ فتكبرَ ويشتدَّ عُودُها، ويستعصيَ على الكسر يوماً ما.

ظنَّ العدوُّ أنَّ غزة تلقَّت صفعةً على خَدِّها الأيمن في رفح، وأنها ستُكْرهُ على إدارة خَدِّها الأيسر، لكنها لم تفعل، بل رفعت قبضتها اليمنى القوية؛ لِتَلْكُمَ العدو في دماغه بقوةٍ وعنف، حين ردَّت على اغتيال خمسةٍ من رجالها في رفح، وجَرْحِ

سادسٍ، بضرب القرى المسروقة من حولها، في رَدٍّ لم يتوقعه العدو، وقد شعر بالمهانة؛ لأن العصفور ينافح الصقر في نظره، لقد أرادوا دائماً أن تبقى المعادلة هكذا، عصفور في مواجهة صقر، ولكنها النّسر يواجه الصقر، أو العُقَاب، بل الغُراب؛ فإن الله معنا، وما يعلم جنود ربِّك إلا هو!

أعلنت دولة اللصوص في فلسطين المحتلة الحرب، وسَمَّتها "الجرف الصامد" وهو اسم يعكس – رغم الغطرسة- الإحساسَ العميقَ بأنهم يعيشون على جرف، لا يريدون له أن يوصف بلقب "جرف هار" فَسَمَّوْهُ "الصامد"، ولم يعرفوا أن القيمة اللفظية، والدلالة التاريخية هي في أنه جرف قد يكون صامداً اليوم، ولكنه سينهار آخر النهار، أو في أجلٍ قريب.

وفي حركة انتقامٍ غريزية، حمّل العدو مسئولية خطف الجنود الثلاثة لحركة حماس، وقام باعتقال أكثر مَنْ تَمَّ الإفراج عنهم في صفقة "وفاء الأحرار" في الضفة الفلسطينية، واستجابت حركة المقاومة الإسلامية للتحدّي، وأطلقت على المعركة اسم "العصف المأكول".

خرج من يطلب باسم المقاومة الإفراج فوراً عن الذين نقض اللصوص عهدهم باعتقالهم بعد تحريرهم في صفقة التبادل للأسرى، كشرطٍ لوقف إطلاق النار، ولم يردّ العدو.

بدأت قوات المقاومة تمطر المستوطنات شرق مدن غزة وقُراها بالمئات من قذائف "الهاون" صنعِ أيديهم، فَهُرِعَت التجمعات إلى المخابئ، وسط صراخٍ وعويلٍ ورُعب، لم تُغفِلْه، ولم تخطئه آلات تصوير الإعلام في العالم .. وليس من أجل هذا تركوا بلادهم، وجاؤوا إلى هنا ؟!

وقفت غزة بمفردها في هذه اللحظة الفارقة بين الوجود والشعور بالخطر الكبير، واستشعرت فلسطين هذه اللحظة، كان على فلسطين الأصيلة أن تقف معها، بعد أن وقف من أبنائها من ينتظر لحظة ذبح حماس؛ ليوزّع الحلوى .. استشعرت القدسُ بمسجدها، وكنائسها، وجبالها، وأشجارها، وأعدادٌ كبيرةٌ من المدن والقرى خطورةَ اللحظة؛ فاستحضرت دعاء الأنبياء، والأتباع الأوفياء، واستجمعت دموع المذبوحين في ساحاتها على أيدي الفرس، والرومان، والصليبيين الحاقدين، والإنجليز المجرمين، واستحضرتِ الدعواتِ المستجابة، وأرسلتها إلى الذي لا يَغفُلُ عن أوليائه، وقد وعدهم بالإجابة.

استنطقت جبال القدس أنفاسَ الصالحين، وزفراتِهم، ودموع عيونهم وهم ساجدون .. يسألون الذي بيده مفاتيح النصر لأحبابه، من أتباع الأنبياء الذين كانوا هنا، أو مرُّوا من هنا، واشتدَّتِ الريح تأتي بذكريات خالد بن الوليد، وعمرَ بن

الخطاب، ومحمد الفاتح، جاء بعضها من الشرق، وبعضها من الشمال؛ تُذكّر بنصر الله والفتح.

علتِ الأمواج؛ لتُغرِقَ طين البلاد قبل أن تطأها أقدامٌ مكروهة .. فأسكنتها غزة أنِ اطمئني، وفرغت المساجد إلا من المؤذنين، يُذكّرُون مَنْ لا ينسى من البشر، ويطلبون منهم الصلاة في رحالهم، لقد سمع أبناء غزة دقاتِ قلب القدس .. خائفةً، لكنها واثقةٌ أنها ستستقبل هؤلاء؛ لِيُرَوُّوا صخورها بدموع الفرح، يوم يحقّق الله تعالى وَعْدَ الآخرة قريباً في المجرمين على أرض فلسطين.

سارعت أمريكا دولةُ الاستيطانِ وإبادةِ الهنود الحمر، أهالي البلاد الأصليين، والتي لم تأخذ من تاريخهم، ولا من اسمهم سوى كلمة "الأباتشي" التي سَمَّوْا بها آلة تدميرٍ سيئةَ السمعة، طائراتٍ مروحيةً قاصفةً مدمّرة، وقبيلة الأباتشي الهندية منها براء!

ولم تغفل دولة اللصوص الأكابر في تاريخ أمريكا وَصفَ الأبرياء بالإرهاب، وإدانة إطلاق الصواريخ على إسرائيل بشدة .. بشدة جداً .. جداً!

بدأت الطائرات المعادية تدكُّ مواقع المقاومة في كلِّ الشريط المحاذي لحدود قطاع غزة، واستهدفت مواقع الأنفاق،

وبعض المنازل؛ فقتلوا ثمانية مجاهدين، وأصابوا أعداداً أخرى، بدأت تتوافد إلى المشافي!

قرَّرت قيادة القسام في هذه الأجواء أن تبدأ بعمليةٍ ذاتِ دلالاتٍ مهمةٍ على الأطراف المتحاربة، وعلى الذين يترقَّبون سقوط المقاومة في غزة؛ من العرب الذين لا يريدون لهذا البرنامج أن يبقى، والذين لخّصوا المشروع الإسلامي في تنظيمٍ يختلفون معه، أو يتفقون، ليس كدينٍ خاتم، وفرقانٍ فاصل، وعلى الصفحة نفسِها كان الملايين ينتظرون صمود غزة، فقط صمود غزة في وجه إسرائيل وحلفائها من العرب والغرب، ومن العجم والبجم .. هنا كان على المقاومة أن تأتيَ العدوَّ من حيثُ لا يحتسب.

بدأت السواعد المتوضئة لرجال المقاومة بإمطار المستوطنات شرق مدن غزة وقُراها بالمئات من قذائف "الهاون" التي تمَّ تصنيعها محلياً، بنفس تلك السواعد الضاربة، فَهُرِعَتِ التجمعات إلى المخابئ، وسط صراخ وعويل، وخوف ورعب رصدت ملامحه عدسات وسائل الإعلام ، لتنقل للعالم حقيقة الجبهة الداخلية الهشة للعدو!

في غرفةٍ مزدحمةٍ بأدوات التصوير الأرضي والجوي، وعلى مائدةٍ زجاجيةٍ كانت خريطة قطاع غزة مضيئة، وقد

وضع "غسان عليان" عليها علامات، هي أعلام صغيرة، كل علم لونه أبيض، وفيه خطان أزرقان، وبينهما نجمةٌ سداسية.

كان هذا مبالغةً من غسان في تقدير هذا "العَلَم" الذي يحدِّد مستقبل حدود هذه الدولة، فهذا الخط الأزرق هو نهر الفرات في الشرق، وهذا الخط في الغرب هو نهر النيل، والحدود الممتدة إلى ما بعد النهرين شمالاً وجنوباً، هي حلم صهيون في دولة إسرائيل في عقول الذين يقولون بعودة السيد المسيح -عليه السلام- إلى الأرض، أرضِ الميعاد، سوف ينزل على "جبل صهيون" في القدس، فيجد فيها اليهود قد تجمَّعوا من شتات الدنيا؛ فيعيدهم إلى ديانته، في الألف سنة السعيدة الثانية، حلمٌ أو وهمٌ، إنها "الرجعة الثانية" في عقولهم، ومن أجل ذلك شجَّع المسيحيون احتلال اليهود لهذه الديار؛ لِتزاحمَ على الديار التي تلقَّتِ الوحيَ جبريلَ الأمين – عليه السلام- وعلى رسل الله المكرمين، عشَّشت هذه الأسطورة في عقول الجنود، وظنُّوا أنهم جنود الربِّ الدموي "يهوه"، الذي يحبُّ القتال !

هل كان غسان وقتها مؤمناً بهذه "الخرافة"؟ أم أنها مهنة الجيش، يسترزق منها، ويُرضي غروره، ويبلغ بها مراتبَ قياديةً كبيرة؟ حتى وإن جلب العار والدَّمار على طائفته؛ يوم يجيء وعد الله الحق في تحرير هذه الأرض؛ وعمَّا قليلٍ ليُصبِحُنَّ نادمين !

كان غسان ينتظر دخول "يوئالي أور" رئيس هيئة اللواء الذي وصل أخيراً، فوجد كلَّ شيءٍ جاهزاً، قال غسان وهو يَعُبُّ الشاي من كوبٍ كبير، ويبلعه، فتمتنع بعض جرعاتٍ منه من الدخول لجوفه، جوفٍ خائنٍ لوطنٍ عاش أجداده فيه آمنين، قال:

- إنه اليوم يخطّط لدخول حيِّ الشجاعية، فيقتل منهم، أو يقتلهم كلّهم إنِ استطاع، أو ينزع سلاحهم، ثم يقف أمام وزير الحرب منتظراً أن يُقلّده وساماً كبيراً .. استهوته اللحظة فقال:

- سندخل هذا الشارع بين الشجاعية والتفاح، هذه الخاصرة الضعيفة؛ فنمنع التواصل بين المنطقتين المزدحمتين؛ لأن فيهما أعداداً كبيرة من المخرِّبين، ويصبح وصولنا قلب مدينة غزة اللعينة سهلاً، كيلو متراً واحداً ..

كان يشرح لشريكه، رئيسِ أركان الكتيبة خُطّته العبقرية، يتحدث بلغة غير لغته، مع شخصٍ جاء من بلادٍ لا تمتُّ لهذه المنطقة بصلة !

قال "أور":

- لماذا لا ندخل من نتساريم؟ هي منطقة فارغة من السكان ..

- لا .. لقد أعددنا خطتنا في هيئة الأركان بعد حرب "عمود السحاب" التي خسرنا فيها الكثير، واتفقنا على خطة جديدة،

ناقشناها معك سابقاً، نتساريم اليوم امتلأت بالمخربين تحت الأرض، في الأنفاق؛ لأنهم يتوقعون دخولنا منها، وسنفاجئهم، وندخل من شارع البلتاجي، مسافة كيلو مترٍ واحد، وحتى أقل؛ ونكون في قلب غزة.

سنجد الأعلام البيضاء على البيوت، سندخل كلَّ بيت، ونأخذ الذين نريدهم، من هنا، ومن هناك.

كان "أور" مرعوباً من سذاجة القائد الكبير لأعظم لواء، اكتسب سمعةً وشهرةً بين جيوش الدولة، لواءِ جولاني، كان مرعوباً من الأنفاق، فقد ترك الخريطة التي يشير إليها غسان، وأخذ يفكر في الصور التي الْتقطتها الطائرات "الزنانة".

- أخشى أن نرى من الأنفاق مفاجآت.

- صحيح .. نحن لا نعرف عن الأنفاق إلاّ القليل، لكنْ أرجو ألاّ يتسرب الأمر للجنود.

- الجنود خائفون .. مرعوبون .. لقد بذلت معهم جهداً فوق طاقتي، إنهم خائفون، لا يريدون الحرب.

- علينا أن نكررَّ أن أسلحتنا هي الأكبر والأكثر تطوراً في العالم، لقد وعدناهم أن التكنولوجيا التي نملكها هي التي ستحارب وتنتصر، سأكون أولَ من يدخل الشجاعية، سأكون في مقدمتهم؛ حتى أشجعهم، ماذا فعلت في أوامر الكتيبة (13)؟

أخذ "أور" يشرح بصوتٍ متردِّدٍ ومتقطّع خُطّته للدخول إلى هذه المنطقة، وفي كلّ مرةٍ كان يردّد بعد كلّ كلمةٍ "أنفاق" .. كانت الأنفاق كابوسَ نهاره، كما كان الأسرُ كابوس ليله، لقد تحوّلت حياته إلى كابوسٍ كبيرٍ متصل، منذُ أن قرّرت القيادة عملية "الجرف الصامد" من قبل أن يتمّ الإعلان عنها في العلن.

كان "أور" يحدّث نفسه طوال اليوم "لماذا أنا هنا؟ لماذا لا أعود إلى "نيوجيرسي" أبي هناك، وأمي ماتت هناك، كان هذا الخاطر لا يغادره، بين كابوس الأنفاق، وكابوس شاليط الجديد!

عاد "أور" من حديث نفسه؛ ليسمع غسان:

- هكذا تكون الخطة العملية قد اكتملت، وبقيت إشارة البداية.

سأله أور بصوتٍ منخفض:

- ألستَ عربياً يا غسان ؟

- بل أنا إسرائيلي، وقائد في جيش الدفاع الإسرائيلي، أبي عربي..

قال "أور" وهو شبه مغمض العينين، وكأنه يحدث نفسه:

- أتعرف ماذا أعمل؟ أنا خبير ومتخصص في بيع المعدات المتقدمة التي يستخدمها الأخصائيون في التشخيص الجنائي .. ألا ترى أن عملي هناك أكثر فائدةً للدولة من وجودي هنا؟

ولم يَرُدَّ غسان، فقد الْتقطَ كلماتٍ هامة؛ سيستخدمها ضد "أور"، ويتهمه يوماً ما بالجبن والخوف، وفي حركة استعراضية قام ينظر إلى الخريطة من جديد، كتلميذٍ يراجع دروسه قبل دخول الامتحان، بينما كانت كلمات "أور" قد بدأت تتفاعل في عقله أيضاً "الأنفاق .. الأنفاق"!

كان أور يحتقر غسان، ويُنكر عليه في نفسه، وفي جلساتٍ خاصةٍ، أن يكون هذا العربي قائداً لِلِوَاءٍ، هم فيه قادة كتائب، إنه عربي وعميل لدولتهم، سألوا يوماً كبير الحاخامات في الجيش:

- كيف يكون هذا "الآخر" رئيساً علينا؟

قال لهم الحاخام واثقاً، ومن يومها حفظوا ما قال، وردَّدوه، واطمأنت به أنفسهم:

- لقد خلق إلهنا "يهوه" الآخرين على هيئة اليهود؛ ليكونوا حميراً لهم، وأنت تركب الحمار أو الحصان، هو أقوى منك، وأسرع منك، ولكنك تركبه، وتقوده؛ فيوصلك بقوته وسرعته إلى غاياتك، وفي مقابل ذلك تطعم الحمار والحصان وتنظفه، ليس حُبَّاً في إطعامه ونظافته، ولكنْ ليحقق لك أهدافك، هذا

العربي هو حمار خلقه "يهوه" على صورتنا؛ لنركبه، سترون أنه يلقي بنفسه في مقدمة القتال، هكذا تربى الحصان أو الحمار على الطاعة، وإلاّ منعنا عنه الأكل والشرب، إن غسان وأمثالَه حمارُكم؛ يرفس أصحابه، ولا بأس من بعض المناصب والرتب يضعها على كتفه، وبعض الشواقل يضعها في جيبه، ولكنه يبقى حمارَنا!

بدأت الحرب تؤتي نتائجها المدمِّرة، في اليوم الأول للعدوان؛ فالمشافي قد امتلأت طرقاتها بالمصابين والشهداء، وتحرَّكت سيارات الإسعاف والنجدة؛ لنقل المصابين من كلِّ مكانٍ في قطاع غزة، وإطفاء الحرائق، وكانت الصورة قاسية، كان على المقاومة أن تعادلها، وترد الصاع صاعين.

كانت وحدة الضفادع البشرية قد تدَّربت على مهمة داخل الأرض المحتلة من البحر قبل سبعة أشهرٍ من العدوان على غزة.

كانت تقديرات القيادة العسكرية للمقاومة الفلسطينية قبل أيام من اندلاع العدوان على غزة قد رجَّحت مواجهةً مع العدو، فصدرت الإشارة إلى قائد وحدة الضفادع القسامية قبل ثلاثة أيام من بداية العدوان، أن جهِّزوا أنفسكم؛ لتكونوا أولَ صفعةٍ على وجه الاحتلال، وعلى قفا من يقف

خلفه من الدول الغربية، ولتُدمِيَ أنف كلٍّ من ينتظر هزيمة المقاومة من الفلسطينيين والعرب.

أعدَّ المجاهدون الخمسة مع قائدهم أمتعتهم، وجلسوا في موقعهم لا يغادرونه ليلاً أو نهاراً، أَعَدُّوا الأكسجين، وأحزمة المواد المتفجرة، وملؤوا خزائن البنادق، ومضادات الدروع، والعتاد الثقيل، وتمَّ تغليف القنابل اليدوية، والمواد المتفجرة بأكياسٍ تمنع تسرب الماء.

ثم خرج الخمسة في رحلة تجريبية في حدود شاطئ قطاع غزة، كان ذلك قبل ثلاثة أيام من المعركة، وكانت المفاجأة أن أصيب خالد بالْتهابٍ رئويّ، وأرسلت القيادة إلى قائد الوحدة استحالة مشاركة الأخ إبراهيم أيضاً، فهو مريض، وخلفه أسرته المكونة من سبعة أطفال، وزوجته، ووالدته، وأخواته، بينما تَمَّ اعتماد محمد، وحسن، وبشار.

اعترض كلٌّ من خالد وإبراهيم، وصمَّموا على المشاركة، كان خالد قد أُصيب بالْتهاباتٍ شديدةٍ في القصبة الهوائية، وتناول العلاج، ولم يَبْقَ سوى إفرازات الرئة التي تدفعه لِلْكَحَّة الشديدة في بعض الأوقات، أما إبراهيم فكان مصاباً بالْتهاباتٍ في الأمعاء.

قام قائد الوحدة بعملية تجريبية في الغطس لخالد وإبراهيم، ونجح الاثنان، فتقرَّر مشاركتهما.

كان الخمسة قد وقفوا أمام الكاميرا يسجلون وصيتهم لأهلهم وشعبهم وأمتهم، كانت أوقاتهم تمضي انتظاراً للرحلة التي لا رجعةَ بعدها للأهل، رحلة إيمان عبَّأها القرآن، والحديث عن الجنان، وعن العَشَاء مع الرسول العدنان - صلى الله عليه وسلم- وعن أهلٍ غير الأهل، وبيوتٍ غير البيوت، وحور عينٍ غير حور الطين، وعمّا تعلموه، وما سمعوه، وما تَمَنَّوه، وقد باتوا على بُعدِ سويعاتٍ منه.

تسلّم محمدٌ هاتفاً محمولاً من قائد الوحدة، بعد أن عانقه بحرارة، وقال:

- في هذا الجوال كاميرا فيديو، يتمُّ إرسالها عبر الشبكة المعادية "أورنج" إلى المركز عندنا، حاول ألاّ تتصل كثيراً.

- متى التحرك إن شاء الله؟

- ستتحركون على بركة الله قبل الغروب بثلاث ساعات، لتصلوا مع الغروب؛ لتفادي أشعة الشمس، التي قد تكشف خروجكم من الماء، خذوا وقتكم الباقي في الذكر والتسبيح، وإلى الملتقى على حوض الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم.

في الوقت المحدَّد للتحرك كانت السماء قد امتلأت بالطائرات الحربية، وطائرات الاستطلاع "الزنانة" التي ترصد

كلَّ شيء، وتطلق الصواريخ على أيِّ شيء، وأصوات البيوت التي تنفجر، وتختفي بسحب من الدخان، والتراب، واللهيب، تلتقطها آلات تصوير .. تبعث ما يصوَّر منها إلى الشرق؛ حيث العدوُّ الذي تجمَّع حول غزة، أما سطح البحر فكان يلتقط ما يصله من دخان، فيذيبه، ويرسل بدلاً منه هواءً نقياً إلى الذين يختنقون تحت الركام!

وصل الخمسة إلى مكانٍ معرَّش بجريد النخيل بالقرب من الشاطئ، كانت المنطقة فارغة، استكملوا استعدادهم، ولبسوا ما يلزم منها للبحر، وأخذوا يزحفون على وجوههم على الأرض حتى وصلوا مياه الشاطئ، نزل إبراهيم ثم طفا على السطح، وغطس ثلاثة، وبقي خالد يراقب، فشل إبراهيم ثلاثَ مراتٍ في النزول تحت الماء، فخرج باكياً، وقال خالد بحزم:

- عُدْ يا أخي، لم يكتبِ الله لك هذا العمل، عُدْ بسرعةٍ حتى لا تعطلنا.

- مرَّت فترة صمتٍ، وتردُّدٍ قطعها رائد قائلاً بحزم:

- عُدْ يا أخي فوراً .. لقد تأخرنا.

- أستودعكم الله .. سامحوني.

غطس خالد، ولحق به الثلاثة محمد، وبشار، وحسن تحت الماء، والتقوا على الأرض، وقاموا بالصلاة التي ربما تكون

هي المرة الأولى في تاريخ البشرية، يستذكرون قصة النبي يونس -عليه السلام- كان تسبيحه في بطن الحوت، فكان منجاةً له، أما صلاة المجاهدين اليوم فيرام بها التوفيق الرباني في المهمة الصعبة.

كانت خطتهم أن ينقسموا إلى مجموعتين، الأولى لاقتحام الموقع العسكري على ساحل البحر، والثانية تضرب القوافل العسكرية القادمة إلى قطاع غزة.

تحرك تماسيح البحر، يسيرون بهدوء على الأرض، أجسادهم رشيقة، وأعمارهم في بداية عقدها الثالث، على أجسادهم لباسٌ أسودُ ملاصقٌ لجلودهم، وعلى رؤوسهم نظارات واسعة تمنع وصول الماء إلى العيون، وعلى ظهورهم أسطوانات امتلأت بالأكسجين.

اكتمل ارتداؤهم لزيِّهم البحري، ومَدَّ كلُّ واحد منهم يده إلى بندقيته مشفوعة بشهادة ألاَّ إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وخلفها تدَّفقت كلماتٌ من النور الكريم.

قال محمدٌ متعمِّداً بصوتٍ مسموعٍ، وكأنه يذكِّر إخوانه الأربعة:

- "وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ"، اللهم توفيقك، اللهم سدِّد رمينا، يا رب.

دمعت عيون القائد الذي اطمأنَّ على استعداداتهم، هزَّته كلمات محمدٍ وهو يرى أمامه شهيداً حياً يستعدُّ للتحرك اتجاه البحر؛ ليلقى عدَّو الله وعدوَّهم.

- أنا لا أوصيكم بالشجاعة، لقد جُبلتم على الشجاعة، ولكنْ أوصيكم بالإكثار من ذكر الله، وإخلاص النية؛ ليكون قتالكم في سبيل الله، فقط في سبيل الله، وقد قال سبحانه:

قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

تعانق القائد وشباب الفرقة البحرية، وقال لهم:

- راجعتم الخريطة، وخطة السير؟

- نعم، والحمد لله.

- أريد أن أسمعها منك يا محمد.

- بإذن الله سنتجه في عمق الماء من الشاطئ إلى الغرب لمدة خمس دقائق سباحة عادية.

- لا .. ثلاث دقائق كافية.

- وبعدها سنتجه شمالاً لمدة عشر دقائق، سنمكث هناك خمس دقائق،...

- لماذا؟

- أرجو أن تسمح لنا ألا نفصح لك، دَعها في سبيل الله، ثم نستأنف السباحة لمدة ثلاث ساعات، وبعدها نَتَّجِهُ شرقاً إلى

مقرٍ للجيش الإسرائيلي بين "دير سنيد" و"هربيا" والتي يسمونها "زكيم"، وعندها نسأل الله التوفيق.

- على بركة الله.

أخذ الخمسة يعانقون قائدهم وحبيبَهم ابنَ مسجدهم، والذي كان يقف في اليومين السابقين بجوار خالد في صلاة التراويح في أول أيام شهر رمضان المبارك، وكان يلحظ آثار دموع خالد على بساط المسجد بعد كلِّ سجود، كان متيقّناً أن خالداً لا يبكي خوفاً، فهو أشجع مَنْ عَرَفَتهُ حركات المقاومة، وهبه الله قدرةً على الغوص لأعماقٍ كبيرة في بحر غزة، ووهبه الله قدرة على المكوث أطول من الآخرين دون أن يتنفس، كما اشتهر بالصلاة في عمق البحر، وعلى رماله الذهبية.

تحرك الخمسة، وفجأةً خرج سعالٌ شديدٌ من إبراهيم، فتوقف الأربعة الآخرون، ونظروا إليه، قال خالد:

- أنت تسعل؟

- نوبةٌ خفيفة، بالأمس بدأت، وإن شاء الله تزول بنزول البحر.

تقدم القائد، وطلب من الغوّاص أن يكشف عن صدره، تردَّد ثم انصاع للأمر الحاسم، وضع القائد سماعة على صدر إبراهيم، ثم قال:

- لقد لاحظت أنك تكتم سعالك منذ أن تقابلنا، اسمع يا أخي، نحن لا نضحي بأنفسنا بلا ثمن، إن الله يرفع منزلتنا بقدر ما نوقع في عدوّنا من خسائر.

- ماذا تقصد؟

- ليذهب إخوانك الأربعة اليوم.

نظر إلى الأربعة الباقين، وقال:

- أذكّركم مهمتكم، فقط زَرْعُ عبواتٍ في طريق ناقلات جندٍ، ودباباتٍ كبيرةٍ، تأتي من الشمال إلى غزة.

قال حسن وهو ينظر إلى البحر، وكأنه يرى ما سيحدث:

- اتركنا نتصرف حسب ما نواجه، سنتصرف وفق الميدان.

أدرك القائد أن في عقل حسن شيئاً ما، ولم يَشَأْ أن يختلف معه، فضمّه إلى صدره بقوة.

- على بركة الله، أَكْثِروا من ذكر الله، وأنت يا أخي انتظر دورك لم يأتِ بعد، سنرسل لك طبيباً.

- لستُ بحاجة، هي نوبة بردٍ خفيفة، ستذهب بمجرد نزول الماء..

- صدرك مليءٌ بالبلغم، وهذا خطر، لم يَحِنْ موعدك بَعْدُ، انتظرْ وإن شاء الله تشفى.

قفزت قطراتُ دمعٍ حزينةٌ من عيني إبراهيم، وانطلقت نوبة من السعال كان يكتمها.

انطلق خالد وإخوانه الثلاثة محمد، وحسن، وبشار، واختفوا في قاعِ البحر، وهو يتقدمهم، وينظر في ساعته، ويشير إليهم أن أسرعوا، حتى أَمضَوُا الدقائق الثلاث، وقفوا واتَّجهوا نحو الشمال لمدة ثلاث ساعات، ثم وقفوا على الرمال والماء يدفعهم في اتجاهات متعددة، رفع خالد يديه بالتكبير وخلفه الثلاثة، وأتمُّوا صلاة ركعتين في دقائق، كان أكثرها السجود تحت الماء على سطح الأرض التي لم يُصلِّ عليها غيرهم من قبل فيما نعلم، وكان الله بكلِّ شيءٍ عليما !

وصلوا شمال منطقة "دير سنيد"، وهي قرية فلسطينية تبعد عن قطاع غزة حوالي أربعة آلاف مترٍ، وقفوا على رمال البحر، وتوجَّهوا نحو القبلة، وصلُّوا ركعتين كانت آخر صلاتهم، ثم توجَّهوا شمالاً نفسَ المسافة السابقة، حتى وصلوا الحدود المائية لقرية "هربيا"؛ حيث يوجد معسكر كبير للجيش الصهيوني، مكان تجمَّعت فيه القوات قبل عدوانها على غزة، وصلوا وخرجوا فوق سطح الماء وصوَّروا المكان، وقدَّروا مسافة بين الظهور على السطح وبين الأرض، الأرض التي كان آباؤهم يزرعونها، ويحصدون ثمارها، ويخزِّنون، ويبيعون، ويشترون، واليوم يسكنها شياطين الإنس، جاؤوا من كل بلاد الدنيا، لا يتكلمون لغة الأرض، ولا يستمتعون بطيب ريحها،

ولا يعرفون كيف يأكلون ثمار الجُمَّيز؛ فيتركونه يسقط على الأرض!

قام خالد وإخوانه بإبلاغ القيادة ما رأوا، وما فعلوا، لم ينهكهم السفر تحت الماء، ولم تغادر أعينهم صورة الأرض التي تعوَّد جَدُّهم أن يحدِّثهم عنها، وهم يركبون الخيول، مروراً بها في طريقهم إلى المسجد الأقصى، ويافا، وحيفا.

اتجهوا نحو الشرق، ووصلوا الشاطئ، أخذوا نَفَساً طويلاً بعد أن أغلقوا أسطوانات الأكسجين، وتخلَّصوا منها، وانطلقوا اتجاه أشجار كثيفة، في غابة صغيرة، ذهب خالد إلى طرف الغابة، بينما بقي الثلاثة ينظرون في كل اتجاه، كانت الطائرة "الزنانة" تذهب من فوقهم اتجاه غزة وتعود، يبدو أنها لم تلتقط صورهم، وأنَّى لها ذلك، وقد أيقنوا أن الله قد جعل من بين أيدي أعدائهم سداً، ومن خلفهم سداً؛ فأغشاهم فهم لا يبصرون!

أشار خالد إلى الثلاثة عن بُعدٍ وبين الأشجار، فتحرَّك الثلاثة بسرعة، قال لهم بصوتٍ هادئ:

- لقد تعاهدنا على أن نُوقِعَ أكبر عددٍ منهم صَرعى، هذه هي الساعات الأولى للمعركة، إذا نجحنا في هزيمتهم، سيهزم الجمع ويولون الدبر، المهم أن نلقى الله وهو راضٍ عنا.

أشار إلى معسكرٍ للجيش، فانطلقوا بسرعة لم يعهدوها، وأحاطوا بالجنود الجالسين وهم يستمعون إلى تعليمات ضابط منهم، ولم يكن هناك حُرَّاسٌ على الأسلاك الشائكة المحيطة بهم .. شلّتهم المفاجأة؛ فتسمَّروا في مواقعهم !

أطلق الأربعة النار على الجميع، وأفرغوا بعض خزائن أسلحتهم الأولى، ثم رجعوا إلى الغابة مسرعين، وتوزَّعوا.

دسَّ محمد يده في جيبه، وأخرج هاتفه المحمول الذي كان قد لفَّه بكيس، نظر إليه خالد مستنكراً:

- كيف جئت به؟ إنه سيدلُّ علينا ..

- أعطانيه أخونا قبل الغوص، سيكون لهذا الخبر أثره الكبير.

- سأتصل بأخي، وأبلغه ما حدث، ثم نتخلص من الهاتف.

لم ينتظر، فانطلق طَرَفُ أصبعه يطلب رقم أخيه:

- السلام عليكم، كيف أحوالكم أنا بخيرٍ، اسمع .. اسمع، لقد تمَّت عملية في منطقة هربيا "زكيم"، وهاجمنا تجمعاً للجنود، نعم أنا متأكد من ذلك، هل تسمعني؟

- الله أكبر ولله الحمد، نعم أسمعك .. أسمعك، هل هذا مؤكد؟

- نعم .. نعم متأكد، أنا هناك، بلّغ عنّي في الوقت المناسب، دعواتك، بلّغ سلامي وتحياتي لأبي وأمي والجميع .. مع السلامة.

ألقى الهاتف في حفرة صنعها بقدمه، ثم استمع هو وبقية إخوانه لصوت دبابة قادمة.

نظر خالد، فشاهد غباراً يأتي من الشمال، قال بصوتٍ حازم:

- أنا بمفردي سأذهب إليها ..

نزع خالدٌ كيساً من النايلون كان يلفُّ به عبوتين ناسفتين صغيرتي الحجم، قويتي التأثير، حَمَلَ واحدةً بسرعة، وانطلق يصعد تلةً ترابيةً حتى وصل إلى الطريق، ووقف بجوار عشبة كبيرة، مرت الدبابة بجواره وتوقّفت، وتحرَّك مدفعها ناحية معسكر الجيش المنكوب.

لحق بها خالد، ثم وصل إلى مؤخرتها، ووضع العبوة، ثم رجع مسرعاً إلى أسفل الطريق، ولم يلتحق بإخوانه في الغابة حتى انفجرت الدبابة، وتوقّفت، ولم تطلق رصاصةً أو قذيفةً واحدة.

نظر الثلاثة إلى الدبابة المشتعلة، ثم سجدوا على الأرض وعيونهم دامعة، وأفواههم مبتسمة، ولطالما كانوا يَخرّون للأذقان يبكون، ويزيدهم خشوعاً.

وصل خالد، وشاركهم مشاهدة الدبابة المشتعلة.

بدأت زخات من الرصاص على المنطقة، وعلت الزنانات "راكبات الهواء" تملأ المكان، وأخذت دبابات ترمي بحممها من

مكانٍ بعيد، انبطح الأربعة على الأرض، كلٌّ واحدٍ منهم خلف جذع شجرة، قال خالد:

- القذائف من حولنا، لقد حددّوا موقعنا، نتفرّق قليلاً، ثم ننتظر حتى يصلوا إلينا، وعندها نفاجئهم، لا نريد طلقةً واحدةً تخرج من طرفنا.

مرّت دقائقُ، وبدأت أرتالٌ من الدبّابات، والعربات المصفحة، وحاملات الجنود، تظهر على الشارع، وهي تطلق النار في كلِّ اتجاهٍ، ثم اقتربت واحدة، قال حسن:

- هذه حصتي يا خالد اتركها لي.

قال بشار:

- أفضل أن ننتظر حتى يتجمع عددٌ أكثر وأكثر، وعندها ..

- اسمح لي .. أنا لن أنتظر، أريد أن أدخل الجنة في هؤلاء.

أطلق حسن قذيفة مضادةً للدبابات، فانفجرت ناقلة جند، وهرب كلٌّ من اقترب من جنود العدو، وكلٌّ من بقي بعيداً.

سادت حالة من الإرباك والخوف الذي يخلع القلوب، صرخ حسن بأعلى صوته:

- الله أكبر .. الله أكبر.

قال خالد:

- الآن يجب أن نغيِّر موقعنا؛ لأن ذخيرتنا على وشك النفاد.

- هل سننزل إلى الماء؟

- لا .. بل نقاتل حتى آخر رصاصة.

تحرَّك الأربعة من الغابة إلى منطقة أخرى، وبدأت زخات الرصاص تنصبُّ عليهم من الطائرات المروحية، والزنَّانات، ومن الدبابات، ومن كلِّ مكان، حتى سكنت الأجساد، وفاضت الأرواح إلى بارئها.

تلقت الملائكة أرواح الشهداء في زفة سماوية، شارك فيها ما شاء الله تعالى منهم، عرسٌ قدَّره لهم ربُّ السموات والأرض، مشفوعاً بالرجاء أنِ انصُرْ هؤلاء، عبادك الذين يُصلّون الفجر، ويُصلّون في عمق البحر، ويرمون باسمك، ويبتغون مرضاتك، وتحرير بيتك المقدس.

طارت الأخبار إلى رئيس وزراء الدولة المعتدية، الذي صرخ:

- كيف؟ امنعوا أخبار هذه المصيبة عن القادة والجنود، وإلاّ خسرنا أنفسنا، وانهزمنا من أول يوم، لا تبلِّغوا لواءَ جولاني، ولا أيَّ جنديٍّ، أو أيَّ طيار في المستوطنات حول قطاع غزة.

- لكنَّ الأخبار تسرَّبت إلى قيادة الألوية، إلى لواء جولاني الذي يقوده غسان عليان.

سرت أخبار "زكيم" كالنار في هشيم القلوب الخائفة المرتجفة، بدأت كلُّ نفسٍ تفكِّر كيف الهروب من الموت المحقَّق، أربعة أشخاص يدخلون " الأرض" المحصَّنة، ويقتلون

هذا العدد الكبير من الجنود! ويفجرون دبابات! أربعة أشخاص فقط! لو كانوا "عفاريت" ما فعلوها ؟!

وتحرَّك القادة الجبناء الذين يضعون أصابعهم على نبض الشارع الصهيوني المرتجف، وقاموا بنشر صورة واحدة من المشهد، وهي لحظة نفاذ أسلحة الأبطال الأربعة واستشهادهم، وبالرغم من ذلك كان المشهد مسيئاً للقوة التي لا تُقهر، والجيش العرمرم، والاستخبارات ذاتِ الأذرع الطويلة، مسيئاً للدبابات، والطائرات، والقوات المسلحة .. أمام أربعة! فقط أربعة؟!

همس "أور الكبيتس" إلى غسان بالخبر الصحيح، وكان يقصد أن يُنفِّسَ عن حقده، وأن يخفِّف من حالة الخوف التي تملكته عَلَّ هذا "الحمار" أن يخفِّف عنه، ولكنَّ العكس قد حدث، فقد بدأ غسان لا يستطيع إخفاء الرعدة في أوصاله، فهو ذاهب ليواجه جيشاً منه هؤلاء الأربعة، كيف سيواجه هذا، رأى غسان الموت رَأْيَ العين، ولكنه ككلِّ حمارٍ كبيرٍ، أو حصانٍ حقير، لا يملك أن يتوقف، وإلاّ غضب عليه صاحبه.

عرض العدوُّ مخازن أسلحة المهاجمين فارغة تماماً في صور الإعلام العالمية، لم يجدوا قنبلة يدوية واحدة، فقد كان كُلُّ واحدٍ من الأربعة يحمل أربع قنابل، كانت قوالب المواد

المتفجرة فارغة تماماً، ولم يدركوا أنهم بذلك قد ارتكبوا خطأً كبيراً، كيف تَمَّ إفراغ هذه الذخائر؟

لقد أفرغ المجاهدون كلَّ ما بحوزتهم من ذخيرة، الله أعلم في أيِّ الأجساد سكنت، وكم من الأبدان هتكت، وبها فتكت، وكم من الأبدان سكنت؟!

قرَّرت قيادة المقاومة إعلان أقصى درجات الاستعداد في اليوم الثاني للعدوان، وتأكَّدت وجود القيادات في أماكن تواجدهم في الدرجة القصوى؛ حيث الاستعداد للتطورات، كانت قنابل العدوِّ تسقط على الحدود، وعلى عدد من البيوت، وكان ردُّ المقاومة ضَرْبَ محيط قطاع غزة بالصواريخ قصيرة المدى.

خلت مدن قطاع غزة وقُراه من المارَّةِ والسيارات، وكانت المحلات والمدارس والجامعات قد أغلقت أبوابها قبل يوم، ونشط العاملون في الإعلام في رصد الشوارع والمقرات؛ يبحثون عن أي متحدِّثٍ من المارة.

واكتمل تجمع الأطباء وكلِّ العاملين في المستشفيات وفي أماكن عملهم، وقد أبلغوا عائلاتِهم بأنهم سيبقون في عملهم طوال الليل والنهار؛ إذا بدأ العدوان.

أخذ رجال المقاومة يَحشُونَ أسلحتهم بما يلزم، واختفوا من الشوارع والمقرَّات، وودَّع المجاهدون عائلاتهم، وتزوَّدوا بدعوات الأمهات والآباء والزوجات، بدت في عيونهم مشاعر الحرص على العائلات، والاطمئنان بالنصر.

- إن الله معكم، الله ينصركم، الله يُثَبِّتُكم، لا تَنسَوْا ذكر الله، موعد الذين يستشهدون الجنة، لا تَنسَوُا الشفاعة، سلِّموا على رسول الله عليه الصلاة والسلام ..

اختلطت الدموع، وتباعدت الأجساد، وأصوات الوداع تتداخل مع صوت حشو الأسلحة بالذخائر!

بدأت الطائرات تستهدف بعض المارة في شوارع مدن غزة وقُراها، وخاصة المتواجدون بالقرب من مرابض الصواريخ قصيرة المدى، واستمرت المقاومة في ضرب المناطق المحيطة بقطاع غزة، وعدم تطويرها لأكثر من عشرة كيلو مترات.

وعندما تزايدت غارات الطائرات، وازدادت الانفجارات؛ تزايدت أعداد القذائف، وازدادت المساحات المستهدفة في الأرض المحيطة بغزة، حتى وصلت إلى البلدات التي يسكنها المستوطنون، الذين يعيشون كطفيليات على الأرض التي يملكها آباء المجاهدين وأجدادهم من قبل، إنهم هنا تحت مظلة وَهمٍ كبيرٍ، اسمه أرض الميعاد؛ بدعوى أن أجدادهم كانوا هنا

قبل ثلاثة آلاف سنة أو يزيد، إنه حقُّ العودة التاريخي، الذي يحقُّ لهم فقط؛ لأنهم يهود، أن يستعملوه دون شعوب الأرض!

كانت القيادة السياسية الفلسطينية ترقب تطور المواجهة، وتأكدت أن المنطقة قد انزلقت إلى حرب، لم ترغب فيها، ولكنها لا تتردَّدُ في خوضها.

بدأت الاتصالات على الهواتف الأرضية بين القيادات السياسية والعسكرية، كانت اللحظات تنقل المواجهة من خطٍّ إلى آخرَ أبعدَ مدىً منه، ومن منطقةٍ إلى أخرى كذلك.

كان إعلام العدو يتحدَّثُ عن تطويرٍ للمعركة؛ لأن المقاومة تخطَّتِ المساحات، أَماَ وقد صارت إلى هذا الحدّ فلابُدَّ من تأديب المقاومة.

كانت دولة الاحتلال قد أعدَّت لهذه المعركة عُدَّتَها العالمية، فسافر المبعوثون إلى جيرانهم الأوفياء، الذين يتمنون دمار المقاومة، وكسر شوكتها، وتتالت الاتصالات بكلٍّ الوسائل؛ لتبرير الهجوم الجبار، الذي سيمسح غزة عن وجه الأرض!

كانت المنطقة حُبلى بالتغيرات السياسية من حول غزة المحاصرة، وكان على المقاومة أن تنكسر؛ لأنها ترفع الإسلام منهجاً، وهو في نظر العدوِّ، وأعوانه، وأتباعه، إرهابٌ وتطرُّف.

وكان أصحاب مشروع السلام العادل والشامل والدائم يَتَمَنَّوْنَ زوال المقاومة، فهي تحرجهم؛ لأنها لم تنهزم في كلِّ مواجهاتها مع العدو، وكانت جولات المفاوضات تأتي بعد جولات المفاوضات، حتى ملأت هذه الكلمة آذان الشعب، كما يملأ صمغ الأذن الأصفر المحروق، بحيث أصبح الإنسان لا يرغب أن يسمع، وإذا سمع لا يريد أن يفهم؛ لأنه "كلام فارغ"، فإن تسمية ما يجري سلاماً، أشبه ما يكون بتسمية الأصنام آلهة!

وتدفّقت الطائرات العملاقة تحمل الذخائر، وأدوات الدمار الشامل، على مطارات الجسم الغريب "الدولة المحتلة" التي اتخذت اسم نبيِّ الله "إسرائيل" – عليه السلام- عَلَماً عليها، وهم لا صلة لهم به، ولا لآبائهم، ولا لأجدادهم، ولا لأجداد أجدادهم، استخدموا اسمه، وجعلوا منه علماً على كيانٍ، ولقباً لقومية، واسم هوية وجيش، وهو منهم براء!

تهيَّأ العالم لحفل هزيمة قطاع غزة المنكرة يوم تُكْسَرُ شوكته، وشوكة الذين يعتقدون باعتقاده، وبقي أن يُحَضِّروا كؤوس النصر الصفراء، ولا بأسَ أن يكون لونُها بلون دم المقاومين، وطعمُها بطعم لحمهم المشويّ، ولا بأسَ أن تتعطَّرَ أنفاسهم بدخان البيوت المهدمة، أو الأجساد المُتَفَحِّمة.

خرجت قيادة الاحتلال؛ لتبشِّر تجمُّعاتِ الخائفين في طول فلسطين وعرضها بدكِّ مواقع المقاومة، وبيوت قياداتها، وتدمير المزارع والمصانع، وتدمير كلِّ شيءٍ تحت عنوان معركة "الجرف الصامد" .. أخذ الناس يتأمَّلون هذا الاسمَ ودلالاتهِ.

جرف .. اسم يفيد إمكانية جَرْفِه، أي إزاحته وإزالته، فهو في طبيعته يحمل عدم الصمود، فهل هو تَحَدٍّ لِلغُة والفهم، ومبالغةٌ في الثقة؟ أم هي حالةٌ نفسيةٌ تُشعر بالإزاحة والإزالة، وتريد أن تنفيها، كالذي يقول: عن زعيمٍ مقبور .. الفاني الخالد !!

وكانت المقاومة قد أطلقت على المعركة اسم "العاشر من رمضان"، تيمناً بمعركة مصرَ ضدَّ الاحتلال في حرب أكتوبر 1973م التي جاءت في اليوم العاشر من رمضان، وهو اليوم ذاته العاشر من رمضان الجديد.

كان الاسم طاهراً، فهو يتحدث عن شهر رمضان الصيامِ، والصلاةِ، والاعتكافِ، وليلة القدر، ونزول القرآن، وهو يوم عبور الجيش المصري خطَّ بارليف المنيع شرق قناة السويس عام 1973م.

كانت المقارنة مريحة للمجاهدين الذين بدؤوا يوسِّعون من دائرة استهدافهم .. سقطت صواريخهم لأول مرةٍ في تاريخ

الصراع مع العدو- على "حيفا" شمالاً، وعلى "خليج العقبة" جنوباً، فأذهلتِ العدوَّ، وبدا الارتباك في عيونهم أمام وسائل الإعلام.

كان قادتهم يبحثون في عيون الإعلاميين والمراقبين عن بريق ثقة، أو إشارة تصديق، فلم يجدوا إلا مزيداً من الحيرة والاستغراب.

كانت قيادة المقاومة السياسية تتواصل على مدار الساعة، وأخذت سماعات الهواتف الأرضية المحصَّنة من التنصت بفضل الله، تتبادل الدعاء والتهنئة بنجاح الضربة الأولى، كان كلُّ شخصٍ منهم يسترجع أحاديث الرسول محمدٍ - صلى الله عليه وسلم- ويذكِّر بآيات القرآن الكريم بعضُهم بعضاً:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾

﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ ﴾

﴿ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ ﴾

انهالتِ الصواريخ الصغيرة والكبيرة على الأرض المشتاقة لعرق أهل الأرض الذين غادروها – قسراً- في عام 1948م، قرَّرت

الأرض أن تشارك في الدفاع عن نفسها، فكان إذا سقط صاروخ، وتحوّل إلى أجزاء شاركته الأرض بمزيد من طينها، وترابها، وجذوع أشجارها؛ لِيعميَ عيون المحتلين، ويَصُمَّ آذانهم، وَيدخُلَ أنفاسهم؛ يخنقهم؛ يسدُّ حناجرهم، وقذف الله من الخوف والرعب في قلوب الجنود المجندلين قسطاً كبيراً!

كانت البيوت في فلسطين المحتلة تنشقُّ مع القذائف؛ لتسمح لها أن تدخل إلى جوفها، حيثُ تُوجد هذه الأجسام الغريبة، كما السُّمُّ في جوف الإنسان، وكانت الأشجار تتمزق، وتطير مع شظايا الصواريخ؛ لِتضربَ بقوةٍ أعناق المجرمين الذين دَنَّسُوا طهارتها، وأفسدوا هواءها، وأتلفوا ثمرها.

وشارك الهواء بحمل أجنحة الصواريخ إلى مسافاتٍ أبعد، وإلى أهدافٍ أوجع، وإلى بيوتٍ أكبر، وكانت شمس تموز تزيد من تسخين القذائف الساخنة، وهي تشقُّ طريقها وَسطَ خيوط الشمس التي غيَّرت مسارها؛ لِتلحقَ بالصورايخ؛ وتزيدها سخونة، وتدفعها، وتباركها!

وكأن الله تعالى زوى الأرض للصواريخ؛ لتقترب البلدات المحتلة من قطاع غزة؛ حتى تحقّق القذائف أهدافها!

لقد بدت منظومة العقاب الرباني تَحُلُّ بهؤلاء الذين قتلوا نصف أنبيائهم، هؤلاء ليسوا من نسلهم، فكيف وهم

الأدعياء الذين جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها، في مشروع سرقة وطن جهاراً نهاراً.

وصلت القذائف إلى حيفا، التي لم يُلْقَ عليها حجر واحد منذ أكثر من ستٍّ وستين سنة، في هذه المساحات غطّى غضب الله جل جلاله الأرض المسروقة، والوجوه الغريبة، والأخلاق الشاذَّة، والأجساد الآثمة، غضبٌ في صورةٍ مصغرةٍ لإهلاك أقوامٍ خلت من قبل.

وحتى لا يقتل الخوف اللصوصَ؛ انطلقت طائراتهم تضرب البيوت والمواقع، والمصانع والمزارع، لقد كان مشروع التدمير يطبِّق برامجه على الأرض والإنسان، الطائرات فوق كلِّ شبرٍ تضرب كلِّ شبر، وفوق كلَّ شبرٍ كان الإنسان والحجر والشجر يقاوم العدوان!

وعلى جبال القدس التي استقبلت الوحي الكريم، الذي نزل بالهدى على الأنبياء والرسل - عليهم السلام-، وعلى الجبال المُطهَّرة نفسِها التي أَمَّ فيها خاتمُ الرسل - عليه الصلاة والسلام- بالأنبياء، وعلى جبالٍ عاش فيها إبراهيم - عليه السلام- وأبناؤه إسماعيل، وإسحاق، وعلى نفس جبال الضفة الغربية والأرض المحتلة قبل ستٍ وستين عاماً، التي تعطَّرت بدماء الاستشهاديين، وعلى المآذن الشامخة، والكنائس العالية، والبيوت الصامدة، وقف الآلاف من الرجال والنساء والأطفال

ينظرون إلى الصواريخ القادمة من غزة، التي دكّت كبرياء عدوٍّ غاصبٍ، لم يَذُقْ طعم الهزيمة، وصدَّق أنها حالة عُلُوٍّ أبدية!

لحقت التكبيرات والدعوات الصالحات بالصواريخ التي شاهدوها بالليل، حيث اللهيب الأحمر في أعقابها يكوي كبرياء فضاءٍ عربدت فيه أسلحة أمريكا منذ عقودٍ ستة.

كان الفخر يهزُّ مشاعر المستضعفين هزاً ممتعاً، كانت الأكفُّ تُلوِّحُ للقذائف الغَزِّيَّة الملتهبة، كانت الأصوات تنادي على القادم من غزة، وتدعو له.

كانت لحظات عزةٍ تأتي من غزة، وكانت لحظاتٌ ذاتُ مغزىً ومعنى، تأتي من رب العزة، وكانت عيون الخونة، والعملاء، وأتباع إبليس اللعين من داخل الأرض، ومن خلف الحدود، تنتظر راياتٍ بيضاءَ ترتفع على بيوت غزة وشوارعها، وينظرون في الساعات، ويقولون: متى؟ ... فإن الانتصار ثقيل على النفوس، فكيف إذا كان انتصاراً لا انكساراً، وصموداً لا انهياراً ؟!

كانت عواصم أمريكا وفرنسا وألمانيا قد سارعت في الإعراب عن تضامنها مع العدوان على قطاع غزة في اليوم الثاني للحرب، بعد أن وصل صاروخ من طراز (R160) إلى حيفا، ووصلت صواريخُ أخرى إلى تلِّ أبيب العاصمة

الاقتصادية، والتجمعِ اليهوديِّ الأكبر، فقد دُكّت بصواريخ من طراز (J80)، كان لكلٍّ عاصمة مصالحها المقدَّمة على أي أخلاقٍ يدّعونها، فأمريكا البلد الذي بُني على ما بنيت عليه إسرائيل، الشعب الذي طرد أكثر من مئة وخمسين مليونٍ من أصحاب الأرض الشرعيين، من الهنود الحمر، الأرض التي جُلبت إليها لصوص أوروبا منذ وصل أكبر المستوطنين التاريخيين "كريستوفر كولمبس" إليها، إن مشروع إحلال الشعب الأصليِّ بشعب لصوصٍ هو المستند "غير الأخلاقي" الذي يجمع بين الكيانين، ولاشكّ أن بريق أموال اليهود في البلاد الثلاثة في وقت الانتخابات له اعتباره الكبير، أما ألمانيا فتعيش وَهمَ العدوان النازيِّ على اليهود في الحرب العالمية الثانية، التي جاءت في سياق طرد اليهود من كل بلاد أوروبا، الحقيقة التاريخية التي كُتبت في تاريخ كل بلاد أوروبا قبل ذلك، طرد المجموعات اليهودية المفسدة للمال، والمتقوقعة في "الجيتوات"[1]، والمصاصة لدماء الشعوب من أبواب الربا، ونوافذ المصارف، وطاقات الرشوة المفتوحة أمام الفقراء.

كان ضرب يافا وحيفا صعباً على مدينة غزة، فهي من أخواتها منذ دبت أقدام الإنسان على هذه الأرض المباركة

(1) الجيتو: هو مكان تجمع اليهود في كل بلد من بلاد العالم، وخاصة في أوروبا.

وحولها، لم يكن المقصود ضَرْبَ الأرض، ولكنْ ضَرْبُ مَنْ سرق الأرض من أصحابها، وهم لصوص محترفون، كانت تل الربيع " تل أبيب" قريۃ صغيرة بجوار مدينۃ يافا ذات التاريخ المجيد، والشعب الأصيل، وكما يطغى السرطان الذي يبدأ صغيراً لا يراه أحد، ولا يحس به، ثم يتمدَّد فيصيب الجسد كلّه؛ حتى يقتله، كان حال تل أبيب في يافا، وكانت حيفا وهي تستقبل صواريخ غزة كتلميذةٍ تتلقى عصا أستاذها عندما أخطأت، فقد سكتت على وجود اللصوص فيها، كانت حيفا تتألم، ولكنها تتلذَّذ، فأختها الصغرى تريد أن تُطهرها من سرطانٍ سكنها.

كان وزير الأمن الداخلي، وهو اللصُّ الذي نصَّبوه على فلسطين المحتلۃ؛ ليحفظ أمنها من دفاع أصحابها الشرعيين، واقفاً يتباهى أمام آلات التصوير، فدوَّتْ صفارة الإنذار، فإذا به يهرب .. اُهرُبْ أيها الجبان، يا من وصفهم ربُّهم بأحرص الناس على حياة .. أيِّ حياة، هرب، ثم ألقى بجسده على الأرض، أطرافه ترتعد، وعيونه حائرة، يخشى الموت الزؤام القادم من غزة؛ ليذوقوا الموت الذي أذاقوه لشعبنا عقوداً من الزمن؛ جزاءً وفاقاً، ولَمنِ انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل.

نقلت شاشات العالم صورة وزير الأمن الداخلي وهو مطروحٌ على بطنه، رمزٌ من رموز الدولۃ يرتعد وهو مُمَدَّدٌ على

بطنه، الظاهرة التي لم يسلم منها مسؤول كبيرٌ أو صغير، عسكرياً أو مدنياً، فالخوف يسكنهم، يسكن كلَّ اللصوص، سواء سرقوا قطعة نقدٍ صغيرة، أو سرقوا وطناً بحجم فلسطين كلّها، فسارق الدينار وسارق القنطار مرعوبٌ مادُمت عليه قائماً !

كانت شعوب العالم العربي تتفرج، تشعر بالعزة والامتنان للأخت الصغيرة غزة، وبينهم حُكّام كالأنعام، لم يتحدث منهم أحدٌ سوى زعيم دولة صغيرة في حجمها، كبيرة في نجمها – قطر-، لتقول: إنها خصَّصت خمسة ملايين دولار كمساعدات طبية للجرحى، أما القاهرة فقد أعربت عن سعيها لوقف "العنف"، فهل كانت القاهرة قاهرةً وقتها، أم مقهورة؟ فقد غابت فيها أصوات المآذن، بينما غُيّبت أجراس الكنائس عن عمد، فلا تُحِسُّ منهم من أحدٍ، ولا تسمع لهم ركزاً !

في أجواء هذا الدم المهراق في كلِّ لحظة، خرجت مصر تُحمِّلُ المقاومة، وحركة حماس، المسئوليةَ عن الحرب، وعن موتِ الفلسطينيين، وتعيِّرها بعدم قبول طلبها بوقف القتال، بيانٌ لم يسبق أن كَتَبَ التاريخ المصريُّ مثله حرفاً؛ ليكون الابتلاء أكثر في وسط الدماء التي تسيل، والمساجد التي تُهَدَّم،

والبيوت التي تُزال، وتتبخَّر تراباً ودخاناً، فتكون سراباً، أو تصبح قاعاً صفصفاً.

تحدَّث وزير خارجية مصر عن محور "حماس- قطر- وتركيا"، كانت آلام الشعب الذي يتهدَّد الاجتياح وجوده، تزداد بتزايد هذه الاتهامات، بل كانت أشدَّ ألماً على النفس من صواريخ العدو، وتذهب القاهرة في اليوم نفسهِ بعيداً؛ عندما استقبلت وفد مخابرات دولة اللصوص؛ للتنسيق من أجل التهدئة ؟!

جاء اليوم الرابع للعدوان ولم تنتهِ جولة اللكمات المتبادلة، بين صواريخ الطائرات الأمريكية من الشبح F15، F16، F35، وبين قذائف القسام، وسرايا القدس، على الغلاف المحاذي للقطاع السجين، الحزين المحاصر، والمظلوم المتهدم، والذي يتآمر عليه، ويتعاون مع عدوِّه رئيس الشعب الفلسطيني، مَنْ يدَّعي أنه هو الذي طالب بوقف إطلاق النار فوراً، والكلُّ يعرف أن هذه - إن حدثت- فهي ألفاظ شفوية، لم تنزل إلى القلب، ولم تصعد إلى العقل، إنه من باب "قليل العقل يرضيه الكلام"، فهم يرضونكم بأفواههم، وتأبى قلوبهم !

كان رد المقاومة قاسياً، فقد أرسلت رسالةً ظنَّ العدو وأنصارُه، وحتى أنصار المقاومة، أنها من باب الحرب النفسية، فقد دعت المقاومة شركاتِ الطيران العالمية لوقف رحلاتها إلى مطار اللدّ، الذي يسميه العدو مطار "بن غوريون" !

وعلى الفور أراد رئيس وزراء اللصوص أن يرسل رسالة تخويفٍ؛ فقال:

- الهجوم على غزة لن يتوقف طالما استمرَّ إطلاق الصواريخ.

وكانت هذه أول إشارةٍ عن ضعف العدو، هو يشترط أن توقف المقاومة أولاً، وكان للعارفين بالشأن في فلسطين كلمة، إذ قال رئيس تركيا: إن العدوان الإسرائيلي مبنيٌّ على الأكاذيب" إنها كلماتٌ من أصدق العبارات التي يشهد بها تاريخ اليهود.

وأطلّت في آخر اليوم الرابع للعدوان .. الأمم المتحدة تقول: إن غاراتِ إسرائيلَ قد تنتهك قوانين الحرب على غزة، شكراً .. شكراً، فكلمة من حرفين تعكس النفاقَ الدوليَّ الرخيص البئيس التعيس "قد"، وما أدراك ما "قد" !!

أراد العدو في هذا اليوم الرابع لعدوانه أن يفعل شيئاً يعادل ما أصابه، بعد ضرب حيفا، وتل أبيب، وهربيا، كان عليه أن يختبر قدرته على احتلال غزة؛ فذهب إلى منطقة خزاعة

شرق محافظة خانيونس، وَسطَ قطاع غزة، تقدَّمت وحدة مختارة من الدبابات والجرافات الضخمة، جاءت لتدمير البيوت، وهدم الأنفاق، فوقعت في كمين؛ فاستغاثت بوحدة "دفدفان"؛ لتنقذ مَن كانوا بداخل جرَّافة انفجرت عندما مَرَّت فوق عبوةٍ شديدة الانفجار، والمقاومون يحاصرون الجرافة.

أسرع قائد السرية الصهيونية، وتسلَّق الجرافة؛ لكي يمنع وقوع الرقيب أول "موشي دانينو"، في الأَسر، وهو مستوطن من سكان القدس، كانت دماؤه تنزف من كلِّ مكان في جسده المرتعد، فجأةً انفجرت قنبلةٌ يدوية قُذفت تلقاءه، فهرب قائد السرية؛ وفَرَّ هو وأعوانه !

جاءت وحدةٌ أخرى تحت قصف الطيران المعادي للمنطقة بكثافة، وانتشلت "دانينو" من الجرَّافة، وهربت به، وفارق الحياة في المستشفى بعد ذلك؛ ليكون حَصَباً أو حَطباً لجهنم.

في هذه الأثناء طلب قائد وحدة "دفدفان" المقدَّم "ك"، والذي كان قائداً سابقاً في لواء جولاني، من قائد المنطقة الوسطى "نيتسان آلون" أن تنضمَّ له وحدة من الجواسيس لإتمام العملية، فخزاعة مستعصية حتى الآن.

وافق "نيتسان" بعد خوفٍ وتردُّدٍ؛ على أن تعمل وحدة الجواسيس "المستعربين" تحت قيادة لواء جفعاتي بقيادة "عوفر

فينتر" قائد الوحدة السابق، وهي الوحدة التي تاهت في البحث عن الجنود الثلاثة المختطفين في الخليل، كانت هذه الوحدة سيئة السمعة قد تأسَّست في نهاية الثمانين على يد العقيد المتقاعد "أوري بارليف"، وكانت مهمتها محاربة المقاومة في الضفة الغربية، وقد تَمَّ إعدادها للعمل في جنوب لبنان أيضاً، وقد طوَّرت من عملها لتهاجم المناطق السكنية، فالجيش النظامي فشل في مواجهة كتائب القسام وسرايا القدس في خزاعة.

في نهاية هذه المعركة كانوا قد هربوا من مواجهة كتائب القسام، فوقعوا في كمينٍ لسرايا القدس، واجهوهم من مسافة ثلاثة أمتار بالرصاص والقنابل، فقُتل منهم عددٌ كبير، وأُصيب عددٌ آخر، منهم قائد الوحدة، الذي أخذوا يَجُرُّونه والدم ينزف من ركبته، وفَرُّوا به كما فَرَّ غيرهم في مواقعَ أخرى، وبقيت خزاعة على موعدٍ آخرَ مع العدو.

استقبلت مستشفيات قطاع غزة حتى اليوم الخامس من الحرب أكثر من مائة شهيد، وسبعمائة مصاب بجروح بالغة، كانت الصور والأرقام تلهب مشاعر قيادة المقاومة، وكانت الدموع تجفُّ في المقل، وتُغلَقُ الجفون على صور الأطفال والنساء تحت الركام، وكانت صيحات الأمهات والزوجات

والبنات وهُنَّ يُوَدِّعنَ أحبابهن، ويرفعن أصواتهن بالدعاء للمقاومة بالنصر، وللشهداء بالجنة، كانت هذه الصيحات دماءً تجري في عروق الرجال الذين يتصدونَ لأكبر قوة عسكرية في المنطقة دون خوفٍ أو تردد.

كان قصف حيفا في اليوم الثالث ملهماً لكلِّ مظلوم في العالم، وكان لابُدَّ من تعزيز هذا الإلهام بشيءٍ مميَّز، يهزُّ القشرة الأرضية من تحت أقدام المجرمين، الذين ينتظرون لحظةً ترتفع فيها راياتٌ بيضاءُ في شوارع القطاع، كان من حول غزة دولٌ، ومنظماتٌ، وسلطات، أحرجتهم ضربات المقاومة، ونزعت عنهم ما سَتَرَ عورتهم، وكان لابُدَّ من صفعة على الوجوه التي لا تخجل، والعيون التي لا تدمع، والعقول التي لا تفهم، وجاءت المفاجأة .. أعلنت كتائب القسام عن نيتها ضرب مطار اللد "بن غوريون" في الساعة التاسعة من مساء اليوم الخامس للعدوان، كان لسان حال الإعلان يقول:

- أيُّها العدو المتغطرس: هذه عاصمتك التجارية، والمدينة التي تكدَّس فيها أكبر عددٍ من اللصوص من كلِّ أنحاء العالم، والتي يقع فيها المطار الذي تستجلبون من خلاله كلَّ الباحثين عن وطن بالإيجارِ، حيث تدفع الحكومة الصهيونية للمهاجرين الجدد عشرات الألوف من الدولارات، بالإضافة إلى بيتٍ ومزرعةٍ ومهنة، وإعفاءات من الضرائب والجمارك،

وتسهيلات استثمارية ومالية أخرى، وهي الصورة المقلوبة؛ إذْ إن المستأجر يدفع الإيجار، أما هنا فالمستأجر تدفع له الحكومة؛ ليمكث في الأرض مكان أهلها الأصليين ؟!

خذوا حذركم أيها المجرمون الأقوياء، انقلوا القبة الحديدية حول المطار، وقَوُّوا جدران المخابئ، واختبئوا جيداً، وحَصِّنوا المزيد من التجمعات المجرمة، ومع كلٍّ ذلك سنصل إليكم .. نحن نتحدّاكم !

مرَّت اللحظات ثقيلةً على كثيرٍ من قادة العالم وسكانه، بين مَنْ يتمنَّى أن تفشل هذه الصورايخ الجريئة، ويُعاقبَ أصحابُها بالقتل والذبح، وبين من خَرَّ ساجداً لله، باكياً يسأله التوفيق، اللهم ازمِ عنهم، يا من قلت وقولك الحق: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .. ازمِ عنهم، إنهم أولياؤك، أحبابك، أنت تعلم أنهم إذا انكسروا فسيهلك عبادٌ لك تعرفهم أكثر مما نعرف، يا رب .. يا رب.

ومع كلِّ لحظةٍ تمرُّ، كانت قلوب اللصوص تكاد تهشم جدران الصدور، وهي تُضرَبُ بسياط الخوف الذي يجمِّد الأطراف، ويعقد الألسنة، جاءت الساعة التاسعة .. مباركة علينا .. بركة الثقة بالله، وبنصره، وتأييده، وثقيلةً على

اللصوص وهم يقفون في تحدٍّ لوجودهم، فقد ابتلعوا – على مضضٍ- استهداف حيفا قبل ثلاثة أيام، هرب بعدها الكثير إلى خارج البلاد عبر مطار "بن غوريون"، واليوم إذا ضربوا المطار ستكون الفضيحة العالمية، والهزيمة الإعلامية الأكبر والأخطر.

كانت مدينة يافا تترقّب بين الترجي أن تنزل الصواريخ على تلِّ أبيب المجاورة لهم، وبين الخوف أن تضلَّ؛ فتسقطَ عليهم، المهم أن تسقط وفقط.

ومع الثواني الأولى للساعة التاسعة من مساء اليوم الخامس للعدوان، وصلت الصواريخ القادمة من غزة لتضرب بقوةٍ، بانتقامٍ، بعنفٍ بعد مشقة الرحلة المتعة، وهي تمرُّ فوق بلاد الآباء والأجداد الذين أنجبونا، وعلى العدوِّ المحتل أرسلونا.

هربت الجموع التي عاشت من قبلُ الحروبَ الآمنة، حروبَ استعراض القوة، وهروبَ الأعداء، وانتصاراتٍ زائفةً، وفور إعلان المقاومة عن نيَّتِها ضَرْبَ تلِّ أبيب امتنعت الطائرات القادمة من قارات الدنيا من القدوم، وألْغَوْا الرحلات رسمياً، وأضاءت اللوحات المنتشرة في دول الغرب باللون الأحمر "cancel" إلغاء الرحلات إلى "إسرائيل".

كانت هذه الصورة أكثر رعباً، وأعظم تأثيراً من كلِّ الكلمات، فلأول مرةٍ يُغلَقُ مطارٌ في فلسطين المحتلة منذ سقوطها في يد اليهود، ستةٌ وستون عاماً والمطارات مفتوحة، تطحن هواء فلسطين، وتلوثه بنفّاثاتها، وأنفاسِ مَنْ يمتطيها، حتى باتت هذه البلاد واحةً آمنةً في كلِّ العقود، اليوم جاءت اللحظة: قِفْ وفَكّرْ في المستقبل أيُّها المحتل!

أغلقتم المطار بعد معرفتكم أن الصواريخ ستصل إليه، فخذوا حِذرَكم، وأخذتم حذركم، ولكنْ فشلتم، هذه عاصمتكم تُضرَب، ورِئَتُكُم مع العالم تتوقف، وهذه طلبات الهروب تتراكم، ولا أحدَ ينفعكم من الصليبيين الجدد، فعدوى الخوف لا تعرف الحدود، ولا توقفها السدود!

استمرَّ الإغلاق يومين، تمرَّغت فيهما سمعة الدولة التي تمعرت اليوم فوق تراب فلسطين، وبخاصةٍ حول قطاع غزة، فصور الإعلام تنقل الطائرات المروحية التي تغدو إلى محيط غزة خِماصاً وتعود بِطاناً، إلى مستشفيات السبع، تُخفي وجوه الجنود عن آلات التصوير؛ خوفاً من اصطيادهم يوماً ما في ساحة المواجهة، أو في الحواري والطرقات، أو أمام محكمة الجنايات الدولية.

كانت نسمةٌ من النشوة والزهو الوطني تسري في أوصال مدن الشعب المظلوم وقُراه في كلِّ مكان، في غزة، وفي

المخيَّمات، وفي نفوس الأحرار في العالم، فقد تَمَّ كسر قرن الثور المتمرد على الأخلاق والقيم، حتى ولو كان الكسر شرخاً فقط، فإنه هامٌّ؛ لأنه دلَّ على كيفية كسر القرن، ونبَّهَ على الجهة القادرة على اقتلاعه.

كان أحمد أحدَ الشباب المرابطين على حدود حيِّ الزيتون، وكان يتوقع هو وإخوانُه دخول العدو من هذه المنطقة، فقد فعلوها في عدوانهم عام 2008م، وسبق ذلك اعتداءاتٌ متكرِّرة، كان يتمُّ فيها قتلُ المرابطين، ومضى اليوم الخامس للعدوان، ولم يتحرك الجنود خطوة واحدة نحو غزة.

كان الوقت ليلاً، والطائرات من فوقه تأتي وتروح، بعد أن تُفرِّغَ ما أهدته أمريكا والغرب للعدوِّ من أدوات القتل؛ ليقضي بها على الشعب في غزة.

فجأةً سقطت قذيفة عليه، فأخذت ساقه اليمنى، وقع على الأرض وطَفِقَ الدم يسقي شجرة الزيتون التي كان يجلس تحتها، وجد أمامه فرع شجرة من فروعها الأربعة قد انكسر وتمدَّد على الأرض بأغصانه الخضراء، وحبات الزيتون غير الناضجة، كانت الأرض ملكاً لعائلة أحمد، وكان عمر هذه الزيتونة مثل عمره، كانت مَظَلَّتَهُ في كلِّ صيف، يجلس تحتها، يشعر أنها تَوْأمُه، وقد زرع البذرتين أبوه، انقطعت ساق

واحدةً، وبقي له ذراعان وساق، وانقطع فرع من الشجرة، وبقيت ثلاثة فروع .. كانت هذه حادثة من ألفِ ألفٍ تقع في فلسطين، وفي كل مكان تتواجد فيه الشعوب المقهورة!

ظنَّ العدوُّ أن المقاومة منشغلة في الجبهة الشرقية؛ حيثُ تتصاعد وتيرة الإعلان عن الاستعدادات للهجوم البريِّ على غزة، وأرادت القوات البحرية أن تحقق نصراً معنوياً يعادل ما حَقّقته المقاومة بعد يومٍ من قصف مطار اللد الساعة التاسعة في اليوم الخامس للعدوان على غزة، كما كان ضرب حيفا ويافا صاعقةً وقعت على رأس قادة الجيش وحكومته، كما كانت صفعةُ خزاعةَ مؤلمةً رغم صغرها.

أوعزوا إلى السلاح البحري أن يشاغل المقاومة بالنزول من الغرب على شاطئ غزة، والالتفاف حول المقاومين.

كانت كتيبة الشاطئ ترصد تحركاتِ العدوِّ في البحر، فقامت بنصب كمينٍ مربَّعِ الأضلاع، للتصدي للوحدة البحرية المعادية المسماة "شييتت 13"، اقتربت هذه الوحدة الكبيرة المعادية فجر هذا اليوم، وقامت بإنزالٍ فرديّ؛ لاستطلاع ردة الفعل، وفجأة فَتَحَت عليها ثلاثُ وحداتٍ من الكمين الرباعي المقاوم النارَ، من قذائفَ مضادَّةٍ للدروع، ورشاشاتٍ ثقيلة، وبنادقَ قنصٍ طويلة، غرق بعض الجنود بعد إصابة

الزوارق، لكنْ نجح العدو في انتشالهم، وأسرعوا بالهروب، فكانوا فريسة الكمين الرابع، هنا تدخل الطيران الحربي، والبوارج البحرية الكبيرة؛ فأمطرت المنطقة بالقذائف في البحر والبرِّ وحول المنطقة؛ لقطع إمدادات المقاومين؛ ولتأمين الهروب.

كان ردُّ المقاومة على المغامرة البحرية الفاشلة موجةً جديدةً من موجات إذلال العدو، فقبل أن تغيب شمس هذا اليوم صفعتِ المقاومةُ الدولةَ النوويةَ في المنطقة العربية، صفعةً على خَدِّها النووي، هذه "ديمونة" الاسم الغريب؛ فقد أرادت بما أنتجته من قنابل نووية أن تردع الدول المحيطة، ونجحت، ولكنْ يبدو أنها لم تردع هؤلاء في قطاع غزة؛ لأن غزة قصفت في هذا اليوم ديمونة بعددٍ من الصواريخ، التي طارت فوق قرى النقب التابعة لمحافظة غزة على طول الزمن، وقد انفصلت بالاحتلال عنها قسراً، اليوم تمرُّ الصواريخ فوق قرى القبائل العربية الأصيلة، تضرب بلا هوادة، تُمرّغ أنف العدو وتدميه.

جاءت الساعة الثالثة فجراً، فهرب العدو من الشاطئ، وانسحبت المقاومة إلى قواعدها القريبة الآمنة بسلام، وكانت البشرى هي اعتراف العدو بإصابة أربعة من جنوده "كوماندوز البحرية الإسرائيلية"؛ ليضيف عاراً جديداً للجيش الذي زعموا أنه لا يُقهر، وكان هذا نصيباً جديداً لبحر غزة من الكرامة.

لم يُفِقْ لصوص الأرض من صدمة ضرب ديمونة، وفَشَلِ الضفادع البحرية في غرب غزة، والتي شهدت قصفاً في كلٍّ فلسطين المحتلة تقريباً، عدا الحدود مع لبنان وسورية، حتى ظهر في سماء فلسطين شيءٌ جديد، صاعقٌ جديد، مفاجأةٌ من العيار الثقيل غيرُ متوقعة، ففي اليوم السابع للعدوان خرجت من غزة المحاصرة ثلاثُ مجموعاتٍ لطائراتٍ بدون طيَّار، سَمَّتها غزة "طائرات الأبابيل"، وهي التي استعير اسمها من القرآن الكريم، يوم أراد مَلِكُ الحبشة، صاحبُ الفيلة "دبابات ذلك الزمان" أن يهدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيراً وصفها بالأبابيل، ترميهم بحجارة من نارٍ، أو طين مُتحَجِّر؛ فجعلتهم كطعام البهائم المهضوم، والخارج من أدبارها !

ثلاثة أصناف من الطائرات، الأُولى محملة بالمتفجرات، ذهبت تعرف طريقها إلى معسكرات الجيش، وتجمعاته شرق غزة؛ فسقطت في وسطها، والثانية ذهبت تصور التجمعاتِ، وترسل صورها؛ حتى يتم توجيه قذائف الهاون والصواريخ إليها؛ لينقل بعضهم إلى المشافي، والآخر يغرق في بلل ملابسه، فقد صار سَلِسَ البول من الهول، والباقي بين البكاء، والحسرة، والشتيمة، مع الاستغاثة بالأمهات، استغاثةً لا مُجِيبَ لها.

أما الثالثة فكانت تجوب السماء متبخترة تقول: نحن هنا فوقكم، اليوم هذا حجم قنابلي، وغداً سأكبر، ويشتدُّ عود قذائفي.

كادت حناجر الشعب في غزة والضفة والقدس تصدح هتافاً وتكبيراً وتهليلاً، وهي تقف على قمم الجبال الشامخة، وترصد الصواريخَ والطائراتِ القادمةَ من غزة، وكادت الأجساد البشرية تُنبتُ أجنحة لتطير وهي تحدِّق بهذه الطائرات، تلقي النظرات على التي حُرمت منها منذ أكثر من ستٍّ وستين سنة، لم يعُدِ الخوف، ولا الحزن، ولا الشعور بالعجز، حكراً على طرفٍ في الصراع، لقد استبدلوها اليوم بنقيضها تماماً، وصدَّروا هذه المشاعر إلى أعدائهم، وأعوان أعدائهم، وحلفاء أعدائهم، لحظاتٌ لا تقدَّر بثمن؛ مهما كانت التضحيات.

كانت أشجار مدن الضفة وقراها، ومآذنها، تُطِلُّ من فوق ظُلَلِ السحاب القادم من الغرب من غزة، ترقب الذين يسومونهم سُوء العذاب، وهم يهربون إلى الملاجئ، يشاهدون كيف تنقلب سيارات القادة المتبجحين بالحديث زوراً عن الجيش الذي لا يقهر، كيف يهربون متراجعين مبتعدين عن غزة الجحيم التي دمَّروا فيها البيوت، فذهبت ألسنة اللهب،

وأعمدة الدخان، والهواء الملتهب؛ لتدخل صدورهم، وتكوي، وتشوي، وتدمِّر كلَّ شيء عاشوه منذ احتلالهم للأرض.

كادت أجساد أصحاب الأرض المحتلة منذ ستة وستين عاماً تطير بلا أجنحة، لقد تحوَّلت حُمَمَاً تحمل هذه الصواريخ، وهذه الطائرات إلى بيوت الذين سجنونا، وقتلوا أحبابنا، وسرقوا أرضنا.

كانت أجساد أخرى تقول: يا ليتنا الهواء الذي يحمل هذه الصواريخ؛ لنرسلها إلى كلِّ مكانٍ قريب أو بعيد، إلى بيت المجرمين الكبار، ليتنا الهواء الذي يحمل سخونة هذا اللهب المتصاعد من مؤخرة الصواريخ؛ لندخلَ أنوف اللصوص وخراطيمهم المعكوفة؛ فَنكْوِيَها ونحرقَها.

ليتنا الدخان الذي يدخل إلى صدور هؤلاء؛ فيخنقَهم، ولكن لماذا نتمنى ونحن نستطيع أن نفعل مثلما فعلت غزة.

كان ظهور طائرات الأبابيل في اليوم السابع للحرب، وقد وصل عدد الشهداء إلى ستة وستين ومائة شهيدٍ، وعدد المصابين إلى اثنين وتسعين وألف جريحٍ، حدثاً هاماً مهما كانت درجة بداياتها؛ فإنها مَثَّلت قفزةً في إرادة التسلح، فلم تَعُدِ "الزنانة" حكراً على الاحتلال؛ بل نافستها "زنانة" مزعجة جداً، ليس لآذان العدو فقط، ولكن لوجوده، إنها تضرب بخطوة أولية واحدةً عموداً من أركان نظرية الأمن القومي

الإسرائيلي، وهو التفوق، كانت هذه الطائرات الصهيونية مؤلمةً لجيوشٍ عربيةٍ في المنطقة، وهي دُولٌ ذاتُ أعدادٍ كبيرة، ومساحاتٍ واسعة، وإمكانيات دول عظمى، لكنها لم تفكّر، أو ترغب في أن تمتلك مثل هذه الأسلحة، فكانت أراضيها نهباً للاحتلال، وقد دفع الجندي العربي ثمن تخلف قيادته، وعدم رغبتها في الدفاع عن حِياضها.

لقد ألهبت صورة الأنفاق التي أخفت المجاهدين عن طائرات الأعداء، لصوصِ السماء، فذهبوا يقتلون الأطفال والنساء، ويهدمون المساجد والمنازل والمشافي، وألهبت أدبارَ العدو صُوَرُ الصواريخ المنهمرة فوق رؤوسهم، وأرعبت اللصوص الآمنين في بيوتٍ سرقوها من عقودٍ ستة، ومشاهد دباباتهم ومجنزراتهم المشتعلة، وأشعلت الهمة في جوازات سفرٍ جاء أصحابها ليستثمروا أوقاتهم في سرقة الآخرين، لقد ألهبت صُوَرُ المجاهدين الأربعة في معسكر الجيش الكبير كرامة الدولة، فقد التقطتها أدوات التصوير عندهم، بينما اخترقتها المقاومة في اليوم الأول للعدوان، وفي اليوم السابع تأتي طائرات الأبابيل؟!

الفرارَ .. الفرارَ، اهربوا تَسلَمُوا، أخذت تطِنُّ في آذانهم دون أن يقولها قائل، فبدأت صيحات المستوطنين تطالب القيادات الهاربة أنِ ارحمونا، أوِ انقلونا إلى الداخل، إلى تلّ أبيب، إلى

الفنادق، وعوِّضونا عمَّا خسرنا، ولا زلنا نخسر، ونحن بالقرب من الجحيم المسمى غزة.

طائرة استشهادية – سَمُّوها انتحارية- لا بأس لكنها تسقط فجأةً، وتنفجر، وينفجر معها الأمن، وإذا غاب الأمن ضاع الدولار، وإذا ضاع الدولار فلا مُقامَ لكم في فلسطين، فالمسألة هي الخوف، والحرص الشديد على الحياة.

طائرة تنفجر، وطائرة أخرى تصوِّر، وتوجه القاذفات الصغيرة؛ لتنزل وسط التجمعات الخائفة المرتعدة، فيزداد السعال والإسهال والقيء، وطائرة ثالثة تقذف قنابلها الصغيرة، سَمُّوها بدائية، سَمُّوها ما تشاؤون، ولكنها مرعبة، واليوم غير الغد، فصواريخ الأمس لم تكن شيئاً مذكورا، واليوم أضحت شيئاً محذوراً!

كانت الساعات الماضية كافيةً وكفيلةً لتؤكد إصرار المقاومة على إدماء عين الاحتلال، وإرعاف أنفه، وإنزاف فمه، وكلِّ جوارحه، أن يطير فوق دولة اللصوص طائرات أبابيل، أمرٌ لا يمكن قبوله، إنه يمزِّق كرامة الدولة العظمى في المنطقة، فأجواء العالم العربي مستباحة للطيران الإسرائيلي، يضرب في العراق، وفي سورية، وفي مصر، وفي الأردن، وفي

لبنان، وفي السودان، ويهدد إيران، اليوم تتمزَّق الأجواء التي لم يكن يقترب منها أحد !

تحرَّكت كلُّ القوى الدولية؛ لتطويق هذه المعركة، فمنهم من استجاب لاستغاثة الكيان الصهيوني، ومنهم مَن حرَّكت فؤاده صرخاتُ اليتامى والثكالى، ومنهم من يريد أن يهرب من المظاهرات العارمة في كلِّ العواصم، تُدين، وتَشجب، وتستنكر، بل وتتوعد بعقاب حكامها في الانتخابات القادمة !

جاءت مبادرةٌ رماديَّةٌ من مصرَ لوقف إطلاق النار في اليوم السابع للعدوان الصهيوني، صدّرها الإعلام، وعلى الفور قبلها اللصوص، بينما رفضتها المقاومة، وكما توقع الجميع قبلتها سلطة التعاون الأمني في الضفة الغربية، التي أسعدتها تلك النتيجة؛ حتى تُسهِمَ في زيادة الفرقة بين مصر وحركة المقاومة الإسلامية حماس.

***

كان الجميع يعتقدون - بعد يوم من مبادرة مصر- أن المقاومة ستقبلُ على الفور وقف إطلاق النار دون شروط، وقد عبَّرت قطر عن بعض مطالب المقاومة، إنها كسر الحصار الذي فرضه العدو، وفرضه الجار القريب، فاقترحت إنشاء ميناءٍ تجاريٍّ بإشرافٍ دوليٍّ، وتحرّكت أدوات الطبخ المعروفة، ووصل رئيس السلطة إلى مصر، وأرسل وزير الصحة في

حكومة الشلّل إلى غزة، ودخل معبر رفح مُغَاضِباً، كأنه داخل إلى حظيرة، يتأفّف من المرافقين، ولا يريد حماية الشرطة، فتصدّى له آباء الأطفال الشهداء، وأقرباء الجرحى، بالأحذية والبَيْضِ الفاسد، أهذا وزير صحة؟! الفرق بينه وبين من سبقه، كالفرق بين الثرى والثريا !

فقفل راجعاً مَخزِياً .. إنها رسالة إلى كلِّ من يُقصّر في حقِّ شعبٍ أصيل.

كانت وحدة المغاوير، نخبة كتيبة حطين في سرايا القدس، تكمن في شرق الشجاعية، رصدت في العاشرة مساءً تحرك وحدة خاصة للعدو، كان حسين محيسن وسط أحد عشر مجاهداً، وكانت القوة المعادية الخاصة تبعد مسافة تتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة متراً للشرق، وكان عددهم ما بين عشرة واثني عشر جندياً يهودياً.

كانت المقاومة قد زرعت محيط المنطقة الصناعية بعبواتٍ ناسفةٍ كبيرة، تقدّمت القوة المرتعشة، المتوجهة نحو الموت، وابتعدت عن القوات المتجمعة خلف السواتر الترابية في مناطق "قلج" و"سرور".

تمَّ قصف المنطقة العازلة التي نشأت بين تجمع القوات المعادية، وبين الوحدة الخاصة بقذائف الهاون عيار (60)؛ لقطع الإمداد عنها من الخلف.

وصلت الوحدة إلى العبوات الأرضية، سأل مجاهد قائده الذي كان يرقب بمنظار مكبِّر:

- أبو عبيدة .. هل نبدأ؟

- انتظر عندما أنزل ذراعي قوموا بالتفجير.

وانفجرت العبوات، وطارت أجساد في الهواء، كقطع لحم مُفَتَّتٍ، وبعضهم وقع صريعاً، فأخذت الدبابات تطلق حممها مذعورة بصورة عشوائية على البيوت، وعلى كلِّ شيءٍ تناله رِماحُهم!

ظهرت فجأة وحدة أخرى كانت كامنةً في حفرةٍ، أفزعها المشهد فخرجوا هاربين، توجه إليها المجاهد حسين يصطادها بالرشاش الثقيل، وانهالت القذائف على وحدة النخبة، وبدؤوا ينسحبون خلف البيوت، وقد أصيب القائد حسين بصاروخ زنانة، وأخذ يزحف حتى وصل لبيت لآل شلّح، وجاءه صاروخ آخر، ولكنه بقي حياً جريحاً، حملته سيارة الإسعاف ليرقد في مستشفى الشفاء ليومين، ثم قضى نَحبَه شهيداً.

كانت جرائم اليوم التاسع للحرب أكبر من أن يتحملها الغرب الداعم والمؤيد والممول لمعركة الموت الجماعي، فاصطرخت الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار لخمس ساعات؛ لإدخال بعض المساعدات الإنسانية، فقد وصلت حصيلة الشهداء إلى خمسة وتسعين ومائة شهيدٍ، وبلغ عدد الجرحى أربعمائةٍ وألف جريحٍ.

لملمت غزة بعض جراحها، وتزوَّدت من أبنائها، وشيوخها، ونسائها، وأطفالها، صلابة الصمود والثبات، ومن مساجدها عَبَقَ الإيمان، صحيح إن المساجد فارغة من مُصَلِّي التراويح، وقيام الليل، لكنَّ المآذن لم تَكُفَّ عن التكبير والدعاء.

كانت جلسات مجلس الوزراء المصغر للكيان الصهيوني مستمرةً على مدار اليوم والليلة، في الأيام التسعة الماضية منذ أعلنوا الحرب على غزة، فالنزهة التي تحدَّث عنها وزير الحرب، التي كانت في مُخَيِّلتهم، قد تحوَّلت إلى كابوسٍ بعد أسبوعٍ واحدٍ، شهد فيه الكون عليهم بعارٍ كبير، أصاب أسطولهم في البحر، وجيشهم في "هربيا" في البر.

وتصدَّع جدار حيفا الزجاجي، وألقتِ السماء على يافا قذائفَ تُدمي، وتمزَّقت القبة الزجاجية الهشة من فوقهم بطائراتٍ صغيرة الحجم، عظيمة الأثر، تتوعَّدُ المستقبل، وبدت

الأنفاق تمتدُّ ليس إلى الأرض التي يحتلونها؛ بل إلى أجسادهم، كان هذا أسبوعَ الصدمة الكبرى، الذي توقّفت فيه أنفاسهم، وكاد القلب منهم ينفطر، وغاب الوعي عنهم للحظاتٍ تَقْصُرُ أو تطول، بحجم ما يتحمل ذاك الجسم الغريب.

كان حلم دخول قطاع غزة يراود الجميع، الكلُّ يُمنِّي نفسه بالْتقاط صُورٍ في مواقعِ غزة؛ ليستخدمها في الانتخابات القادمة.

كان أكثر الذين ترنَّحوا هو وزيرَ حربهم، فقد ظنوا أنه الذي سيُركِّع الجميع، فأصوله بريطانية، وخبرته كبيرة، كان قد سمع مدحاً كثيراً، وصدَّقه المساكين!

كانت تلك جلسةً صَمَتَ فيها هذا الوزير، وبين يديه مجموعةٌ من التقارير عن الأسبوع الماضي، عدد القتلى، وعدد الجرحى، وعدد الآليات المدمَّرة، وتفاصيل عملية زكيم، وضرب حيفا ويافا، وفشل نزوله البحري، وتحليق طائرات حماس فوق الرؤوس!

كان رؤساء الأحزاب، وزراء العصابة الكبيرة يُلِحّون على دخول غزة، وقد تطاول بعضهم على بعض، وصرَّحوا علناً بخوف الوزير، كانوا يُصِرُّون على "دخول غزة" المحورِ المحيِّر، واللُّغز الكبير، والعقدة المتينة، دخول غزة حلم المستقبل، لماذا لا تدخل غزة ؟!

كان رئيسهم يعرف تفاصيل الرواية المحزنة، وهم لم يرحموه؛ فعصروه، وضغطوه، واتّهموه، فقال منفجراً في وجوههم، موجهاً كلامه إلى وزير الحرب "يعلون"، الذي قال غاضباً:

- أَدخِلوا رئيسَ الأركان، وقائدَ المنطقة الجنوبية، وقائدَ الطيران.

ودخل هؤلاء ومعهم الأوراق، والأرقام، والصور، والخرائط والخطط، وفرشوها على الطاولة العريضة وتحدَّثوا، وهم يرصدون في تقرير كلٍّ منهم درجة النجاح، وثمن دخول غزة، حتى صاح رئيسهم:

- قل لهم ماذا سندفع إذا دخلنا غزة؟

فَرَدَ وزير الحرب أوراقه أمام الجميع، وحذَّرهم، وأراد أن يتنصَّل من ذكر الحقيقة .. راوغ، فصرخوا في وجهه:

- قل لنا بالأرقام؟

وبعد فترة صمتٍ، ومسحٍ للأنف، واللعاب، ومع تلعثمٍ، قال الوزير:

- نحتاج من ثلاثٍ إلى خمس سنوات حتى نسيطر على غزة تماماً، وفي هذه الأثناء سننقل توابيت الجنود يومياً، سوف يُدمَّر أكثرُ من نصف آلياتنا، ودباباتنا، سيتوقف طيراننا عن القصف، سيخرجون لنا من كلِّ نفق، ومن خلف كلِّ باب،

ومن كلّ نافذة، ثم تأتي لحظة تدرسون فيها الثمن الذي ستدفعونه؛ حتى نخرج من جحيم غزة !

صمت الجميع بعد صمت صاحبِ هذا التقرير، أَهَمُّ رجلٍ في الجيش، وهنا التقطَ رئيس الحكومة الذي باتت عيناه لا تستقران أمام شاشات الإعلام، تزيغ يمنة ويسرةً، كالذي يُغشى عليه من الموت، صاح فيهم:

- أريد الآن التصويت على قرار دخول غزة.

وتطوَّع أحدهم؛ ليخرج نفسه من الحرج، فقد بدأت ضربات قلبه تزداد، وأنفاسُه تتسارع، ووقع في الفخِّ، كان هذا وزيرَ الخارجية القادم من روسيا، والذي كان يعمل حارساً في أحد الملاهي الليلية، وكان يرتزق من حراسة بنات الهوى، أو المراحيض المتحركة !

لقد وجد استثماراً أفضلَ في فلسطين المحتلة، فجمع حوله كلَّ اللصوص، والمجرمين، والخارجين عن القانون في روسيا، وشجَّعهم مع - منظمات صهيونية- على الرحيل إلى فلسطين، فجاؤوا إليها، ففيها الأرض المجانية، والمساعدات المالية، في مجتمعاتٍ مغلقةٍ عليهم، يتحدثون بلغتهم، ويشاهدون شاشاتِ قنواتهم بلغتهم، ويدخلون الجيش الذي فيه الطعام الكثير، والرزق الوفير، والأمن الكبير، والقدر، والقيمة، بعدما كان متسوِّلاً أو قوَّاداً؛ فقد أضحى يلبس الزيَّ العسكريَّ،

ويضع على كتفه بندقيةً أمريكيةً من طراز M16، ويرسل صورته إلى رفقاء الشوارع والخمّارات في روسيا !

كان هذا الوزير من طراز الثور الهائج؛ إذا تكلّم أساء، وإذا سار أضحك، وإذا صمت أحسن، قال ليخرج من مَعَرَّة التصويت الذي سيسجل في محضر الجلسة، والذي سيكشفه خصومه في الحكومة، ويحملونه، ومن وافق معه مسؤولية ما سيحدث للدولة، قال:

- أقصد أن ندخل غلاف غزة، ندخل بيت حانون، والشجاعية، ونقيّم بعدها الخطوة التالية.

كانت هذه الكلمات كتبها له أحد الوزراء القادمين من أوروبا، والذي كان يستخدمه دِرْعَ صَدٍّ، وحائطَ منعٍ، وبهيماً يركبه وقتما شاء، فكان هذه المرةَ ككلِّ مرةٍ الحمارَ المنشود !

وافق الجميع بعد أرسموا ابتسامات سخرية، وقرَّروا دخول أطراف غزة، وسَمَّوْها الحرب البرية على غزة.

جاء اليوم التاسع للحرب على موعد مع الجزء الشمالي الشرقي لمدينة خانيونس تقع مدينة "القرارة" التي تعتبر من المناطق التاريخية ذات الدلالات والمعاني الكبيرة، فهذه المنطقة تسكنها عائلات كريمة، عريقة، وأصيلة في عروبتها وإسلامها، يحدُّها من الشرق الأرض المحتلة عام 1948م، ومن

الغرب شاطئ البحر الأبيض، ومن الشمال منطقة دير البلح، ومن الجنوب محافظة خانيونس.

عَرَفَ أهلُ القرارة معنى اسم قريتهم في اللغة، فإمَّا أنها الثابت على الأرض، أو هي الدوحة المنخفضة، التي تتجمع فيها مياه الأمطار، يقع في القرارة الموقع المعروف باسم "التبة 86"، المكان المرتفع عن سطح البحر بحوالي ستة وثمانين متراً.

تُمثل قبيلة "العبادلة" أو "عبد الإله" قريباً من ربع سكان المنطقة، وتمتلك حوالي ربع مساحة الأرض، وتمتدُّ جذور هذه العائلة إلى قريش العربية، من آل بيت الرسول – عليه الصلاة والسلام-؛ حيث تنتمي على الأرجح إلى "عبد الله بن الزبير بن العوام" الصحابي الجليل، والده "الزبير بن العوام" أحدُ الصحابة العشرة المبشَّرين بالجنة، وهو أول من أدخل الخيول في الحرب، وأُمُّه صفية بنت عبد المطلب، عمَّةُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم.

هاجرت جماعات من هذه القبيلة إلى الشام، والعراق، وشرق الأردن، والسودان، ومسقط، والجزائر، وليبيا، ومصر، وسكنت تلك القوافل بلدة القرارة، وأطلقت عليها هذا الاسم؛ تيمناً بأرقى حيٍّ من أحياء مكة المكرمة، وكان ذلك منذ

ثلاثمائة عام، وكان منهم بعض أمراء القلعة الشهيرة في قلب خانيونس "قلعة برقوق".

يجاور العبادلة أصحاب البشرة البيضاء، والعيون الزرقاء غالباً، مع الخُلُق الحسن، والعشرة الطيبة، إخوةٌ لهم من عائلة الأغا "فرع القواسمة" أصحاب السيرة الطيبة، والكفاءات العلمية والدينية، وكذلك عائلات الأسطل، والفرا، والسقا، وأبو لحية، وأبو فياض، والكثير من العوائل الأخرى، العربية الأصيلة المترامية الأطراف منذ زمن طويل في كلِّ المنطقة، من عرب الحناجرة، ومنهم السميري، وأبو حليب، وأبو منديل، وأبو خشان، وأبو ضاهر، وأيضاً عرب البياضية، ومنهم أبو هداف، وغيرهم من عرب الترابين، وفي الغرب من خانيونس مخيم حي الأمل الذي جمع عائلاتٍ كثيرةً، ممن تركوا أرضهم في عام 1948م، وأصبحوا هنا لاجئين.

من هؤلاء جميعاً تشكّلت كتائب المقاومة، وأكثرها كتائب الشهيد عزِّ الدين القسام، جمعهم الدين، والجهاد، والهدف الكبير، تحرير فلسطين.

وفي بقعةٍ متقدمةٍ من هذه المنطقة المواجهة للعدّو، فهو يتحرك أمامهم بدباباته، وآلياته الضخمة، يثير الغبار، كما فعلت الخيول في الحروب الصليبية، وقد أصبحت القلوب اليوم غيرَ القلوب بالأمس، لا خوفَ اليوم؛ لأن المصير محتوم بين

حُسنَيَينِ، أو جائزتين، إما نصرٌ وإما شهادة، وقد ذهب منها الوَهن، وهو حبُّ الدنيا وكراهية الموت؛ فعادت الهيبة منهم في قلوب أعدائهم.

شكّلت الكتيبتان في القراراة وحدةَ النخبة، من خيرة المتدربين، أشجعِ الناس من أصحاب الدين، والخلق القويم، والعلوم العصرية، وارتضوا أميرهم المهندس "حسين" قائدَ هذا الفصيل، الذي سطّر على أرض القرارة ملحمةً خالدة، كان هؤلاء أحفادَ الصحابة الذين دفنوا أبناءَهم في هذه الأرض، كما في كلِّ شبرٍ من فلسطين، حفر الأحفاد أنفاقهم؛ ليقتفوا أثر آبائهم، وأجدادهم الذين حَرَّروا هذه الأرض من المحتلين، وبقي عليهم أن يُكملوا مشوارهم بطرد الصهاينة من كلِّ فلسطين، فهنا لا مقارنةَ بين من جاؤوا عبر ستين سنة من روسيا، ومن أمريكا، ومن شتات الفقر، والتشرد؛ ليسرقوا الأرض، وبين من تمتدُّ جذورهم إلى باطن الأرض، وقعر البحر، وتَطال أغصانهم السحاب الذي يمرُّ من فوقهم، وقد قرَّر أصحاب هذه الأرض أن يواجهوا اللصوص في واحدةٍ من معارك التحرير.

كان المهندس حسين "مسئولُ سرية النخبة" وَسطَ أفراد فصيلٍ من الفصائل الثلاثة، وهم يتناولون طعام الإفطار، فإذا

بجهازه اللاسلكي يزغرد، فأسرع في إساغة ما في فيه، ثم استمع..

- أخي حسين: كيف حالُك؟

- بخيرٍ .. الحمد لله .. يبدو أن شيئاً حدث.

- تم استهداف بيتكم .. الحمد لله عائلتك كلُّها بخير، اطمئن، الكلُّ بخير.

حَمِدَ حسين الله وشَكَرَه، وابتسم وهو ينظر إلى أفراد فرقته، بدا الوجوم على وجوههم والقلق، توقفت أسنانهم عن لَوْكِ الطعام، حتى وجدوا ابتسامته العذبة على ثغر وجهٍ جميل، أبيضِ البشرة، لحيته شقراء، وشعره أبيضُ كثيف، وهو لم يناهز الثانية والثلاثين من عمره.

عادت الطمأنينة إلى قلوب النخبة من المجاهدين، يألمون كما البشر لمصاب إخوانهم، أما أرواحهم فهي رهينة في سبيل خالقهم.

عاد جهاز الاتصال يدقُّ من جديد، رفع المهندس حسين جهازه ووقف، وهمس لإخوانه:

- أخونا قائد الكتيبة ..

كان قائد الكتيبة قد تواصل مع عِدَّةِ طواقمَ من جيش النخبة، ضَمَّ وقتها واحداً وخمسين من هذه المنطقة — القرارة-؛ لتنفيذ

خطة المبادرة المتفق عليها سلفاً، والتي حفظها الأفراد عن ظهر قلب.

تفرَّقت السرية المكونة من ثلاثين مجاهداً بعد عشرِ دقائقَ من المكان، وتواصل قائدها مع "أبي مجاهد" أميرِ فصيلٍ يتشكَّلُ من ثلاث مجموعات.

كانت سماء المنطقة بالأمس تَئِنُّ من أزيز الطائرات التي حصدت حتى يومهم ذاك أرواح خمسة وتسعين ومائة شهيدٍ من الأبرياء، وهدَّمت العشراتِ من البيوت، وجرحت أكثرَ من أربعمائة وألفٍ من الرجال والنساء والأطفال.

كانت الزنانات ترصد كلَّ متحرك على كلِّ شبر من أرض المعركة، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، على مدار الليل والنهار، كانت عيون الشيطان تُطِلُّ من فُوَّهات أجهزة التصوير، ظانةً أنها تقتل بأمر الجيش، وهي لا تعلم أنها إنما تقتل بأمر الله وإرادته؛ لِيصطفي من عباده المؤمنين من أكرمهم بالجنة، كما قال سبحانه: "وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ"، فهم بقتلهم في سبيل الله قد شهدوا أن هذا الدين هو حق اليقين، وأنه أنفسُ عندهم من أنفسهم، ولا حجة لأحد على الله بعد الشهداء.

جمع المهندس حسين أوراقه بعد أن عرّف كلَّ فردٍ في مجموعته الثلاثين دوره، ستة منهم للحفر، والباقي للاشتباك في ثلاثة مواقعَ خلف خطوط العدو.

- لا تنسوا العين الثالثة .. مرةً أخرى العين الثالثة .. موقع إبريل، وموقع مايو، إنه تجمع دبابات، راجعوا التفاصيل.

- راجعنا وانتهينا .. متى سننطلق؟

- عندما تبتعد الطائرات الزنَّانة عن موقعنا.

شعر معظم الفرقة بغُصَّة، فالطائرات لا تغادر، والشوق لِلقاءِ الدبابات قد هَيمَنَ على عقولهم، استشعر القائد ما يدور في عقولهم، فقال:

- لا تقلقوا سَيُهَيِّئُ لنا ربُّنا من أمرنا رشداً.

وقف المهندس حسين "أبو عمر" وسط فرقته في اليوم التالي مباشرةً في ساحة البيت، فقد تَمَّ إعلان التهدئة لمدة خمس ساعات، ابتسم وأخبرهم أن هذه الساعات هدية من عند الله مباركة طيبة، استجابة لدعائكم بالأمس.

انطلق المجاهدون مسرعين إلى النفق، اليوم الخميس، وهم صائمون، جَهَّزوا مظاريف التمر، وزجاجاتِ الماء، والذخيرة، كلُّها جاهزة ..

قبل أن يتحركوا همس أبو عمر مبتسماً:

- بالأمس اشتريت بخمسين شيكل بطاريات.

نظر بعضهم إلى بعض مبتسمين، وهمس كلٌّ واحدٍ منهم مازحاً:

- لماذا؟ هل سنمضي العام كلّه في النفق؟!

- والله اشتريتها، ولا أعرف كيف فعلتُ ذلك.

وانطلقوا واحداً بعد الآخر يدخلون من فتحة النفق التي غطّتها الأشجار الجافة، وأكياس الرمل التي لا تشي بما تحتها، وكان الوقت عصراً، صلّوا، ودَعَوا، وتوكّلوا على الله، وانطلقوا إليه.

أضاءت المصابيح المثبتة في رؤوسهم ظلمة النفق، وكأنّ الجباه تضيء بنور ربِّها، جلسوا بعد نصف ساعة للراحة وللصلاة، سأل أحدهم عن اتِّجاه القبلة، وأخبره المهندس حسين أنها في اتِّجاه النفق.

- يعني إذا صلينا سيكون كلٌّ واحدٍ منّا خلف الآخر، أَسرِعوا؛ فالتهدئة على وشك الانتهاء.

- نعم .. على بركة الله، هل ساعاتكم صالحة؟

هزَّ معظمهم رأسه، كأنهم يرون بعضهم ..

وقف أحد الستة المسئولين عن الحفر، وأخبرهم أن شكل النفق سيتحول إلى زاوية قائمة، وأمرهم أن يراعوا القبلة في الموقعين، ونظر إلى شابٍّ طويلِ القامة، ضخمِ الجثة، عمره لم

يُجاوز الثانية والعشرين عاماً، يُعرَفُ بالديناصور، وقف الشابُّ، وصاح بصوتٍ خَشِنٍ:

- يا عمُّ هذا النفق ليس من مقاسي، انظُرُوا لي واحداً على مقاسي ..

تبسَّم بعضهم، وصاح أحدهم ضاحكاً:

- امشِ على ركبك.

وسارت الأجساد بنشوةٍ رغم برودة الجو، ورائحة الهواء الكريهة، والعتمة التي تنتظرهم، وهم يبدِّدونها بالإضاءة التي تصدر من فوق جباههم المزينة بعلامات السجود.

كان فادي أبو عودة، وأحمد حلمي آخرَ النازلين للنفق.

استأنفوا سيرهم، وبعد عشر دقائقَ توقَّفوا فجأةً، فقد سقطت قنبلةٌ كبيرة، وتبعتها ثانيةٌ على فُوَّهة النفق التي دخلوا منها، امتدَّت ألسنة اللهب بالنار خلفهم، الموجة بعد الأخرى، كما تمتدُّ ألسنة الثعابين من أفواهها القاتلة.

ضربت موجة من الحرارة الشديدة، والريحِ العاصف، والأتربة الثقيلة، ظهور الشباب الثلاثين، وقع آخرهم على وجهه من شدة الضغط، وانقطعت الكهرباء التي كانت تضيء النفق، لم يعرف أحدهم إنْ كان مدخل النفق قد تَمَّ تدميره بالكامل أم لا !!

نهض من المجاهدين مَنْ وقع على وجهه، واستردَّ أسلحته، ووضع "جعبته" على ظهره، واستمرَّ في السير في اتِّجاه الشرق، نحو أرضٍ – حَوَت- عظام أجدادهم العظام، الذين غرسوا هذه الأرض منذ مئات السنين، واختلطت فيها مياه الأمطار بعرقهم.

جاء صوت المهندس حسين من المقدمة:

- تذكَّروا أن إغلاق المدخل يعني أن أمامنا مهمةً تحددَّت بإرادة الله، الخروج من الفتحتين، الأُخريين العين الثانية والثالثة، كيف العزيمة؟

وردَّ الجميع قاصدين أن يكسروا ظلمة النفق بالصوت المرتفع؛ حتى تُضِيءَ المصابيح التي تَمَّ وضعها على جباههم:

- حديد.

- لابدَّ من مباشرة الحفر فوراً؛ حتى نستغلَّ التهدئة، ونحقِّقَ مهمتنا.

تَردَّدتِ الكلماتُ في جنبات النفق الضَّيِّق، ولم تخرج من الفتحات البعيدة الممتدة لأكثرَ من مائتي مترٍ، زادت عتمة النفق من المعاناة، وأخذ كلٌّ واحدٍ يضيء كشاف رأسه بالتبادل.

كان ثقل العتاد، وعمق النفق، والرطوبة، والغبار، والروائح الكريهة تثقل صدور السائرين بعزمٍ؛ للوصول إلى مقرَّهم تحت الأرض .. نهاية النفق.

كان طين الأرض قد بلَّل أحذيتهم، ولَطَّخَ سراويلهم، وكانت حفرةٌ صغيرةٌ بين منطقة وأخرى، تُخِلُّ بتوازن بعضهم، وكان طول الديناصور عبئاً عليه، فحنى ظهره، والعتاد والسلاح عليه يصطدم أحياناً بسقف النفق؛ فيفقده توازنه، وتتعدَّد من خلفه الضحكات والتعليقات.

استمرَّ سيرهم ساعةً ونصف الساعة، ثُمَّ وصلوا إلى نهاية النفق، وكان واضحاً أنهم يصعدون في كل خطوة، رغم الطين المَسنون، والهواء البارد الذي يأتي من فتحة صغيرة في الشرق مخفيّة عن عيون العدو والصديق.

وصل المهندس إلى نهاية النفق، وسط ظلمة المكان، التي لا يزيلها إلا الكشافات المثبتة على الرؤوس.

وضع الجميع أمتعتهم، وجلسوا يستريحون، بقي القائد واقفاً مُوَلِّياً وجهه إليهم، والضوء يلمع من مصباح رأسه على وجوه إخوانه، كان الجهد، والعرق، وآثار إغلاق مدخل النفق، قد رسم خطوطاً وألواناً على وجوههم، بقيت عليها ابتسامة اليقين، والسرور؛ لأنهم الآن خلف خطوط العدو.

أخبرهم قائدهم أننا الآن بين فتحتي النفق الشمالية والجنوبية، وأنه حاول الاتِّصال عبر الهاتف الأرضيِّ بالخارج، ولم يتمكن بسبب انقطاع التيار الكهربائي، عندما تم استهداف المدخل.

كانت وسوسة الشيطان عريضةً وشاملة، لكلِّ شيطانٍ فرصةً في هذه النفوس المؤمنة، فهم في هذه الظروف مادةً جيدةً لإرضاء إبليس الكبير، لابدَّ من تخويفهم من الموت هنا، لابدَّ من تذكيرهم بأولادهم ونسائهم، لابُدَّ أن يصوِّر لهم حزن الأمهات، ومرارة الآباء، سَيُدفَنون هنا، ويموتون، ولم يحقِّقوا شيئاً في حربٍ مجنونةٍ مع رابع أكبر قوةٍ في جيوش العالم!

استشعر أحدهم هذه الحالة، وبدأ يشعر بضربات قلبه، فتذكَّر سيدنا يونس – عليه السلام–، واستأذن فوقف، وقال:

- اذكروا الله كثيراً، وسبِّحوه بُكْرةً وأصيلا، وصلُّوا على رسولكم الأمين، ثم جلس، وسَرَى في النفق الذي بدا كقبرٍ مديدٍ، مكثراً الذكر، والتسبيح، والصلوات.

هدأت النفوس كما الأجساد، وأكمل القائد المهندس:

- إخواني نحن الآن خلف خطوط العدو، سنعمل من الفتحة الشمالية، إنني أسمع صوت جنازير الدبابات، كما تسمعون، سنحفر- بعون الله- لعمل فتحته بأيدينا، وبالمعاول، وليس بالآلات بسبب انقطاع الكهرباء، يجب ألاّ ننتظر عودة الكهرباء.

صاح الديناصور:

- أريد أن أكون أول الحافرين، علّني أستطيع الوقوف في هذا النفق لحظة واحدة ..

ضحك بعضهم قليلاً، واختنقت الابتسامة في ثغور بعضهم الآخر.

وقف الديناصور، وخلفه أربعة يتناوبون الحفر، وغيرهم يقوم بنقل الرمال إلى مكانٍ بعيد، يُبَعثِرُهُ في بعض تفرعاتٍ مغلقةٍ في النفق، حتى إذا شعر أحدهم بالعرق توقّف حتى لا يُصيبَه برد النفق بمرضٍ في هذا الظرف العصيب، ومرّتِ الساعات وهم لا يعرفون هل دخل الليل، أم لا زال النهار، إلا من خلال النظر في الساعات!

فجأةً هبطت الرمال فوق رؤوسهم، وبدأت الشمس تدخل المكان، وضوؤها يدفئ الجنَان ..

كاد بعضهم يكبّر بصوت مرتفع، ولكنْ منعه صوت الدبابة الضخمة التي مّرت من فوق فتحة النفق، فوسّعتها دون أن تدري، كان صوت الدبابة قد أسكتهم حتى عن الهمس.

كانت فرحةً كبيرة، ها هو العدوُّ الذي سعينا لِلِقائِهِ يقف فوق الأرض، ونحن تحتها.

- أبو جهاد اصعدْ، أَخبرنا ماذا ترى؟

نهض أبو جهاد الذي أتمَّ منذ أيام عامه الخامس والعشرين، وضع على رأسه غطاءً كثيفاً من القماش الذي يبدو كأعشاب جافة في أرض صحراوية.

تسلّق الرمال التي كانت تتحرك تحت قدميه ويديه، حتى خرج رأسه، ونظر حوله، ثم نزل مسرعاً:

- حاملة الجنود الكبيرة والجرّافة على بُعدِ عشرين متراً تقريباً في اتِّجاه الشَّمال مباشرة، وهي موجهة مدفعها إلى الجانب الآخر.

قال المهندس حسين:

- الأخوان باسم الأغا، وفادي أبو عودة .. استعداد.

وقف الأخوان، كان باسمٌ في المقدمة، والآخر كان على بُعدِ أمتار خلفه، وقد تقدم من فوق أكتاف الجالسين، وكلهم كان ينتظر أن يكون هو الأول في هذه المهمة، كانت أعين الجالسين ترقُبُهم، وكان القائد يعرف ماذا يدور في عقولهم؛ فقال:

- تعرفون أنهما تدرَّبا على هذه المهمة، واتفقنا على ذلك من قبل، فقد انتهت ساعات التهدئة، ولا يزال العدو يضرب مدخل النفق.

تقدم فادي، وصعد إلى فوهة النفق، بينما وقف باسم، وقال:

- تعلمون أنني دعوت الله أن يتبخَّرَ جسدي في سبيل الله، فإذا استجاب الله تعالى، فادعوا لي أن نلتقي جميعاً على حوض الحبيب محمدٍ - صلى الله عليه وسلم.

سالت دموع بعضهم، وطبع كلٌّ واحدٍ منهم صورتي باسم وفادي في عقله في هذه اللحظة، وبهذا المشهد بالذات، وتحرَّكت الألسن لهما بالدعاء.

اختفى باسم وفادي، وقد حملا عُبُوَّاتِ الشواظ وقذائفَ التاندم، وجَهَّزا أسلحتهما.

وقف حسين ينظر من طرف الفتحة، شاهد هجوم باسم على مؤخرة الناقلة، وَوَضعَه عبوة الشواظ، ثم قفز راجعاً، فانفجرت، واشتعلت، وتطايرت أشلاء الناقلة العملاقة، وانتثرت جُثَثُ مَنْ فيها.

وتوالت سبع انفجاراتٍ سمعها الجالسون على أطراف أصابع أرجلهم، وهم يكبرون بصوتٍ مرتفعٍ، بلا وعيٍ ولا تفكير، لقد نجح الأَخَوان، لاشكَّ أن الآلية تمزَّقت، فهذه أصوات أشلائها تسقط حول فوهة النفق.

سقط فادي بالقرب من فوهة النفق بشظيةٍ في صدره، كان المهندس قد خرج برأسه فسحب جثة الشهيد إلى داخل النفق، ليستقبلها الإخوة بالقُبُلات والدعاء، وحملوه في اتِّجاه فتحة النفق الجنوبية؛ ليقوموا بدفنه، بينما قال المهندس:

- لم أرَ جثة باسم حتى الآن، وقد احترقت الآليات، ولم يصدر منها طلقةٌ واحدة، مَنْ يخرج ليبحث عن جثة باسم ..

نهض الديناصور مسرعاً، وكان الأقرب إلى فوهة النفق، فخرج، والكلُّ يترقب عودته، التي لم تَطُلْ، وجاء بساق واحدةٍ لباسم، كانت عيونه مرطبة بدموعه، وعضلات وجهه تتحرك رغماً عنه، يحاول أن يكتم بكاءه .. همس:

- رحمه الله، فقد تبخَّر جسده، ولم يَبْقَ منه سوى هذا الطَّرَف.

- الله أكبر ولله الحمد، لقد استجاب الله دعاءه، رحم الله الشهداء ..

فجأة أظلمت الفتحة الشمالية، وبدأت الرمال تنهال من فوق، فقد اكتشف العدوُّ اللعين تلك العين، وفَجَّرها بعبوةٍ كبيرة .. وبعد فترة صاح المهندس القائد:

- نريد ثلاثةً من الاستشهاديين الذين حدَّدناهم؛ ليذهبوا إلى العين الجنوبية، ومعهم من التمر والماء ما يكفي لأيامٍ خمسة.

نهض ثلاثة، وحملوا حقائبهم، وعبواتِهم الناسفةَ، وتوجَّهوا نحو فرع النفق الذي يتجه للجنوب في عمق الأرض المحتلة، خلف خطوط العدو، قام الثلاثة بالحفر في نهاية التفرع الجنوبي في اتجاه الأرض، ووصلوا بعد ستة أمتار إلى مقربة من السطح، مَدَّ أحدهم ماسورة معدنية مائلة، كانت المنطقة مظلمة، ورأى أضواءً خافتةً لمجموعةٍ من الدبابات

متمركزة، تبعد حوالي خمسين متراً، وكان الليل قد غَطّى المنطقة، وكانت أضواء الدبابات والناقلات والجرافات العملاقة قد أضاءت المكان.

بدأت قذائف الهاون تسقط حول قُوَّاتِ العدو، فأخذوا يتفرَّقون، أخذ الثلاثة يحفرون حتى صنعوا فتحة كبيرة، خرج حسام منها، ثم وضع عبوة ناسفة كبيرة، أسرعت نحوه دبابة، وأطلقت عدة قذائف كبيرة حوله، فجاءت إحداها في فتحة النفق "الجنوبية" فانهارت، وسقط معها حسام، وكادت الرمال تدفنه، وفجأة سمع الجميع صوت انفجار العبوة تحت الدبابة الضخمة، التي وقفت فوق فتحة النفق فازدادت هبوطاً.

أسرع المجاهدون بعيداً عن فتحتي النفق الشمالية والجنوبية، وظَلُّوا في منتصف النفق، لتبدأ رحلة جديدة من المعاناة والجهاد، في حصارٍ استمرَّ واحداً وعشرين يوماً.

كانت أمانيُّ الجميع أن يحقّقوا نصراً يعزِّز مهمتهم، ويضع في أيدي قادتهم جنوداً محتلين أسرى، فقد كان النفق مهيَّئاً لخطف الجنود، ومفاجأة العدو من الخلف، كان حزنهم كبيراً، لكنَّهم لم يفقدوا توازنهم، فقد وَارَوا شهيدهم "حسام" التراب في عمق النفق، ضمَّته أرض أجدادهم؛ ليجاوروهم في برزخهم؛ انتظاراً ليوم الجائزة العظمى القريب.

جلسوا بجوار قائدهم المهندس، الشابُّ الأبيض الباسم الحاني، المتماسك في أحلك ظروفٍ يمرُّ بها إنسان، مسحوا دموعهم، وقرؤوا القرآن.

وعلى سطح الأرض، وعلى مقربةٍ من بيوتٍ غيرِ مأهولة في شرق القرارة، أدرك قائد اللواء من منظاره الكبير من خلف ركام البيوت، أن الأضواء الحمراء والخضراء قد أحاطت بفتحة النفق الجنوبية، وكانوا قد شاهدوا تجمع الدبابات حول واحدةٍ دمَّرها الشهيد باسم الأغا، ولم ينجحوا في خطف جنود، ولم يعرفوا أنه بعد ثلاثة أيام سيسقط جنديٌّ يهوديٌّ في أيدي المجاهدين في حيِّ التفاح، أمر القائد من فوق سطح الأرض ثلاثةً من المجاهدين بحمل عبواتهم، والذهاب خلف خطوط العدو الذين تجمَّعوا حول عين النفق الجنوبية، اقترب الثلاثة، وزرعوا عبواتِهم وأَخفَوْها، ثم انسحبوا وقد زاغت عنهم الأبصار، لم يمكثوا كثيراً خلف ركام بيت حتى انفجرت عبوة في ناقلة جند، فسجدوا هم ومسئول اللواء شاكرين لله، أما العبوة الثانية فلم تنفجر، ظلوا ينتظرون، ولكنَّها لم تنفجر.

جمع القائد حسين الجميعَ في منتصف النفق الواحدَ تِلْوَ الآخر، ثم أخذ ينادي على الأسماء واحداً واحداً، ومن يسمع

اسمه ينتقل بصعوبة خلف القائد، حتى إذا فرغ منهم جميعاً استدار إليهم، كان أحد الجالسين على الأرض، على الطين البارد قد سأل زميله:

- لماذا فعل هذا؟

- ليتأكد أن أحداً من اليهود أو الجواسيس لم يندسَّ بيننا، أو أن أحداً قد تخلَّف في أماكن النفق الأخرى، أو حاجة في نفس يعقوب قضاها.

أكمل القائد خطابه الواثق، وختم بوعدهم عندما يخرجون سيقوم بذبح عجلين كبيرين، واقسم لهم أنهم سيخرجون، وسيجلسون على شاطئ البحر، وطلب منهم أن يبحثوا في النفق عن أجسام متحللة، بسبب الروائح الكريهة التي جاءت بعد التفجيرات، ويقوموا بدفنها في المناطق المنهارة.

أمضوا ليلهم لا يعرفون سوى ما تقوله الساعات في أيديهم .. وقف المهندس أمام الجميع، والصمت يسيطر على النفق، واختفت الأنوار منه إلا ما ينبعث من مصباح الرجل بعد أن أطفؤوا مصابيحهم المعلقة على جباههم؛ ليوفِّروا طاقتها، وقف القائد ينظِّم حياة الجند في هذا المكان، بدأ بحمد الله على كلِّ حال، واليقين بالخروج من هذا النفق، فكما خرج أبونا إبراهيم – عليه السلام– من النار، سيخرجون،

وكما خرج نبي الله يونس – عليه السلام- من بطن الحوت سيخرجون، وكما عَبَرَ موسى – عليه السلام- البحر سيعبرون، وكما خرج سيدنا محمدٌ – عليه الصلاة والسلام- من بين سيوف قريش ليلة الهجرة سيخرجون.

ذكّرهم كيف اشترى قبل دخوله النفق عدداً من بطاريات المصابيح بمبلغ خمسين شيكلاً دون أن يعلم، أو يَظُنَّ أنه سَيَعلَقُ في هذا النفق، هنا أدركوا أنها إرادة الله!

- سأختار منكم أربعةَ أمراءَ لمساعدتي في إدارة شأننا.

تمَّ اختيار "عبد الله" مسؤولاً عن التموين، ومسؤول خدمة الدِّين الأخ "أبو أحمد"، و"أبو إبراهيم" للصحة، وقام "أبو علاّم" باقتراح إشرافه على التحليل السياسي؛ فاستجابوا، وطلبوا من القائد أن يتولى هو المهمة الثقافية والدعوية، فوافق.

ذهب عبد الله فجمع ما عند الجميع من تمرٍ، فلم يجد سوى ما زِنَتُهُ ما بين (7- 8) كيلو جراماتٍ من التمر، وضعها في كيس من البلاستيك، وقام بوضع خطة توزيع تقشفية، ففي اليوم الأول؛ بدأ بأربع تمرات للفرد الواحد في السحور، ومثْلها في الفطور.

كان "عبد الله" يشعر بأن شيئاً ما حدث في بيتهم، فقد استشهد أخوه بعد أن دخل عبد الله النفق، ونجت أسرته، وكانت أُمُّه تدعو ربَّها كثيراً أن يحفظ ابنها عبد الله، وأن يعيده سالماً.

وزَّع عبد الله في اليوم الثاني ثلاث تمرات في الإفطار، ومثلَها في السحور، وفي اليوم الثالث وزَّع تمرتين في الإفطار، ومثلها في السحور، ثم تمرة واحدة في الإفطار، وأخرى في السحور، لكلِّ واحدٍ منهم، واستمرَّ ذلك حتى انتهاء شهر رمضان المبارك، وقد أمضى ضيوف النفق أيام العيد دون طعامٍ تماماً، فقد نفد ما عندهم من ثمرات النخيل!

بدأ المجاهدون يُعِدُّون أنفسَهم لمرحلة معاناة الجوع، حتى يقضوا، فأراد كُلُّ واحدٍ منهم أن يلقى الله وهو راضٍ عنه، استشعر المهندس الخاتمة، فثلاثة أيام العيد بلا طعام .. شعر برغبةٍ شديدةٍ في النوم، فتمدَّد لينام متوسِّداً حقيبته، آلمته في عنقه، فأفرغها ضجراً، فإذا بها نصف كيلو من التمر، صاح يكبِّر، ويحمد الله تعالى بدون تفكير!

وقف مسؤول التموين ليوقظ النائمين؛ ليعطي لكل واحدٍ منهم تمرة لليوم الواحد، وهو يخطو بين الأجساد النائمة، بلا غطاء في الظلمة الحالكة، في هواءٍ ملوثٍ بالأتربة، ورائحة البارود، أجساد بدأت تضعف، ولم يَمَسَّها سهم يَأْسٍ، ولا كانوا

من القانطين؛ فإنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضَّالُّون، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

قال عبد الله:

- اليوم أعطيتُ كلَّ واحدٍ منكم تمرةً واحدة، ولكنْ من الغد سيكون لكل واحدٍ منا نصف تمرة طول النهار، ضعوها في أفواهكم، ولا تبتلعوها حتى تذوب وحدها تماماً!

كانت أنياب الجوع قد عضَّت أحشاءهم، فذهب بعضهم ليجمع نوي التمر من الأرض، ويُفَتِّتَها بين حجرين، أحدهم نجح فبلعه، وأحدهم آذى أحد أسنانه وهو يحاول مضغها، وأحدهم لم يستطع، فبلعه رغماً عنه.

بمرور الأيام فَقَدَ كلُّ واحدٍ منهم الكثير من وزنه تدريجياً، وبدت عظامهم بارزة تحت أكفِّهم وهم جالسون على الأرض لأداء الفرائض الخمس، بحث بعضهم عن أعشاب تنبت بين جدران النفق الإسمنتية، فلم يجد سوى عشبة صغيرة؛ فأكلها، وبدأ الآخرون يمضغون جذور الأشجار التي وصلت باطن الأرض.

كانت مهمة "عبد الله" من اللحظة الأولى توزيعَ الماء، كان ما عندهم من الماء في اليوم الأول حوالي خمسين لتراً، في وعاءين من البلاستيك، كان يوزع كوباً صغيراً على كل واحدٍ منهم في السحور، ومثله على الإفطار، وكان كلُّ واحدٍ

منهم يتلمس قطرات من الماء تجمَّعت على سطح النفق الإسمنتي، فيقوم بجمعها بلسانه، "يلحس"، فيترطَّب حلقُه!

بدأت المياه تنفد في بداية الأيام العشرة الثانية، فجأةً اعتدل الديناصور من نومه، وقال:

- أتذكرون المُزارع الذي كنَّا نطلب منه ألاَّ يرويَ الزرع في الأرض التي حول مدخل النفق ..

دهش بعضهم، ولم يأبَهْ له بعضهم الآخر؛ لأنهم لا يستطيعون الوقوف، قال عبد الله:

- ماذا تقصد؟

- سأذهب إلى المنطقة في زاوية النفق التي أغلقناها هناك، لقد رأيتني في المنام أغسل رأسي في فوهة النفق، وقف الديناصور، وأحنى ظهره؛ حتى لا يصطدم بسقف النفق، وتبعه ثلاثة منهم، حمل كلُّ واحدٍ منهم زجاجتين فارغتين من البلاستيك، وصلوا على هَدْيِ المصابيح على جباههم، فوجدوا تجمع ماءٍ فوق الطين، وقطراتِ ماءٍ نقيةٍ تسقط من السقف، وقفوا يلتقطون قطرات الماء في فوهة الزجاجتين، نجح الذي جلس على الأرض في سحب ماء أكثر، حيث ملأ زجاجتين، حوالي أربع لترات، أخذ ينقيها من الطين بتصفيتها بطرف قطعة قماش أخذها من ملابسه، كان هذا رحمةً من الله، صاح أحدهم، فأقبل اثنان، أحدهما خلف الآخر، لقد عثرا على كنز

أغلى من أيِّ كنز، شربا قليلاً، ثم انقلبا رَاجِعَين، ثم عادا مرة، ومرة.

كانوا في كلِّ يوم، وفي السابعة صباحاً يتمُّ جمع الزجاجات من الماء الأرضي، وقد وضعوا قطعة من النايلون على الأرض؛ لتسقط عليها قطرات الماء الساقطة من السقف، وتطورت النعمة حتى استطاعوا أن يحافظوا على تعبئة عشر زجاجاتٍ في ساعة ونصف، تكفيهم معظم النهار.

كانت المياه الأولى حامضةً، ولكنهم اجتهدوا في البحث عن أماكنَ أخرى، فوجدوها أنقى.

كان عبد الله وهو يشرب الماء، يقصُّ على إخوانه كيف كان يأتي لصاحب الأرض، المزارعِ العجوز، ويطلب منه أن يخفِّف من رَيِّ الماء؛ لأنه يفسد عملهم تحت الأرض، وكيف كان المزارع عنيداً، ها هي المياه قد تجمَّعت؛ لتنقذهم – برحمه الله- من موت محقَّق.

***

لم يغفل صاحب ملفِّ الثقافية أن يقف في كلِّ يوم مرةً أو مرتين يذكِّرهم بمعية الله، وكيف أخرج الله أنبياءَه وأتباعَهم من الكروب التي لم يظنوا أنهم يخرجون منها، وكان صوته جميلاً، وهو يتلو آياتٍ من القرآن: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ

ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

ليس فقط سنخرج، ولكنْ سنهزم أعداءنا، وسيصيبهم الله بأيدينا ببأسٍ شديد، أُقْسِمُ بالله إننا سنخرج، ولن أقول لكم متى هو، إلاّ قبل يومٍ من خروجنا، وسأقول لكم على أيِّ شيءٍ استندتُ في هذا القَسَم، كانت كلماته أشدَّ قوةً للعزائم من الماء الذي توفَّر، ومن نصف التمرة التي يحبسها كلُّ فمٍ في فَجوةٍ منه، لا يمضغها، بل يمصُّ سكَرَها ساعاتٍ طِوالاً!

كان يوقظهم في منتصف الليل، فيتيمَّمون، ثم يجلسون جِلْسَةَ الصلاة، فهم لا يستطيعون الوقوف طويلاً، يقيمون الليل بجزءٍ، أو اثنين، أو ثلاثة من القرآن الكريم، حتى وصلوا إلى أربعة أجزاء في الليلة، كانت أصواتهم لا تصل إلى أهل الأرض، لكنها كانت مسموعةً من ربِّ السماء، والملائكة تكتب لهم الخير مع كلِّ حرفٍ ينطقونه، وكل "آهٍ" تخرج من أجسادهم الهزيلة التي فقدت أكثر ما فيها من شحمٍ ولحمٍ وعضلات.

كانت نجاة إبراهيمَ من النار، ويونس من بطن الحوت، ويوسف من البئر، ولوطٍ من أهل الفسق، وموسى من بطش

فرعون، ومن غرق البحر، ومحمدٍ من سيوف كفار قريش عليهم جميعاً الصلاة والسلام، تدفع في دمائهم حرارةً أكثرَ من حرارة الشمس التي فقدوها، والتي لا تبعد عنهم إلا عشرين متراً من فوقهم، ليس أكثر.

كان الديناصور يتذكر دائماً اليوم الأول لهم في النفق، وهو الأصعب، فقد ذهبوا إلى مقربة من فوهة النفق، فقضوا حاجتهم، مرةً واحدة، فقد أفرغت أحشاؤهم ما فيها، واستكانت حتى النهاية، إلا أن إسماعيل الذي ابتلي بمرض الزحار، كان يشعر بالآلام في بطنه؛ فيسرع إلى بداية النفق، فلا يُخرجُ إلا قليلاً من الماء والمخاط والدم مصحوبةً بآلامٍ كبيرة، وضعفٍ، وهُزالٍ، وارتفاعٍ شديدٍ في الحرارة، كانت برودة النفق تخفّف من سخونته، ولم يكن عندهم من الماء ما يمكن الاستغناء عنه، فكانت تمرتان إضافيتان هي العوضَ عن هذا الكرب الكبير، وكان القرآن دواءً؛ ليسكّنَ أوجاعَه، ويهدّئَ من رَوْعِه، وهو يرى جسده ينحف، وحلقه يجفُّ، وبصره يضعف، ويصلي قاعداً وهو يكاد يسقط على ظهره في جلسته من الإعياء.

لم يعرف إسماعيل الابتسام إلا مرةً واحدة، حيثُ كانت صلاة العشاء، وكان الإمام القائد بصوته النديّ يذكّر

بابتلاءات مَنْ سبق ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ساعتها وفجأةً بدأ شخير أحد المصلين يعلو، وكان جالساً خلفه تماماً، لم يتوقف الإمام، ورفع صوته؛ ليغطي على شخير المصلي النائم، بينما كانت الشفاه تقاوم التبَسُّم في هذه اللحظات بين يدي الله تعالى، حتى إذا فرغوا من الصلاة تعالت الضحكات، وهم يرون الديناصور نائماً، وقد استندت رأسه على كتفه، ومال ليستند على جدار النفق الضيق المعتم البارد.

كان أبو علاّم شاباً لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره، يهتمُّ بمتابعة الأخبار، ويقرأ التحليل السياسي من مصادرَ متعددةٍ، ويبدي رغبةً في تفسير الظواهر، ويستخلص منها ما يُطَمئِنُ به إخوانهَ، فنعتوهُ بالمحلل السياسيّ، كان أكثرَ الحضور ترقباً لصوت الانفجارات من فوقهم، وكان يحاول أن يحدِّد موقع الانفجار من النفق، ومصدر الانفجار؛ هل هو من طائرة معادية، أم من صواريخ صَدِيقة، وكان يؤكّد في كل مرةٍ أن إخوانه لن يستهدفوا هذا المكان؛ لمعرفتهم بوجودنا تحته، وسيمنعون اقتراب آليات العدوِّ منه.

كان يحدثهم عن نتائج الحرب، ومآلاتها في المنطقة، ويكثر من أهمية هذه المعركة؛ لكسر شوكة الأمن المعادي، ويهدم نظريته الأمنية، فتزول حالة الاطمئنان الزائفة التي عاش عليها الاحتلال لأكثر من ستٍّ وستين سنة.

كان يفنِّد لهم هذه النظرية التي ترتكز على ردع أعدائها، وقد حقّقت في ذلك نجاحاتٍ باهرةً ضدَّ العرب، وترتكز على التفوُّقِ الذي عزَّز خوف العرب منها، وترتكز على الحرب الخاطفة، وأثبتت عملياً صدق هذه النظرية في حروبها ذاتِ الأيام القليلة، أو الساعات المعدودة، وترتكز على بقاء الأرض المحتلة عام 1948م آمنةً تماماً، فيستمرُّ الاقتصاد، وتمضي السياحة، ويدوم السفر، لقد ضربت هذه المعركة – العصفُ المأكول- هذه النظرية في مقتل، فكيف يكون مصير الذين جاؤوا إلى بلاد السمن، والعسل، والأمن، والأمان وهم الآن في غياهب الملاجئ، والموت الذي يَفرُّون منه فإنه قد نزل بساحتهم، وساء صباح المُتذرين؟!

كانت هذه الكلمات تُرطِّب الأفواه الجافّة، وتُدفئ الأجساد الباردة، وتُدخل الطمأنينة بالنصر، وتحرير الأسرى والمسرى، والإنسان والأوطان، والبلاد والعباد.

كانت كلمات الإمام في الصلاة الجهرية، وما يتبعها من التحليل السياسيِّ والعسكريِّ دواءً لمرض أصاب أحدهم؛ حيث انتفخت غدده اللعابية تحت أذنيه وخلفهما، وارتفعت حرارته، وذبل عوده، وجفَّ حلقه، فكانت هذه الوجبة الإيمانية السياسية، وتمرتان، ومزيدٌ من الماء، هي الأدويةَ الوحيدة، كما كان حصر البول في شابٍّ ثالثٍ يحتاج إلى مزيد من الماء، ولم يبخلوا عليه، فقد أمدَّهم إصرار الفلاح الذي كان يروي أرضه فوق نفقهم هذا، وعناده في ذلك بالماء، كان يعلم ما يقصدون، ولكنَّه ما كان يستجيب لهم؛ لأنها إرادة الله التي ادَّخرها لهم.

كانت قطعة من الإسفنج المبللة توضع على الجسد الملتهب؛ فيتبخر العرق، وكان ذلك يكوي قلب الإخوان وهم يشاهدون عذاب إخوانهم المرضى؛ دون ضجرٍ أو اعتراض.

في ذاتِ يومٍ صَاحَ مريضهم بالزحار، أشعر بأمعائي تتمزق، قال له مسؤول الصحة: هل تقبل أن أعجن لك جزءاً من الطين بالماء، وتبلعه؟

فوافق المريض، ولكنَّ القائد رفض، وأعطى كلَّ حصته من التمر لمدة يومين لذلك الأخ المريض، وفعل بعض إخوانه مثله، حتى أخمدوا صيحاتِ الأمعاء في جوف أخيهم الموعوك.

مضت الأيام ثقيلةً على النفس والجسد، فمع مرور الوقت يذبل الجسد، وتضعف القدرة، ويتضاءل الأمل في الخروج، غير أن وجود المياه بهذه الصورة الكافية، وضعف النشاط، وقلة الحركة، وقدرة الإنسان على التكيُّف مع المصائب؛ قد جعلت الأبطال في النفق يمضون يومهم وليلهم، صابرين محتسبين متأقلمين رغم أنه قد ضمرت منهم العضلات، وبدأت المفاصل تتألم، ومعظمهم لا يعرف كم من الأيام مضت؛ بل متى ستكون النهاية في هذا القبر الجماعي المستطيل، ولكن هذا الحال الذي يقول فيه الذين آمنوا: متى نصرُ الله؟!، هو أقرب ساعة الفَرَج، ألا إن نصرَ الله قريب !

جرت المياه في عروق الشباب؛ فبدؤوا يُمضون ساعاتٍ في البحث داخل النفق، كان جهاز فحص الأكسجين لا يزال يعمل، فأخذه أحدهم إلى مكان الانفجار في العين الجنوبية، كانت رائحة المكان كريهةً، جاء ليخبرهم أنه يسمع صوت حركة جنازير الدبابات بالقرب من فوهة النفق، فقد بدأ أكسجين النفق ينفد، وبدأت الأنفاس تتسارع لأقلِّ مجهود، وفي منتصف ليلة الثامنَ عشرَ من وجودهم في النفق، استيقظ الجميع على صوت انفجار ضخم، شعر كلٌّ واحدٍ منهم أنه ارتفع وانخفض داخل النفق، وهبت رياحٌ كريهة داخل النفق، وقد تشبَّع بالدخان والأتربة، غَطَّى كلٌّ واحدٍ منهم أنفه وفمه

بذراعه، وفجأةً هبت ريح من داخل الفتحة بقوة، فأخذ كلٌّ منهم يسحب بأنفه وفمه الهواء، وكأنَّه خرج لِتوِّه فوق سطح البحر، بدأت قوة جديدة تسري في الأجساد الهزيلة الذابلة، التي لم تغفل عن الصلاة والذكر.

أسرع عبد الله، وخلفه الديناصور، نحو فتحة النفق، فوجدا الفتحة مغطاةً بكتل إسمنتية، ولكنَّ الهواء يدخل منعشاً، نقياً، من بينها، وقد اختفت أصوات الدبابات.

فرغ المصلون من صلاة الظهر جالسين في النفق الطويل الواحد رديف الآخر، وخلفهم كان فرع النفق الجانبي متعامداً معهم، كان المصلون يجلسون بجوار بعضهم، في اتجاهٍ واحدٍ نحو القبلة، وكانوا كُلَّما: قالوا السلام عليكم ورحمة الله وهم ينظرون إلى اليسار، كانوا يستشعرون القدس التي كانت ترنو إليهم، كما يتطلعون إليها في كلِّ صلاة.

حتى إذا جاء يوم الثالثَ عشرَ من آب "أغسطس" تمَّ تمديد التهدئة لمدة خمسة أيام، لم يكن هناك التزام، فالصواريخ قد استمرَّت، والقصف العدواني دائم، ولكنْ بوتيرةٍ قليلة.

قرَّر القائد أن يخرجوا من هذا النفق، وأن يلتحموا مع العدو؛ فإما أن ينالوا الشهادة، أو تُكتب لهم النجاة، فقد عزموا ألا يستسلموا للموت البطيء، فاقترح القائد أن يتم عملُ سُلَّمٍ

من القضبان الحديدية، التي بقيت بعد هدم سُلّمِ النفق، سحبها من يقدر منهم من بين الأتربة وكتل الإسمنت، كانت أجسادهم الضعيفة تتقوى بقرار القائد الخروجَ والمواجهة، والاستشهادَ أو النجاة، خاصةً وأن المنطقة لم تشهد انفجاراتٍ قريبةً منذ أيام، ولم تُسمع أصوات اهتزازات الأرض تحت عجلات المجنزرات الضخمة، كان الأمل في الخروج أو الشهادة هو الخيارَ، وليس الانتظارَ حتى يأتي الموت، وهم قعود.

شهدت هذه الأيام شفاء المرضى، وزيادة كمية المياه المشروبة، وبداية نفاد آخر "ربع تمرة" يومياً، تزايدت جلسات التذكير بأيام الله تعالى، وبسيرة الرسول – عليه الصلاة والسلام-، وخطوات صحابته الكرام رضي الله عنهم، كان هذا زادَ الأمل في الخروج، والمواجهة، والاستشهاد.

في اليوم الذي قرَّروا فيه الحفر من منطقة قريبة من المدخل المنهار، سمعوا أصوات حفر فوقهم، فتوقَّفوا يستمعون، برز محللهم السياسي؛ ليؤكد أن هذه طريقةُ حفر إخوانهم، فهذه ليست جرَّاراتٍ ضخمةً، كما أن إخوانهم يعرفون مكان النفق، وأيقن القائد بعد يومين من الحفر؛ أي في الرابع عشر من آب بعد رؤيا رآها بعد قيام الليل، وختم فيها القرآن الكريم، جمعهم بعد نوبة عملٍ شاقةٍ ظهراً، ووقف أمامهم، قال:

- أبشروا إخواني، أقسم لكم أننا سنخرج يوم غدٍ، سأكتب هذا على الجدار؛ ليكون شاهداً على صدق ما أقول.

سأل أحدهم:

- لماذا ازدادت وتيرة الحفر فوقنا؟

قال المحلل:

- قد تكون نهاية الحرب، أو تكون حالة وقف إطلاق نارٍ مؤقّت..

قال القائد:

- لم تتوقف الحرب، فلا زالت الانفجارات تسمع من هزات الأرض الكبيرة في الأماكن البعيدة، جَهِّزوا سُلَّماً بسرعة، اليوم يجب أن نفرغ منه، اجعلوه على هيئة سُلَّمٍ يحمل أجسادنا، سننقسم إلى ثلاث مجموعات، سيستمر الحفر ليلاً ونهاراً، الجماعة التي تتعب تبتعد عن فتحة النفق المهدَّمة، وتأتي بعدها المجموعة التالية؛ حتى يأخذ الجميع راحته.

شاء الله أن يكون حفر المجاهدين فوق سطح الأرض تماماً فوق حفر مَنْ هم تحت الأرض، وفي ضحى اليوم الخامسَ عشرَ من آب دخلت أشعة الشمس الساخنة إلى النفق.

أخيراً دخلت أشعة الشمس؛ فابتعد الجميع عن فتحة النفق خشية أن يكون الأعداء فوقهم، وأخذوا سواتر خلف التراب، فجأةً جاء صوت يدوي من الفتحة، فصاح الديناصور:

- هذا ساتر إخواننا الذين فوقنا، وهذا صوت أخينا ...

دخلت الشمس، وبدت وجوه قيادة المنطقة المعروفة لديهم تُطِلُّ عليهم من فوقهم، وقف قائدهم، وقال:

- الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

سجدت الجباه تحت الأرض وفوقها، كانت هذه تهدئةَ خمسة أيام، قَدَّرها الله تعالى؛ ليُخرج عباده وأحبابه الصالحين، وكان هذا اليوم الذي توقف فيه جهاز فحص الأكسجين، والذي شهد قولَ أحدهم لأول مرة: سنموت حتماً إن لم نخرج اليوم !

سجدت الوجوه، وهي تبكي بكاء النصر، وبكاء النجاة، وقائد الكتيبة من فوق الأرض، جعل يُطِلُّ عليهم من فتحة النفق، فقد جاء بنفسه ملثماً؛ ليرى المشهد العظيم، وهو يستمع إلى بعضهم ينشد:

- هو الحق يحشد أجنادَه .. ويَعتَدُّ للموقف الفاصل .. فَصُفُّوا الكتائبَ آسادَه، ودُكُّوا به دولة الباطل .

- الحمد لله على السلامة، استريحوا، لن نخرجكم الآن، استلقوا على الأرض، ولا تبذلوا أيَّ مجهود، هذه كمية من الماء .. اشربوها بالتدريج، ولا تفتحوا عيونكم في أشعة الشمس، استريحوا سنخرجكم عند المغرب، سنضع على رأس كلِّ واحدٍ منكم قناعاً.

كانت جماهير كبيرة قد تجمَّعت حول فتحة النفق؛ لتشهد المعجزة الربانية، جلس المجاهدون ثم تمدَّدوا، وذهب بعضهم في سِنَةٍ من النوم، الذي هو أقرب إلى اليقظة، وكلُّهم يذكر شهداءهم الثلاثة الذين قَضَوْا في مواجهة فتحة النفق الشَّمالي، باسم الأغا، وفادي أبو عودة، والشهيد إياد "شهيد الاستطلاع" الذي دفن على مسافة أربعةَ عشرَ متراً من سطح الأرض!

كانت الساعة السابعة والنصف عند الغروب، ساعةَ خروج الذين أقبل بعضهم على بعضٍ يتعانقون واحداً بعد الآخر، يتمُّ تغطية رأس كلِّ واحدٍ منهم بلثام من القماش، ويتم نقله على نقالة إلى سيارات الإسعاف، وجموع من الناس تكبِّر وتهلِّل، وتحمد الله تعالى على نعمائه.

استمرَّ نقل الرجال مدة أربع ساعات من المعاناة الممتعة، فهذا الجهد بعده حياة، كلُّ نقطة عرقٍ تبارك في عمره؛ ليكمل المشوار.

فجأة سقط من أيديهم مجاهد كان قد استنشق الغاز السام الذي شبّع التراب؛ فأصيب بحالة تشنج، وهوى على الأرض وهو يقول: خطيبتي استشهدت!

كان القائد آخر من خرج، نظر إلى جدار الحائط الذي كُتب عليه سنخرج يوم 8/5، ثم سجد طويلاً باكياً، وصوت قائد اللواء من فوق يحثُّه على الصعود، حتى خشي أن يكون قضى نَحبَه في هذه اللحظات العصيبة السعيدة !

وأخيراً خرج القائد؛ ليسجد مرة أخرى فوق سطح الأرض، رغماً عن إخوانه الذين جعلوا يحثونه على النوم على النقالة بسرعة.

ظنَّ الصبية من عائلة بكر الذين يعتاش معظمهم من الصيد في البحر أن العدوَّ يعرف أنه لا علاقة لهم بالسلاح، فهم صبيةٌ تعوَّدوا اللعب على شاطئ البحر، وأهلهم من الصيادين المعروفين، يَسعَونَ لرزقهم طوال الليل، ويبيعون ما أنعم الله به عليهم من الرزق نهاراً؛ ليربُّوا أطفالهم؛ ويعيلوا أسرهم، وها هو اليوم التاسع للحرب، ولم يعرفوا متى سيذهبون للصيد !

انقطع الرجال عن الصيد، فالرصاصُ قد دمَّر المراكب الصغيرة والكبيرة، والبوارجُ الحربية تحيط بقطاع غزة من البحر، وقذائفها تضرب البيوت عشوائياً.

شدَّهم شوقهم إلى لعب الكرة على الرمال الذهبية الناعمة النظيفة، فذهبوا يتسارعون، تسوقهم سعادتهم،

وتسبقهم ابتسامتهم، أخذوا يتناقلون الكرة بين أرجلهم، وسط صيحاتٍ وضحكات.

فجأة أطلّت عيون الغدر من السماء في اليوم التاسع للحرب، وأرسلت - كما التِنّينِ المتوحش- لهبها إلى أجسادهم، فأحالت حركتهم إلى سكون، والابتسامة إلى دموع، وصبَّ الجسد دمه في الأرض حتى رواها، فاختلط بعضه بماء البحر، وسار بعضه الآخر في شرايين الوطن من شماله إلى جنوبه.

هدأتِ الأجساد التي أنشأها الله تعالى في الأرض؛ لتتحرك، وانقطعت الأنفاس التي تعبت من كثرة ما دخل فيها من التراب، والغاز، ورائحة البارود.

كان العالم يتفرج على المشهد تبُثّه العشرات من القنوات الفضائية، ووقف ضمير العالم أمام المرآة؛ فمنهم من أشاح بوجهه لا يريد أن يبصق على صورته، ومنهم من ذهب ليشرب كأساً صفراء يُغمَى بها عليه، ومنهم من تجمَّد ضميره؛ بل تحجر وتبلد، ومنهم من دعا الله باكياً أن ينتقم من المجرمين.

تحرَّكت أقلام؛ لِتتحدث عن حقوق الإنسان، والقانون الدولي الإنساني، فلم يجدوا حقوقاً، ولا وجدوا من يعترف بإنسانية هؤلاء الضحايا، ولا يوجد قانونيٌّ، ولا إنسانيٌّ .. حتى ولا حيوانيّ !

صفحة التاريخ اليوم حمراءُ خطوطُها، وشكلُها بُقَعُ الدم النازف من جروح المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وموسيقاها التصويرية صراخ الأمهات، وآهات الآباء والزوجات، وأفواه الإخوة والأخوات التي احتبس فيها الهواء، والخوف، والغضب، ومشاعرُ مكبوتة لم يَكْتُب عنها حتى الذين عاشوها بأنفسهم، أو عايشوها رأي العين!

انتهت كلمات: تَعَالَوْا نلعبِ الكرة، فهم يعرفون أننا نلعب، كلمات ليس لها مكان في غزة اليوم .. اليوم يوم الدم وحده، ولا مجالَ للطفولة، ففي هذا اليوم التاسع للعدوان اكتمل عدد الشهداء عشرين ومائتي شهيدٍ، ووصل عدد الجرحى سبعين وخمسَمائةٍ وألفَ جريحٍ، ثلثهم من الأطفال .. فهنيئاً للإله يهوه .. إلهِ القتل، والدم، والدعارة !

بدا قطاع غزة بعد استشهاد المجاهدين الستة في رفح كثورٍ غاضبٍ، مَدَّ قرنه إلى الشرق، وفي الشمال، فكانت بيت حانون، وكان قرنه اليمين في مدينة رفح، وقف الثور الغاضب متحفِّزاً لمهاجمة أعدائه، وكأنَّ الثور قد لخَّص هذه المواجهة القادمة بغرز قرنِهِ الشِّمالِ الحادِّ في جسد العدو، وإنفاذ قرنه اليمين في بطن العدو في هذه المواجهة؛ ليجلس بعدها الثور

البريُّ المتمرِّدُ في غابة النعاج؛ ليضمِّد جراحه، وليمسح عن قرنيه دماء العدو، ورائحته الكريهة!

كانت مدينة بيت حانون في اليوم السابعَ عشرَ من تموز قد استقبلت الآلاف من قذائف المدفعية والطائرات، وخاصةً البيوت العالية، التي كانت تُطِلُّ من فوق ظهر المدينة، تقف في شموخ المصارعين، استهدفها العدو؛ لأنه يكره لها أن تبقى منتصبة، هو يريد تركيع كلِّ شيءٍ حوله، فَصُمودُها يهدِّد وجوده، ويختصر مستقبله.

ارتقى في هذا القصف شهيدان كانا يرصدان تحركاتِ آلات الدمار القادمة من الشرق، ونشر السموم، وحتى لا ترى المدينة، وحتى تعمى، كانت قنابل الدخان، ومواقد الحرائق في البيوت والأشجار قد غطَّت وجه المدينة الباسلة، قرنِ قطاع غزة الشماليِّ العنيد، حتى بات الإنسان لا يرى شيئاً حوله من البشر والبيوت، وكان الغاز يدخل صدور الصغار والكبار، فتقاومه بزفرات من الكحة، تلفظه كما تلفظ الاحتلال، والروائح النتنة المنبعثة منه.

جاءت الطائرات المروحية؛ لِتُلِقْيَ من السماء أعداداً كبيرةً من منشورات تهدِّد، وتتوعَّد، وتأمر الناس بالرحيل عن بيت حانون، جمع الأطفال الآلاف من الوريقات، وأشعلوا فيها النار، وداسها الرجال والنساء بالأقدام.

رأى بعض كبار السنِّ أن يطلبوا من أولادهم ونسائهم أن يبتعدوا إلىٰ غرب المدينة، وكان هذا رأيَ قيادة المقاومة؛ حتى يواجهوا العدوَّ وجهاً لوجه، خاصَّة وأن مذابح المدنيين في حيِّ الشجاعية قد ملأت شاشاتِ الإعلام، شاهدةً على بشاعة العدو، وخيانة بعض الأشقاء، وصَمتِ العرب والغرب، وتواطؤ شرذمة من أشرار فلسطين، وقد امتلأت المدارس بالنازحين، وازدحمت المستشفيات في مُدن قطاع غزة بالشهداء والجرحى والمهجرين !

مضى هذا اليوم، والدخان يحتلُّ كلّ شيءٍ على وجه بيت حانون، كما اللصوص يتحرَّكون في الظلام، وجاءت حاملات الجند، والدبابات، والجرَّافات العملاقة، وبداخلها أجسادٌ تكاد قلوبها تبلغ الحناجر؛ لأنهم سيدخلون غزةَ مقبرةَ الغُزاة.

جاء اليهود البُلَهاءُ إلى مدينة بيت حانون، وهم لا يعرفون شكيمة هذه المدينة عبر التاريخ الذي لم يسمع أجداد المستوطنين شيئاً عنه، هذه المدينة شهدت التأسيس على يد ملكٍ وثنيٍّ هو الملك "حانون"، جرت بينه وبين ملك آخر يدعى "اليلي" حروبٌ على هذا الوطن الجميل، ولمَّا مات الملك "حانون" خلَّد الناس ذكراه في بيتٍ للعبادة، سَمَّوهُ "بيت حانون".

ظنَّ اليهود أنهم سيفعلون كما فعل الملك "سرجون" الذي أخضع جنوب فلسطين لحكمه، حتى إذا جاء الإسلام، وفي

أوائل سنة سبع وثلاثين وستمائة هجرية، كانت بيت حانون مسرحَ الصراع بين الفرنجة والمسلمين، وانتصر فيها إخواننا المسلمون الذين سبقونا بالإيمان والجهاد في سبيل الله.

وها هي بيت حانون تجدِّد شبابها، في حرب فرنجة العصر، ليتهم يدخلون مسجد النصر الذي تأسَّس في ذلك العام الآنف ذكرُه؛ ليعلموا ماذا سيحدث لهم؟! بيت حانون التي يشهد التاريخ على صلابة رجالها ونسائها.

بدأت جنازير العدوِّ مع ساعات الفجر الأولى تمضغ تراب الأرض في بيت حانون.

وقف محمد أبو عودة قائد المنطقة يتحدَّث في الهاتف الأرضي الخاص:

- الاجتياح بدأ .. نحن نشاهده، عليكم تغيير العُقَد، تحرَّكوا إلى المواقع المذكورة في الخطة، تجنَّبوا قنابل الدخان، الدبابات دخلت من منطقة "المعبر" إلى مدرسة الزراعة، لا تَظْهَروا، لن نطلق النار أو القذائف إلا على ما نشاهد، غَطُّوا شارع "دمرة"، واذكروا الله، واسألوه العفو والعافية، فإن الله معكم، ولن يَتِرَكم أعمالكم.

كان "باسم" مسئولُ سرايا القدس في المدينة يستمع أيضاً لصوت "أبي عودة"، وفجأةً ظهرت قوات العدوِّ الراجلة في الشارع الضيِّق، يسيرون بين البيوت المتلاصقة، كان عددهم

يتراوح بين الخمسين والستين، صاح باسم برباطة جأشٍ، وكأنَّ القلب لم يعرف الخوف:

- يا أعداء الله .. الله أكبر منكم .. الله أكبر ..

ارتدَّ الجنود للخلف، واختبؤوا وراء البيوت، وتجمَّعوا حول قائدهم، وفجأةً انهالت عليهم رصاصات سرايا القدس، وقذائفُ القسام، من خمسة رجال فقط، فسقط منهم من سقط، وهرب الباقون.

وقف "نظمي" دون تفكيرٍ، وقال:

- هذه فرصتنا، ماتوا أو هربوا، سأذهب لأخطف أحَدهم حيًّا أو ميتاً.

فجأةً ظهرت أصواتٌ من خلف الجدران من المواطنين الذين لم يغادروا بيوتهم:

- لا تقفوا في الشارع .. الطائرات فوقكم، انتظروا.

نظر محمد أبو عودة إلى الناس، وصاح فيهم بحزم:

- اخرجوا من البيوت من الخلف فوراً، فالمواجهة ستكون هنا .. أسرعوا.

انسحب المقاومون الخمسة من المكان إلى بيتٍ آخر، وتوزَّعوا، وابتعد المواطنون مسرعين، بينما كان الارتباك في جنود الاحتلال قد قيّد الأرجل، وعقد الألسن، وتشنَّجتِ الأصابع على السلاح، تطلق الرصاص عشوائياً.

وقف النقيب اليهودي "شير كليبانر" بعد هذه المواجهة الصغيرة على حدود بيت حانون الجنوبية، على تخوم جباليا، كان يستعرض سلاحه فوق دبابة من طراز "أشزريت" التي تَنقلُ الجنود والعتاد، وكان الضابط "روتم" من كتيبته في لواء جفعاتي، قد استهدفته بندقية قنَّاص، كانت بندقيته طويلة من طراز "الغول"، وكانت ذراعه طويلة، وعيونه كعيون الصقور، أراد أن يؤدِّب هذا المغرور، فصوَّب رصاصة واحدة، أرقدته في مستشفى "تل ها شومير" خمسةً وأربعين يوماً!

كان الرقيب "يلنيف تويتس" يرقب؛ فهرب من نيران القنَّاص، فقد رأى الضابط "شير"، ورأى ضابطاً آخر طارت كتفه من قبل، فسقط في فوهة الدبَّابة العلويّة، هرب "تويتس"؛ لينجو بجلده بعيداً، وهو يتمنَّى أن يعود إلى قاعدة "فاب لخيش"، لكنهم أعادوه لقيادة دبَّابةٍ أخرى، وصل إلى غزة في المساء يسير على رمالها المتحركة، تخفِّف من خوفه، وتشجِّعه مناظر قصف المدينة غرباً، كان ذلك اليومُ هو العاشرَ للعدوان، وصلوا إلى بيتٍ قد سبقهم إليه جنود، وعندما دخله ومن معه، تَمَّ استهدافه بصاروخ من بيت حانون، كان القائد قد سبقهم إلى جهنم صريعاً في أحد البيوت، وكان حوله أربعةٌ من المصابين، بدأت فِرَقُ الإنقاذ عملية الإخلاء، وانتظروا حتى

الفجر؛ ليهربوا من بيت حانون، وتركوا المنطقة تقصفها الطائرات، لم تنفعهم جرافات "D.9"، ولا قوات الهندسة، ولا وحدة الكلاب، ولا الزنانات، ولا إلههم "يهوه"!

جلست أسرة الشهداء الصغار الذين قَضَوْا بالأمس على ميناء غزة البحري، في اليوم التالي للجريمة البشعة على شاطئ البحر يشاهدون ما يجري على شاشات التلفزيون، كان الخوف قد ملأ كلَّ ركنٍ في البيوت البسيطة، بيوت الصيَّادين الذين سرق العدوُّ أرواح أشبالهم، في وطنٍ مسروق، وأغرق فرحتهم في دمائهم، وأذابها في البحر الأبيض الكبير، وفي الوقت نفسه كانت صُوَرُ الأبرياء الناجين من مذبحة الشجاعية معروضةً على شاشات التلفزيون، وكان العالم خارجَ قطاع غزة يشاهد الصور تأتي من قنوات الإعلام الفضائية، وهي تنقل حالاتِ الهلع التي تكاد تبلغ بالقلوب الحناجر، وتذهب بالأبصار، الخوف من الموت، مشاهدة الموت .. انتظار الموت!

ظهر على الشاشة وزير الأمن الداخلي للعدوِّ يتفقَّدُ البيوت في الأرض المحتلة التي تَمَّ استهدافها، وحوله قطيعٌ من اللصوص، هؤلاء من دول آسيا الشرقية، وأولئك من آسيا الغربية، هؤلاء من أمريكا، وأولئك من أوروبا، هؤلاء من أفريقيا السوداء، وأولئك من بلاد العرب عاشوا فيها كمواطنين

يتمتعون بكامل حقوقهم، حتى إذا احتل إخوانهم فلسطين؛ جاؤوا إليها في عام 1948م بعد أن طردوا وهجروا أهلها بقوة السلاح منها!

دوّى أمام المشاهدين صوت إنذار؛ فانفرط عقد الملتفين حول الوزير، فقد أسرع يجري ويحني رأسه ويتعثر، ويقع على الأرض ويقوم، ثم ينبطح أرضاً على وجهه؛ ابتسمت العائلات المكلومة، ابتسامةً ممزوجةً باحتقارٍ لأولئك الأشرار، وشعورٍ بشيءٍ من الرضا عن القصاص والثأر!

قال أحدهم:

- ليست هذه المرةَ الأولى التي يقع فيها على وجهه!

ظنَّ العدوُّ أنه أحكم قبضته على منطقة الزنة، ظنه كما يظنُّ الطفل عندما يمسك بجمرة حمراء، فيكتوي، ذهب إلى خزاعة؛ ليُحكِمَ قبضته على أيِّ بيت .. أيِّ بيت؛ حتى يقول: إنه نجح في الدخول البري، ثلاثة أيام وهو يحوم حول خزاعة، ولم يستطع.

كانت وحدة من الجهاد الإسلامي، وفيهم إياد أبو ريدة، وبلال أبو رجيلة المشهور باسم "أدهم"، قد نَفِدت ذخيرتها في الاشتباكات السابقة، فطلبت منهم قيادتهم أن ينسحبوا بدون سلاح.

ذهبوا للغرب من بيتٍ لبيت، بعد إخفاء السلاح، فوجدوا مجموعةً من القسام، كانت ذخيرتهم وافرة، ولكن عندهم نقص في عدد البنادق الرشاشة، رجع إياد فأحضر البنادق، وتمَّ شحنها بالذخيرة.

كانوا جميعاً في البيوت، ولم يطلقوا رصاصة واحدة، فقد كانت بعض العائلات تغادر البيوت توقعاً لمعركة طاحنة.

أغرت حالة الهدوء العدو؛ فذهب يدخل البيوت وَجِلاً، ولما لم يجد أحداً استمرَّ منتشياً، حتى دخل البيت الذي كمنت فيه مجموعة الجهاد، كان آخر الجنود ينظر خلفه، فجأة تَمَّ اختطافه من خلف المجموعة، وسحبه إياد أبو ريدة، وتم إخفاؤه في غرفة، وأغلقوا الباب، صرخ الجندي؛ فطعنه إياد بخنجرٍ في صدره.

أدركت الوحدة اليهودية أن جندياً اختفى، فانهالت الصواريخ على كلِّ البيوت، وقضى المجاهدون شهداء، كان آخرهم إياد أبو ريدة، ولم يَبقَ منهم سوى واحد، ذهب بسلامٍ إلى الزنة من جديد، الْتحق ذلك المجاهد في اليوم الثالث للهجوم البريِّ بستةٍ من الشباب، كانوا على بعد ثلاثمائة مترٍ من قوات العدو الذين بدؤوا يتقدَّمون من جديد.

كان شباب الجهاد الإسلامي ينتقلون من بيت إلى بيت، حتى وصلوا ساحةً صغيرةً بين بيوتٍ مزدحمة؛ فوجدوا ثلاثة

من مجاهدي القسام، كلٌّ واحدٍ جالسٌ يضع ساقه فوق الأخرى، في اطمئنانٍ عجيب، سلّموا عليهم، وكان من بينهم عبد الحميد المغربي الذي قال لهم:

- هل هذا صاروخ موجّه؟

- نعم .. هل عندك صيد ثمين؟

- نعم توجد دبابة خلف مسجد عَمرِو بنِ العاص، ولكن نفدت عندنا المقذوفات.

- عندنا مقذوف تركه إخوة من فصيلٍ آخر.

شاركت ثلاثة فصائل في هذه القذيفة، التي حملها أحدهم، وتوجه نحو الدبابة، ومن خلف ساتر وجهها إليها عندما بدأت تتحرك، فتوقفت، فعاد الشاب إلى المجموعة.

كان وقت الظهر، فقرّر عبد الحميد المغربي الصلاة تحت شجرة الزيتون الكبيرة، نصحه بعض رفقاءه أن يدخلوا بيتاً، فأصرَّ وأقام الصلاة، فاصطفَّ خلفه المجاهدون من حماس والجهاد.

فرغوا من الصلاة، فأخذ عبد الحميد مصحفه من جيبه، وأخذ يقرأ القرآن ودموعه تبلل جفونه، تنهد قليلاً، ثم قال:

- كل واحد منكم يستعين على هذه الدبابة بالدعاء.

فجأة ظهرت الدبابة من بين الجدران، فصوّب حامل القاذف نحوها وقال: بسم الله؛ فانفجرت الدبابة، وتطاير بعض تروس جنازيرها، وانطلقت التكبيرات من كلِّ حنجرةٍ، وسجد بعضهم، ورفع الآخرون أيديهم بالشكر والثناء لرب الأرض والسماء.

وكانت المفاجأة أن انطلقت التكبيرات من بقية البيوت، كان ظنُّ المجاهدين أنهم وحدهم في المنطقة، ولم يدركوا أن البيوت مسكونة إلاّ بعد سماع أصوات التكبيرات من كلِّ بيت.

وصل شابٌ من الجهاد، بقي في بندقيته رصاصتان، قال وهو غاضب:

- لن أرجع للخلف ومعي رصاصتان.

ثم أطلقهما في اتجاه العدو، وفجأة صوبت دبابة وصلت المنطقة قذيفتها إلى مصدر الرصاص، وتهدمت البيوت.

***

وصل الناجون من منطقة خزاعة والزنة إلى منطقة الغوافير، حيثُ الْتحقوا بمجموعةٍ صغيرةٍ من القسَّامِيِّين ومجاهدي الجهاد، كانوا يقفون تحت شجرة كينيا عملاقة في عزلة تامة، كأنهم محاصرون، كان لديهم من الأسلحة الكثير، سلّموا على الجميع، وقبل أن يجلسوا سألهم الشهيد أحمد معمر من الجهاد الإسلامي:

- هل معكم هاونات؟

- نعم: معنا.

- هيا نعمل إحداثيات على مجموعة الآليات التي تقف خلف هذه التلال الرملية الصناعية؛ حتى نمنعهم من التقدم نحونا.

قام أحمد معمر بعمل الإحداثية، وأطلق ستة قذائف هاون عيار "ستين، وثمانين"، وأثناء القصف سقطت قذيفة زنانة على شجرة الكينيا، فضحَّت الشجرة بأحد أذرعها الكبيرة دفاعاً عن الذين يقفون في ظلها.

- الآن ننسحب بعد أن أفرغنا قذائفنا كلّها.

بعد ثلاثة أيام من الحصار، تحركت أقدام الشباب نحو البيوت، فركبت السماءَ فوقهم ثلاثُ زنانات، وأطلقت ثلاثة صواريخ في وقتٍ واحدٍ من مساحات متباعدة، أصيب عبد الحميد المغربي، وحسام القرا، ومحمد القرا، وصدام أبو عاصي، وفي اليوم التالي قضى شهداءَ خمسةٌ من رجال القسام أثناء محاولتهم فكّ الحصار المفروض من اليهود في المنطقة.

كان الناس يرقبون ما يجري على حدود غزة الشرقية بتخوُّف كبير؛ خشية أن ينجح العدو بدخول المدن في القطاع، وقد صمدت المقاومة لأحد عشر يوماً، كان هذا يعني مذبحةً للشعب كلّه، فكلُّه مقاوم، بكلِّ صور المقاومة، وكانت القيادة

السياسية والعسكرية تضع يدها على نبض الشارع، وكانت مؤمنةً بأن دخول العدوِّ مدينة غزة سيكون فيه مذبحته هو، ومذبحة دباباته، وأسرُ جنوده.

هنا خرج الناطق باسم كتائب القسام يقول لهم: تنتظركم ربع مليون قنبلة يدوية، وألف استشهاديّ.

كانت جهات عربية ودولية تطالب المقاومة بقبول المبادرة المصرية دون شروط، ولم يستجب لشروطها أحد، وذهب رئيس مشروع التعاون الفلسطيني مع العدوِّ إلى تركيا .. لعلَّ وعسى. ولكنه انقلب مُكِبّاً على وجهه بخفي حُنَين.

كان هناك نفقٌ آخر على موعد مع الجهاد في اليوم الحادي عشر للحرب، ليس بعيداً عن نفق القرارة الكبير، قد تَمَّ تجهيز فتحة دخوله من أحد البيوت في منطقة "الغوافير"، وهي مربَّع حدوديٌّ يقطنه آل عبد الغفور، بدأ عددٌ من المجاهدين يسارعون للمشاركة في عمليات هذا النفق، حيثُ كان من السهل الدخول إليه من البيت، والخروج من فتحة بين أشجار الصبَّار "التين الشوكي" العريضة والكثيفة داخل الأراضي المحتلة.

تحرَّكت قوات الاحتلال المشاركة في العملية البرية الواسعة التي امتدَّت من بيت حانون في الشمال، وحتى رفح في

الجنوب، وصلت هذه القوات منطقة القرارة يوم الخميس، اليوم الحاديَ عشرَ للحرب؛ حيث قرَّر العدوُّ اجتياح قطاع غزة تحت مُسَمَّى الحرب البرية، وكان هدفه المعلن "نزعَ سلاح المقاومة"، وهذا يعني دخولَ كلِّ بيتٍ؛ لنزع السلاح؛ وقَتلَ حامليه، إنها ليست عملية "قص العشب" – كما يسميها العدو-، ولكنها عملية خلع الأشجار المعمرة، بتاريخها وحضارتها، وصمودها وعنفوانها، لكن العدو يعلم أنه لا يستطيع ذلك، وهيهات أن يكون له ذلك، لكنه الضعف الذي يُغَلِّفُهُ غرور القوة!

كانت مجموعةٌ أخرى في منطقة القرارة شمال خانيونس قد اجتمعت قبل يومين، وهي مكونةٌ من أربعةَ عشرَ فرداً من صفوة المقاتلين في وحدة النخبة، ظلُّوا في داخل بيتٍ على مقربةٍ من الأرض الفضاء الفاصلة بين المدينة والحدود مع العدوّ، انتظروا حتى الجمعة، وقد نزلوا في لحظة غياب للطيران إلى نفق الغوافير.

وقف القائد أبو أحمد يتفقّدُ الجميع في ضوء النفق الواضح، ثم قال:

- عَدَدُنا أربعةَ عشرَ، وهذا كثير، نريد أن يبقى أربعة إخوةٍ حول فتحة النفق؛ للتعامل مع أيِّ طارئ، فقد بدأت إشاراتٌ غير محددةٍ عن مصاعبَ في نفق القرارة الكبير.

لم يخرج أحد، وأخذ كلٌّ واحدٍ منهم يُخفي وجهه عن القائد، وكان عليه أن يختار منهم أربعة، فوقف الأربعة يبكون بصوتٍ مسموع، وهم يبتعدون، ويرتفعون إلى سطح الأرض مرةً أخرى، وعادوا إلى فتحة النفق في البيت، سمعاً وطاعةً، وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألاّ يكونوا من المقاتلين من مسافة صفر.

كان الجميع قد أخذ ما في البيت الذي تركه أصحابه للمجاهدين من ماء، فجمعوا خمسة جالونات كبيرة، يتسع كلٌّ واحدٍ لعشرين لتراً، وجمعوا ما يكفي من الطعام والشراب مدة شهرين، وقد تأكّدوا من تفاصيل مصيبة النفق الكبير.

قام القائد أبو سليم، وهو شابٌّ أسمرُ البشرة، أسودُ الشعر، قامته فارعة، قام بعمل جدول مهامٍّ الطعام؛ حسب ما في أيديهم من تمرٍ، وعجوةٍ، وحلاوةٍ طحينية، ومربًّى، وعلب فولٍ محفوظة، وزعترٍ، وزيتون، إضافةً إلى إعطاء كلِّ مجاهدٍ ثلاثَ تمرات للفطور، ومثلها للسحور، ونصفَ لتر ماءٍ يومياً.

كانت رطوبة النفق كبيرة، تُصعِّب عملية التنفس، وتقلّل من كفاءة الجسد، كان المصير المجهول يهدّدهم، وكان الجهد المبذول في الحفر داخل النفق قاسياً، ولقد كان حمل الأكياس المتعفنة مزعجاً، فاستخدموا الزعتر مضغاً؛ للتخلص من الروائح الكريهة.

استكمل المجاهدون حفرهم في يومين، في طرف النفق الشرقي، ووصلوا إلى منطقة بالقرب من موقع عسكري، خرج اثنان من الاستشهاديين، أبو سليم، والزاهد، هكذا اختاروا اسميهما في هذه المهمة، وكان معهما جهاز فحص الغاز، تقدَّم أحدهما وابتعد، ثم خرج الاثنان، وفجأةً هوى صاروخ طائرة فدمَّر البيت المجاور للبيت الذي أقاما فيه، فوقع الركام على فتحة مدخل النفق، فأغلقه، كما حدث في نفق القرارة الكبير، الذي لا يزال يحتجز المجاهدين حتى ذلك اليوم.

هنا فقد الأبطال فرصة الخروج من العين التي دخلوا منها، حيث تم إغلاق ثلاثة عيونٍ في أيام الحرب، ولم يَبْقَ سوى عينٍ واحدةٍ، وكان عليهم أن يحفروا ستين متراً أخرى.

استطاع المجاهدون الحفر حتى وصل النفق تحت بيتٍ بالقرب من الحدود، كان أبو سليم يناوب الجميع في الحفر من يوم دخولهم، وحتى فجر اليوم الرابع والعشرين للحرب، حين وصلوا تحت البيت في عين تَمَّ إخفاؤها مسبقاً، خرج الزاهد برأسه خارج النفق، ونظر فرأى ناقلة جندٍ محملةً عن آخرها، وصلت لِتوِّها، وكان الغبار يغطيها، بسبب التربة الطينية، وبسبب سرعتها.

رجع الزاهد مسرعاً يخبر قائده، فقرَّروا في اليوم الأول من آب فتح العين إلى الخارج، وكان ذلك بالاتصال السلكي مع

الأربعة الذين بَقُوا خارج النفق، حيثُ أصبحت أصوات المجنزرات مسموعةً لمن هم تحت الأرض، كانت العين مموَّهةً بشجرٍ وأسلاك، وضع أبو سليم عبوة ضخمة بالقرب من ناقلة الجند، ونزل إلى النفق، وحاول تفجيرها فلم تنفجر، فأسرع الزاهد بدون إذن مسبَّقٍ بتسلق فتحة النفق، وقام بتبديل شاحن البطارية، وشاء الله أن يتجمع في هذه الفترة عددٌ كبيرٌ من الجنود، نزل مسرعاً، وقام بتفجير العبوة فانفجرت، كزلزالٍ رَدَمَ الرمل فوقهم، واحترقت الناقلة، واحترقت دبابتان مجاورتان لها.

استمرَّ اشتعال النار في المكان لعدة ساعات، حيثُ ابتعد الجنود الناجون، وتركوا كلَّ شيءٍ خلفهم لمصيره "نفسي .. نفسي"، فإنك تحسبهم جميعاً وقلوبهم شَتَّى !

اتَّصل أبو سليم بالأربعة، وقد انضمَّ إليهم قائد الكتيبة، وعلموا أن الإعلامَ الحربيَّ المعادي قد اعترف بمقتل أربعة فقط، والحقيقة أن القتلى كانوا أضعافاً مضاعفة.

وسط هذه الانفجارات، والاهتزازات الأرضية، وتَصدُّعِ معظم جدران النفق وسَقْفِه، وقد ضربت الطائرات الكبيرة المنطقة بالقنابل الثقيلة، فانقطع تواصل القائد أبي سليم مع

الخارج، ودُفنت الأسلاك، وانقطع بعضها، واستمرّوا على هذا الحال تسعةَ أيام، لكنَّهم حقّقوا الغاية بتدمير ناقلة جند، ودبابتين، واعترف العدو بأربعة قتلى، وهي أرقام أقلُّ من الحقيقة بكثير، كعادة كلِّ الجيوش في المعارك؛ لتحافظ على الروح المعنوية للجنود والشعوب، والشركاء والأصدقاء، وحتى لا يشمت بهم الأعداء.

أمضى المجاهدون تسعة أيام في هذا النفق، والماء وفير، والتمر بزيادة، وكذلك الزيتون والعسل والزعتر.

في فجر هذا اليوم، وبعد صلاة الفجر، كما كان يصليها إخوانهم في نفس الوقت في النفق الكبير، همس بشير في أذن القائد أبي سليم، فابتسم القائد، وأشار له بيده، فأسرع مبتعداً في شرق النفق، حتى اختفى عن أضواء المصابيح المعلقة في رأس القائد، وسط دهشة المقاومين، وابتسامة الأمل التي رسمها القائد على ثغره المضيء.

كشفت الأيام ما خَبَّأته المقاومة للعدوان على قطاع غزة، المنطقة المنيعة والصامدة - بفضل الله وعونه- رغم صغر حجمها، منيعة وصامدة رغم الحصار؛ كعذراءَ أغلقت على نفسها الباب، وتوضأت، وصلّت، ودعتِ الله أن يصون عِرْضَها،

ويحفظ شرفها، وظنَّ دُعّار الأرض، ولصوص العصر، أنها غافلة.

فلما كسروا عليها الباب وجدوا سيفاً في يدها بتاراً، بحثوا عن ركن آخر؛ ليدخلوا عليها خِدرَها، ثم يقولوا فعلنا، وفعلنا، فيصدِّقَهم العالم المتغافل، العالم الذي لا يملك إلاّ أن يصدِّقَهم، فَهُمُ المال، والسلاح، ومجلس الأمن الدوليّ، وحقوق الإنسان، والعملاء يَصطَفُّونَ على أبوابهم طوابيرَ طويلةً تلُفُّ محيط الكرة الأرضية، على باب بيتٍ أبيض، كلُّ ما بداخله أسود!

قالوا: فشلنا في الدخول للشجاعية، وبيت حانون، ومن البحر، وغيرِها؛ فلندخلْ غزة من المنطقة الواسعة، من خاصرة المنطقة؛ فنضربَها في بطنها، ونحقِّقَ انتصاراً، فكانت الخارطة المعروضة أمام قادة الجيش المرتبك هي خزاعةَ، وعبسانَ، والزنةَ، وبني سهيلا، والعمور، والفراحين، وأبا طعمية، هذه المناطق مترامية الأطراف، حدودها مع رفح عريضة، بعمق اْثنَيْ عشرَ كيلو متراً، وعند انتهاء حدودها في القرارة تصبح ثلثي هذه المساحة.

كانت هذه المنطقة الواسعة قبل العدوان الأخير ساحة عمل المقاومين؛ حيث حفروا فيها عدّة أنفاق، وصلت إلى

الشرق، لا أحدَ يعرف من الأعداء؛ هل جاوزت الأسلاكَ الفاصلةَ، أم بقيت في حدود قطاع غزة؟!

كانت موجة الأمطار الغزيرة في الشتاء الأخير قد كشفت للعدو عن فتحتين لنفقين في منطقة الزنة، وعندها قذف الله الرعب في قلوب المحتلين، وهم لم يكتشفوا شيئاً غيرهما رغم الحفر العميق المستمر، فكم عدد الأنفاق التي لم تُكتشف؟!، إن كلَّ نفقٍ يعني خطفَ جنود، كم من الجنود سيختطف؟! إنه الكابوس الذي يطارد كلَّ لصٍّ في فلسطين المحتلة!

وقد سُمِّيت منطقة الزنة بهذا الاسم نسبة إلى غِنى هذه المنطقة بحجر الزناوي، الذي كان يُستخرج قديماً، ويستخدم في صناعة أحجار الرحاة لطحن الدقيق؛ لعل رجال الزنة اليوم يضعون المحتلين بين فكي الزنة؛ لطحنهم كما تُطْحَنُ الحبوب!

كان أصبع القائد المرتعش قد أشار إلى منطقة الزنة على الخريطة، كتب عليها المحور الأول، في محور القرارة، وخانيونس، والمحور الثاني خزاعة، والفخاري، والعمور:

- لنبدأ بالزنة، وقد اعتمدنا الاقتحام في يوم الدخول البريِّ العظيم الذي ستقهر به إسرائيل حماس، وتُبيد رجال المقاومة، وتُعيد أصدقاءَنا إلى غزة.

كان غسان عليان في الوقت نفسه يتحرّك مرعوباً نحو الشجاعية، وكان "قائد الجبهة الجنوبية" يقود الجيشَ العظيم، الأعدادَ الكبيرة، والأرتالَ من دبابات الميركفاه (4)، الوحشِ الكاسر، كان اليومُ الحاديَ عشرَ من أيام الحرب في شهر تموز شديدَ الحرارة، والغبار، غزير الدم، والعرق كذلك:

- سندخل هذه المنطقة منتصرين، منطقةَ الزنة، منطقةَ الأنفاق، قالها القائد الذي يشعر بصوت أحشائه، وهو يمنِّي نفسه بانتصارٍ؛ حتى يمتاز عن قائد لواء غزة، وغيره.

وتقدَّمت الدبابات، وفوقها الطائرات بكلِّ أنواعها، وظنَّ العدوُّ أن الأمور تسير على ما يرام، فهذه اشتباكات خفيفة، والدبابات تتقدم.

كان المجاهدون يراقبون ما يجري أمامهم، تغمرهم السعادة، فقد تجاوز العدو فتحاتِ الأنفاق الشرقية، وهنا يمكن للمجاهدين أن يأتوا عدوَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، كان الإمام وهو يجمع صلاة الظهر والعصر قد تحدث بموعظة قصيرة مذكراً بالآية الخالـدة:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قام الجنود بعد أن تناولوا وجبةً من الدجاج الساخن، وشربوا بعضاً من المهدئات الكحولية، واطمأنُّوا، فقد دخلوا مسافة طويلة في مناطق العدو، وهاهم ينامون .. نومَ قرير العين.

كانت منطقة شرق خزاعةَ هي موقعَ القيادة الإسرائيلية، وتَمَّ إنزال شاحنةٍ من التمور عليها ملصق "من مصادر عربية"، وكانت المجندات وسط الجيوش للمهمَّات والحاجات المختلفة.

وفي الصباح الهانئ الهادئ الممتع، كانت دبابة قد استقرَّت بجوار سور بيت من البيوت الفاخرة، فجأةً خرج مجاهدان من عينٍ خلف الدبابة، ووضع كلُّ واحدٍ منهما عبوة شواظ وعادا بهدوء، وما هي إلا لحظات حتى انفجرت الدبابة.

تبدَّلت المشاعر، وساد الخوف الذي لازم هؤلاء القومَ منذ تمرَّدوا على أنبيائهم، وقتلوهم بغير حَقّ، انفجرت الدبابة، ولم يُشاهَد أحدٌ في المكان، من أين جاؤوا؟ وكم عددهم؟ وأين اختَفَوا ؟!

انسحب الجيش بعيداً عن البيوت، ونأى عن العقاب الرَّباني المسمى منطقة الزنة، زَنَّت أصوات الدبابة المتفجرة في رؤوسهم، كما زنَّت ذبابة النمرود في رأسه، فحوّلت حياته

جحيماً، فهل ستذهب بُعمر المعتدين، كما ذهبت بحياة النمرود، وما هي من الظالمين ببعيد !

لم يتحرَّك أحد من المجاهدين، تركوا لصوت الدبابة المتفجرة، والأجسام المحترقة داخلها، أن تعمل عملها في نفوس الغزاة ليومٍ طويل، فانسحبوا بعيداً للشرق، فَرَدُوا أمامهم الخرائط والصور، وقاموا بالاتصال بكلِّ من يساعد، وقَرَّروا أن يكون يومُ السبت غداً يوم الهجوم الكبير على "الزنة"، يوم السبت الذي احتالوا فيه على دينهم، واصطادوا فيه الحيتان، واليوم يستبشرون بصيد أسُود المقاومة في البرّ، هذه حرب مقدَّسة، يجب أن تكون هكذا، هكذا يريدونها، وإلاّ فالخسارة أعظم !

تحَّركت دباباتهم في الصباح، وتحت قصف طائراتهم التي تدكُّ كلَّ شيءٍ يقف منتصباً، من الأسوار والبيوت، والأشجار والمآذن، حتى إذا اقتربوا من المجاهدين هاجمهم الرجال من ثماني نقاط اشتباك، كانت تأتيهم من المجهول غيرِ المرئي، ينقلبون، ثم يُعيدون الهجوم، لا يتقدَّمون إلا أمتاراً حتى ينقلبوا راجعين !

أقبل مساءُ هذا اليوم المشمس، وفي يوم السبت التالي له؛ أمطروا المنطقة السكنية بآلاف المنشورات من الجوِّ، تطالب السكان بالهروب، وقَرَّروا دخولها يوم الأحد، تركهم المقاومون يخوضون حرب البيوت من بيتٍ إلى بيت، فسالت دماء الجيش

على كثيرٍ من عتبات البيوت، وعلى الجدران، والطائرات المروحية قد كَلّت ذهاباً وإياباً من مستشفى بئر السبع وإليه.

جلس أبو سالم قائد إحدى السَّرِيَّتين اللتينِ تدافعانِ عن الزنة، وقد أمر إخوانه بالرجوع إلى مدينة بني سهيلا؛ لجرِّ الجيش إلى مواقعَ جديدةٍ على مشارف المدينة، فقد كان المساء على العدوِّ دامياً .. مؤلماً .. ثقيلاً، كانت العبوات ضدَّ الأفراد قد انفجرت في العديد من الجنود، فجاؤوا بقوةٍ خاصة، كان شعارها "كديما" أي: تقدَّموا، كانت المواجهات أشدّ، فما أَنْ يظهر جنديٌّ حتى يتمَّ تفجيره من بُعد أمتار.

كان الجميع على موعدٍ مع صباح الأحد، وقد مهَّد له العدوُّ بقصفٍ كثيفٍ على كلِّ شيء، واحتلَّ بيتين؛ لتأمين وصول الدبابات، وتركهما أبو سالم، ليكونا مقبرة الأحد، كان اقتراب العدوِّ من البيوت ضرورةً للمقاومين، فقد توقَّف قصف الطائرات، وتوقَّف قصف المدافع الثقيلة البعيدة، وبقيت الفرصة هي المواجهةَ وجهاً لوجه.

في بيتٍ قريبٍ كان عبد الحميد المغربي، وهو مسؤول فصيل، شابٌّ جميلُ الوجه، أسودُ اللحية، حافظٌ للقرآن الكريم، صوته نديٌّ، وهو إمام لمسجد، حيثُ استضافته دولة ماليزيا؛ لقيام ليالي رمضان العامَ الماضي، وكان بجواره أحمد أبو سهمود "أبو أنس"، قد وزَّعا جنودهما على موقعين، فصيل "أبي

أنس" متقدِّمٌ، وخلفه في البيوت فصيل عبد الحميد الذي كان يقود هذه المعركة، كانوا قد فتحوا في جدران البيوت فتحاتٍ تمكّنهم من الانتقال من غرفةٍ إلى أخرى بسرعة وأمان، تَمَّ مهاجمة الدبابات، وناقلاتِ الجند، والمجنزرات، فاستسلمت، وتسربلت بدماء الجنود حديدها وجنازيرها، وأخيراً حُسمت المواجهة، فوقف عبد الحميد فوق دبابة، وقال لإخوانه مازحاً:

- أين تريدون أن نعمل لها "البنشر"؟ أم أقلبها على جنبها؟، اختاروا!

وضع عبوة على فوهة الدبابة، ونزل ولم تنفجر، فظهر خلف الأخرى يحمل ثانية، وهو يصيح:

- لا تغضبوا هذه ثانية.

انفجرت الدبابة الثانية، وبدأ دخانها يتصاعد، ولحقت بها دبابتان تتنافسان؛ أيهما يزفر ناراً ودخاناً أكثر.

استمرَّت معركة التصفية الجسدية حتى عصر ذلك اليوم، نجا أحمد بعد حسم المعركة، وذهب إلى بيتٍ كان فيه ثمانية وعشرون رجلاً وامرأة على مائدة الإفطار ينتظرون الغروب، تَمَّ استهدافه، وجُرح وهو واقف يصيح في إخوانه من النافذة:

- أكملوا.. أكملوا .. أجهِزوا عليهم، الجنة أمامكم، والله هو القاهر فوق عباده.

كان الدم يتدفق من جسده، وبندقيته لم تنحنِ وهو يطلق، ويصيح:

- أين تريدونها في رأسه؟ أم في جسده،؟ أَكْمِلوا! الجنة أمامكم، والنصر بين أيديكم، لا تحزنوا عليّ، فاللقاء قريب في جناتٍ ونَهَر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

وبينما كانت دماء عبد الحميد المغربي، وأحمد أبو سهمود تُضَخُّ في شرايين الزنة؛ لتصل إلى القلوب في القدس، كان الجنود الصهاينة يهربون شرقاً بدون ترتيبٍ أو نظام، اهرب وانجُ بنفسك إلى المناطق الخالية شرقاً.

وما أن حان وقت صلاة المغرب حتى فاضت روح أحمد أبو سهمود، الذي حرص دائماً ألا يصليَ إلا بوضوءٍ جديد، وكما غابت شمس الأحد، غادرت روح الشهداء الأجساد إلى أعلى، أعلى من السماء، ومن القمر، في كوكبة من شهداء هذه المعركة الاثنى عشرَ فارساً !

صعدت روح الصائم، وفي يده تمرة وقت الإفطار لم يتناولْها، علّه رأى ما هو أفضل منها عند ربِّه، مثله كمثل الحباب بن المنذر يوم بدر، فقد طرح ما في يده من التمرات شوقاً للجنان.

وقف رجل كبير في الثامن عشر من تموز، حَطّتُهُ البيضاء على رأسه، وعقاله في يده، كان يسرع خلف الرُّكامات المتعددة، لبيوت كانت قائمة، وقد جعل بين الركام وبين الشرق ساتراً، توقّف عند أحد البيوت، فوجد سيدةً عجوزاً منبطحة، وقد أدخلت رأسها وذراعها الأيمن تحت سقف بيتٍ منهار، تجاهد نفسها في سحب شيء ما .. تعمد السُّعال، ثم قال بصوتٍ خافت:

- خير يا حجة .. لماذا أنت هنا؟ عمَّ تبحثين؟

نجحت السيدة العجوز في إخراج رأسها وذراعها، واعتدلت على ركبتيها، ولم تُخفِ دموعها وآلامها، كان في يدها قطّة صغيرة، وبعد القطة خرجت صيصان دجاجة كانت السيدة تربيها.

- يا حجة تخاطرين بحياتك من أجل ..

قاطعته السيدة العجوز:

- هذه أرواح بريئة.

صمت الرجل قليلاً، ثم همس:

- تحتاجين مساعدة ؟

- شكراً؛ الله يسهّلُ عليك، أنا سأبقى بجوار بيتي، زوجي مدفون هنا، عشنا عمرنا الطويل فيه، ولا يصحُّ أن أتركه ..

فجأة سقطت قذيفة وأخرى على البيوت المجاورة؛ فانهارت، وغطّى الدخان كلَّ شيء، وما عاد أحد يرى شيئاً.

ترجع تسمية قرية خزاعة إلى قبيلة "بني خزاعة" التي انضمّت في حِلْفٍ مع الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم- يوم صلح الحديبية، فنقض بنو بكر أحلاف قريش ذلك الصلح، واعتدوا عليها، فكان أن نصرهم سيدُنا محمدٌ – عليه الصلاة والسلام-؛ ففتحُ مكة، فكان لهم فضل انتشار الدولة الإسلامية.

وقيل: إن أصل التسمية يعود لرجلٍ يُدعى "خُزاع" أو "إخزاع"، وكان تاجراً من الجزيرة العربية، واتَّخذها استراحةً في سفره، ثم استقرَّ بها، فَسُمِّيَت باسمه.

وخزاعة نموذج عصري للقرية الزراعية، فهي تبعد عن مدينة خانيونس ستة كيلو مترات إلى الشرق، يحدُّها من الشمال والشرق خط الهدنة عام 1948م، ومن الجنوب الشرقي أرض النقب المحتل، ويحدُّها من الغرب قرية عبسان الكبيرة، ومن الجنوب الغربي منطقة الفخاري وأبي طعيمة.

تبلغ مساحتها (8500) دونم، فقدت منهم (2500) دونمٍ عام 1948م، وبقيت تحت الاحتلال، ويسكن هذه القرية عائلات

عريقة وكبيرة، مثل "آل النجار، وأبي ريدة، وآل قديح التي يتفرع منها آل أبي رجيلة، وآل أبي روك، وآل رضوان، وآل علي، وآل القرا"، وغيرهم من العوائل الكريمة.

قريبٌ من نصف عدد السكان متعلم، حوالي (4000) من أصل (8000) نسمة، وككلِّ القرى والمدن الأخرى فقد دفعت هذه القرية ثَمَنَ بطولاتها، وتصدِّيها للعدوان الصهيوني عام 1947م، وعام 1948م، وعام 1949م، وعام 1956م، وعام 1967م، وكانت فيها مذبحة 8 مارس 2002م.

لقد أثرَت خزاعة المجتمعَ الفلسطينيَّ بأخيار أبنائها في مجالات العلوم، منهم من بقي بغزة، ومنهم من ذهب إلى بقاع الدنيا، فبسط الله له الرزق، ودعم صمود ذوي القربى والأرحام، وربما فاض على المساكين والأيتام!

لم يستطع الجيش المقهور أن يُقِرَّ بالهزيمة في الزنَّة التي طحن رجالُها دباباتهِ، كما كانت تطحن نساؤها حبوب القمح في الرَّحى؛ فقرَّر تدمير خزاعة، لا يجب أن تبقى خزاعة، اسم القبيلة التي حالفت محمداً – صلى الله عليه وسلم- يجب مسحُها من الخارطة، وقتلُ كلِّ من يعيش فيها، فهذه ليست خزاعة، إن لها اسماً عبرياً مخزوناً في جيب كلِّ كذّابٍ في العالم.

كان يوم الثاني والعشرين من أيام تموز الحارة، وقتَ صلاة العشاء، موعداً لخزاعة مع القصف العنيف، ضَرَبَ كلَّ بيت، وكلَّ شارع، وكلَّ حارة، واستمرَّ التدمير حتى الأربعاء، ثم جاءت مكبِّرات الصوت من الدَّبابات والسيَّارات الكبيرة تأمر الناس أن يهربوا، كانت وسائل الإعلام العالمية قد بثَّت قبل أيام صُوَرَ لصوص فلسطين في النقب وهم يهربون خوفاً، ويهرولون هلعاً، فكان لابدَّ من معادلة المشهد بآخرَ مِثلِهِ، فهل تحقَّق لهم هذا الهدف؟!

كان يوم الأربعاء مؤلماً للقوات الكبيرة في خزاعة، فقد انفجرت آليةٌ كبيرةٌ محمَّلةٌ بالجنود، وقتل عدد من الراجلة في اشتباكات مباشرة من نقطة صفر.

كان ثلاثة مجاهدين، منهم المجاهد "تامر طبش" قد أطلقوا قذائفهم المضادة للدروع، على حاملة الجنود؛ فهرب الباقي، وابتعدوا خلف سواتر التراب الضخمة التي صنعتها آلياتهم؛ حتى يختبئوا خلفها، فأرسلوا كلباً، وعلَّقوا في عنقه آلة تصوير، فأصابته رصاصة، وبقي مشهد آلة التصوير مسلطاً على دم الكلب، وعلى رمال خزاعة !

تحرَّكت وحدةٌ مختارة من القوات الخاصة للعدوِّ؛ للالتفاف حول المقاومين، الذين لا يعرفون عددهم، ولا أماكنَ وجودهم، فقد جاؤوا مشياً على أرجلهم، ولم يرجع من الوحدة

المختارة أحد، فقد اختارهم الله في الشهداء، وهرب الجيش مرة أخرى.

وعادت دبَّابةٌ ضخمةٌ؛ لتهدم كلَّ شيء، كان المجاهدون قد نزلوا إلى طابقٍ أرضيّ في "بدروم" العمارة التي وقفت الدبابة فوق ركامها، صاح جنديٌّ من اللصوص يتحدَّث العربية، وهو من الدروز:

- إذا كان هناك رجل فليخرج لي.

فردَّ عليه "تامر طبش" من حيثُ لا يعرف الجنديُّ المعتدي:

- نحن رجال، ولكن إذا كنت رجلاً انزلْ لي من الدبَّابة، قابلني على الشارع.

- أنت اصعد لي.

كان الدرزيُّ الطامع في رتبة شجاع، حمارَ اليهود المطيع، يقف متجهاً للغرب، فجاءه تامر طبش من الخلف، وألقى عبوة كبيرة، واختفى، فانفجرت العبوة، وطار رأس الجندي، وطار معه ترس من تروس الدبابة التي اشتعلت فيها النيران، مات حمار اليهود، وتركته الدبابة خلفها وهربت!

جدَّدت الطائرات والدبَّابات البعيدة تدمير البيوت فوق رؤوس أصحابها، ووصل عدُد الشهداء حتى اليوم ثلاثين ومائة شهيدٍ من الرجال المسنين، والنساء، والأطفال.

دخل المجاهدون إلى مسجد عمرو بن العاص، وقد هدأت حدة الانفجارات لأداء بعض ركعات من تراويح شهر رمضان الفضيل، كان عدد المصلين لا يصل إلى أصابع اليدين، كان ثلاثة منهم من كتائب القسام، وشقيق أحدهم من حركة الجهاد الإسلامي، وشابٌّ آخر من المواطنين يدعى جهاد.

وعندما اشتدَّ القصف ثانية خرجوا وتجمعوا في بيت جهاد في التاسعة مساءً، أضيئت المنطقة بالطائرات بلون أزرق من لمبات الليزر الكبيرة للعدو، غطت مساحة ثلاثمائة مترٍ مربعٍ، في إشارة إلى وجود قوات يهودية خاصة، كانت تتقدم ببطء نحو البيوت، واستمرَّ الحال حتى الواحدة بعد منتصف الليل، والمقاومون يرقبون في صمتٍ تامٍّ، كان بصحبتهم حماد أبو لحية، المحرر من السجون الإسرائيلية، وعندما وصلت القوة المعادية إلى أحد البيوت، تحولت المنطقة الفضاء إلى نهارٍ بالأشعة الحمراء، كان البيت على بعد خمسين ومائة مترٍ من كمين المجاهدين، حتى وصل اليهود إلى مسافة خمسين متراً، انحرفوا فدخلوا بيت حمدان أبو هجرس، وكان في الدور الرابع لهذا البيت رجال المقاومة، وصل اليهود إلى الدور الثاني يصيحون:

- افتح الباب .. افتح.

تصدى اثنان من المجاهدين لمن وصل إلى الطابق الثاني، بينما نزل الباقون إلى الشارع من سُلَّمٍ خلفيّ.

كان عدد كبير من السكان المدنيين في قاع البيت "البدروم" يسمعون صراخ اليهود، عندما نزل المجاهدون من البيت، وخرجوا إلى الشارع، وأسلحتهم الثقيلة في أيديهم؛ تَمَّ تصفية الوحدة اليهودية التي كانت في البيت، بعدها سقطت القذائف من الطائرات على كلِّ شبر، فأصيب الأسير المحرر حماد أبو لحية، الذي خرج من السجن ليستأنف حمل السلاح، والدفاع عن قطعة محررة من فلسطين اسمها غزة.

وتمَّ ضرب المنزل، وأطلق المجاهدون النار على بقية الوحدة.

صاح شابٌّ من المجاهدين مشيراً بإصبعه إلى جهة يصدر منها صوت:

- هذا تكتك؟

وابتسم المجاهدون من حماس والجهاد، فقد ظهرت من خلف البيوت دبابة عملاقة، وتبعتها جرافة، أسقطت عمود الكهرباء بجوار مسجد عمرو بن العاص.

أسرع شابٌّ إلى أسفل بيت أبو هجرس يطلب منهم الخروج بسرعة، بينما حمل آخرون الجريح أبو لحية.

حاول ثالث أن يُفجِّر عبوة فلم تنفجر في الدبابة.

كان عدد المجاهدين عشرين في هذا المربع، كان في مقدمتهم "محمد سعيد فسيفس" قائد فصيل، التفَّ حوله في أحد البيوت خمسةٌ من المجاهدين، بقي معهم العتاد الشخصي، قنابل يدوية، ورشاشاتهم، بعد ساعاتٍ جاءت جرافات عملاقة؛ لِتَجُرَّ الدبابة المحترقة، ومعها قوة راجلة من اثنَيْ عشرَ جندياً، وعندما اقتربت ألقى محمد فسيفس بقذيفة في صحن الدبابة، ثم تفرَّقوا إلى مجموعتين، فتقدَّمت دبابةٌ أخرى، لا تعرف ماذا تفعل، ووقفت، عندها خرجت مجموعة "محمد فسيفس" فجأةً من البيت المهدوم، واشتبكوا مع الجنود الذين سقطوا سريعاً، صعد محمد فسيفس الذي عرفه إخوانه بكنية "أبي السعيد" إلى سطح بيتٍ مائلٍ، ثم إلى ظهر جرافة عملاقة، واتَّخذ منها ساتراً، وقتل عدداً ممن كانوا بداخلها، بينما بقي بعضهم داخلها يكتمون أنفاسهم!

لقد أكَّد المجاهدون لقيادتهم مقتل تسعةٍ من أصل اثْنَيْ عشرَ جندياً، بينما أعلن العدوُّ عن مقتل ثلاثة فقط !

غنم أبو السعيد وإخوانه أسلحةً وذخائرَ وقذائفَ، وَزَّعوها فوراً على الباقين، وبعدها وقف أبو السعيد تحت سقف بيت مهدوم، فجاءت قذيفة ضخمة طحنت المكان، وجعلت عاليّه سافلَه، فقضى أبو السعيد، ومعه إخوانه محمد فواز أبو إرجيلة،

ورامي أبو دقة، وبلال قديح، ورشاد النجار شهداء، ونجا الباقون بفضل الله ورعايته.

هدأت المعارك في خزاعة في اليوم التالي، وشُوهدت أتربة بعيدة. فخرج إليها من كان في الأنفاق، وأطلقوا قذائفهم فانفجرت مجنزرتان، وهنا فقدت المدافع الطويلة صوابها، وأطلقت من القذائف الضخمة ما أكمل عددها منذ الهجوم إلى (85) قذيفة، لم يعلن العدو إلا عن مقتل خمسة جنود، وإصابة عشرة!

ونجت خزاعة من دنس الأقدام الغريبة الذين قفلوا بعدها راجعين؛ ليبحثوا عن خاصرةٍ أخرى لعلهم ينقذون أحلامهم في دخول القطاع، ولو في أحد محاوره!

كان فجر هذا اليوم على موعد مع تهدئة لمدة خمس ساعات، جلست سيدةٌ عجوز في بيت أبي هجرس، وهي مصابة؛ فقد اعتقلها العدو في الليل، ثم تركها وهرب، همست السيدة في المستشفى للطبيب:

- كان هناك جندي يهودي مقتولاً، وكان جندي آخر يبكي، والله يا بُنَي: خوفاً أن يقتلوني أخذت أواسيه، وأبكي مثله.

ضحك الطبيب، وقال:

- أنا دكتور يا حاجة!

تقع منطقة أبي طعيمة جنوب غرب خزاعة مباشرة، تعيش التضاريس نفسها، كجاراتها من القرى، وتتداخل فيها العائلات، كان اثنا عشرَ مجاهداً قد تجمَّعوا في منطقة معزولة، وكانت مهمتهم نَصبَ الكمائن للعدو، وخاصةً ضد الذين شكّلوا محور الاعتداء على خزاعة، أو أرادوا الهروب من جحيمها.

ذهبت البقية الناجية من مذبحة اليهود في خزاعةَ إلى منطقة أبي طعيمة، وهم يعرفون أن سكانها أشداء، وأن نساءَها مربيات فاضلات لرجال المقاومة، منطقة يغلب عليها الطابع العائلي العربي الأصيل.

تقدَّم العدوُّ في الصباح الباكر نحو المنطقة في اليوم السابعَ عشرَ للحرب؛ ليحاصرها من كلِّ الجهات، من الشمال والشرق والجنوب، كانت الدبابات تسير بهدوء، هل كانت مطمئنة، هل كانت متعبة، هل كانت تنزف؟!، أم أنه الخوف والحذر، حتى لا يُفعل بها ما فُعل بأخواتها من قبل!!.

وقعت مقدِّمة الدبابات في كمينٍ محكم، كان الضباب والغبار كثيفاً، فقد خرج المجاهدون من الحفر الفردية التي أعدُّوها مسبَّقاً، وأطلقوا الصواريخ المضادَّةَ للدروع على الدبابات، وناقلات الجند، واشتعلت النيران، وتطايرتِ الجنازير،

وخمدت أصوات جنودٍ فيها، فَفَرَّتِ البقية للخلف مذعورةً، كأنَّ لعنةَ المنطقة الشرقية تلاحقهم هنا أيضاً!

وسط تكاثف الدخان والضباب الذي لا يزال يغطِّي المكان، أسرع اثنان من المجاهدين، قطعا مسافةَ ألفِ مترٍ تقريباً، جاءا من خلف دبَّابة، ووضع أحدهما عبوةً على ظهرها، بالقرب من فوهة كبيرة، ونزل، فجأة تحركت الدبابة فوقعت العبوة، فعاد مسرعاً، وكرَّرها مرتين، وفشلت المحاولة.

تعمد المجاهدون الثلاثة أن يَظْهَرُوا لِلَحظاتٍ أمام العدو الذي يراقبهم وهم يَتَّجِهون إلى مقرِّهم في منطقة أبي طعيمة، فلحقت بهم الآلية التي نجت ثلاث مرات، ساقها قدرها إلى مصيرها، فاستقبلتها قذيفة "تاندوم" من الشاب نفسه الذي لم يحالفه الحظ في المحاولات الثلاثة الأولى، وانفجرت، وطار برجها، وطار معه رأس كلِّ جنديٍّ كان تحته، فقد انفصل البرج عن جسم الوحش الحديدي!

وهربت بقية القوات إلى الشرق، وتركوا الضحية تشتعل، واختبؤوا خلف الحدود يتوسلون الإله "يهوه" أن يخرجهم من كربهم؛ لعله يسمع، أو لعله هرب مع من هربوا!!

شهدت المنطقة هدوءاً غيرَ عاديّ، فخرج الناس لبعض شأنهم، كانت سيدةٌ عجوزٌ تمسك بعكازها، وحولها ثلاثة من الصبية، يجلسون على الأرض التي ضاعت معالمها، بالقرب من

بيوتٍ فخمةٍ مدمرة، أفلح الصبي الكبير أن يهيئ لجدته حجراً مناسباً، ليس فيه نتوءات بارزة، سنّد الصبي جدّته، حتى جلست، وجلس الثلاثة حولها على الأرض.

مَرَّتِ الدقائق ثقيلة، والجدة ترسم على الأرض خطوطاً بعكازها المقطوع من شجر اللوز، قال أكبرهم، وقد بلغ من العمر اثْنَيْ عشَر عاماً:

- لماذا هدموا البيوت هذه يا جدّتي، هذه بيوت كبيرة، وأصحابها في الخارج، لم يشاركوا في الحرب؟!

- هم يا جدّتي مشروع هدم، يقولون: إن المجاهدين كانوا هنا، وهذه حججهم، وليس من العيب أن تهدم البيوت، هذا شرف لأصحابها، ولنا، نحن نبني ونرتفع، وأعداؤنا يحفرون ويَدفِنون، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون، المهم أن تَشُدُّوا حِيلَكم، وتُقَوُّوا عزيمتكم، وتنتقموا لأبيكم.

قال صبيٌّ في العاشرة:

- وعدني جدّي - رحمه الله- أن يقصَّ علينا قصة اليهود في فلسطين، ومات ولم يخبرنا.

أنا سأقول لكم:

- كنتم صغاراً، والآن بعد الذي رأيتموه من اليهود سأخبركم القصة، وكيف استُشهِدَ جَدُّكم، وعَمُّكم، وغيرُهم .. كانت هذه الأرض البعيدة التي تَرَوْنها أمامكم خلف الأسلاك ملكاً

لجدِّكم وإخوانه، ورثها عن أجداده، وفي سنة 1948م جاء اليهود، وطردونا من أكثرَ من نصفها، ضاعت أرضنا، وقتلوا أخاً لجَدِّك وأولادَه، وفي البيت إن شاء الله أُكْمِلُ لكم بقية القصة.

كانت الهزيمة في الزنة قاسية، وكان فَكُّ الرحى بين الزنة وخزاعة صلباً وقاسياً، وكان الضغط كبيراً، لم تحتمله آليَّات العدوّ، فلم تصمد، كما لم تصمد حبَّات القمح في طاحونة أهل الزنة، وراكمت الهزائم في المناطق الأخرى التي تواصلت تقاريرها الباكية، كما تصل أجساد جنودها النازفة إلى القيادة في تلِّ أبيب والقدس، فقرَّروا - ككلِّ جبان- أن ينتقموا من البيوت بمن فيها، فكثَّفوا من تدمير كلِّ بناء، واستمرَّ قصف الطائرات، والمدافع الكبيرة لعشرة أيام، حتى هدموا قريباً من ثلثي خزاعةَ المدينةِ الباسلة، ولم يتركوا فيها شيئاً يتنفَّس، فقد هجرها أهلها إلى الغرب نحو مدينة خانيونس.

تواترت معلوماتٌ من وحدة الرصد في وسط قطاع غزة أن أعداداً كبيرةً من الآليات تمرُّ شرقاً في طريقها إلى الجنوب، باحثةً عن خاصرةٍ ضعيفة؛ تَتفُذُ منها إلى أيِّ حيٍّ من جنوب قطاع غزة، فقد باتت حدوده كسور الصين العظيم، حصينٍ منيع، وقد فشلت محاولات العدوِّ الدخولَ من البحر، وفشلت

قواته في الهجومِ البريّ على الزيتون والشُّجاعية، وطارت الأبابيل فوقهم، وانطلقت الصواريخ من فوق رؤوسهم، فكان لابدَّ من إيجاد عملية استعراضية في المنطقة الوسطى؛ لرفع المعنويات المدمَّرة، وإيقاف اضطراب الأمعاء التي أسهلت، والأجواف التي تقيَّأت، لقوات الجيش الذي زعموا أنه لا يُقهر، جيشِ الحروب الزائفة، حتى جاء وقت الحروب الحقيقية، مع جنود من طرازٍ أصيل، كالطير الأبابيل.

وصل المجاهدون التسعة إلى سور سميك من الأسلاك القوية المحيطة بالموقع، فقام احمد سعده بقص الاسلاك، وعمل فتحة مناسبة دخل منها الجميع.

صدرت الأوامر الميدانية إلى تسعة مقاومين للتصدِّي لأرتال الآليات، فقد بدأت تتحرك من الشمال إلى الجنوب، نزل الرجال إلى نفق قريب من الموقع، وخرجوا من فتحته وتوزع المقاومون إلى ثلاث مجموعات، كلٌّ واحدةٍ من ثلاثة، في منطقة يعرفونها باسم "أبي مطيبق"، مكث الرجال ينتظرون لستِّ ساعات، ولم تظهر آلية واحدة في مرمى القذائف.

- ما رأيكم أن نهاجم المستوطناتِ القريبةَ منّا خلف الحدود؟

- نستطيع، ولكن نريد جنودهم، هنا نريد أن نعجن لحومهم ودماءهم في هذه الأرض؛ لتكون سماداً لمزروعاتنا، اصبروا، وادعوا الله أن يرزقكم صيداً ثميناً.

استمرَّ المرابطون تحت الأشجار ينتظرون، حتى جاءت اللحظة المنتظرة، أربعُ سيارات جيب عسكرية كبيرة في دورية استطلاع قبل تحرك الآليات الثقيلة، خرجت من الموقع المرتفع ذي البرج المرتفع والمحصن بكل ادوات التحصين، سارت السيارات العسكرية وسط منطقة أشجار المنطقة العالية، سارت مطمئنة لانها لا تعرف ماذا ستدفع بعد لحظات من كرامة جيشها ودماء ضباطها وجنودها

كان المرابطون على بعد أمتارٍ من الطريق المرصوف استطاعت في لحظات وحدة الرصد أن ترى موكب سيارات العدو تأتي من الطريق الترابي فأسرعوا وغيروا موقعهم، وجاءت اللحظة الحاسمة، خرجت المجموعات تواجه السيارات، وأمطرتها بالغضب القادم من فوهات البنادق، واشتعلت النيران في السيارات الثلاثة؛ وتوقفت، بينما استدارت الرابعة هروباً كحمارٍ وحشيٍّ أمام أُسدِ الغابة، ولكن أين المفر؟! هنا فجرت وحدة التدمير كل غرف شبكات الرصد الحديدية الالكترونية

اشتعلت النيران في الأجساد، ووصل اثنان من كتائب القسام إلى سيارة، لم تتصاعد فيها النيران كثيراً، وأخذوا قطعتين من بنادق أمريكية الصنع M16، بينما بدأت بنادق الآخرين تتفجر وسط النيران التي أكلت الأجساد.

على الفور ظهرت الزنانات فوق المكان، وأخذت تطلق الصواريخ، استشهد أحد المجاهدين، بينما عاد الآخرون، وقد اختفت الطائرة فجأةً، عاد المجاهدون يسيرون بهدوء وطمأنينة فوق الأرض لم يتوقعها أحد، وقد حملوا معهم جُثَّةَ أخيهم الشهيد أحمد سعدة الذي طالته قذيفة من طائرة الاستطلاع، عادوا بقطعتين سلاح مدممتين رهينتين لضمير أمريكا التي صنعتهما، والتي لم تَظُنَّ يوماً أنها تؤسر، ها هي أسيرة في يد المقاومة!

وفي المساء قامت وحدة الإعلام المقاوم بنشر صورة المجاهدين في "أبي مطيبق" وهم يسيرون بهدوء وسكينة، وعندما وصلوا إلى قواعدهم سمعوا إعلام العدو يعلن عن مقتل ستة من جنوده في شرق المغازي، ابتسموا سخرياً؛ لأن الذي كان داخل الجيبات الثلاثة ليس ستةَ جنودٍ فقط؛ بل أكثر من ذلك وكان منهم الضابط عاموس رمبرم قائد لواء المدرعات رقم 188.

جلس "يوفال ديسكن" رئيس جهاز المخابرات الصهيوني السابق مع قائد المنطقة الجنوبية السابق، الذي لم يتورط في الهجوم على قطاع غزة مؤخراً، قال متألِّماً، وغاضباً:

- عملياتنا أشبه بتثبيت برغي في مكان غير مناسب، لقد برز في الجرف الصامد ضعفُنا في تقدير نِيَّاتِ العدو، حربنا لم تحقِّق أيَّاً من أهدافها، ستكون طويلةً ومُكْلِفةً، وغيرَ نوعية.

بلع ريقه الجافّ، وأكمل:

- من الواضح عدم قدرتنا على اتِّخاذ قرار، وعدم وجود قيادة إسرائيلية، ومن الواضح غياب الإبداع، وستدفع إسرائيل ثمناً باهظاً.

وفي المساء ظهر "يائير نافيه" نائب رئيس أركان الجيش المأزوم؛ ليقول:

- لا حديثَ عن التطلع لحسمِ معاركَ وبسرعة، ما حدث حتى الآن هو عكس ما استعدَّ له الجيش في السنوات الأخيرة.

جلست أم محمد مع طفلها تحت زاوية سطح البيت المهدَّم، الذي ناءت أعمدته عن حَمْلِه، استظلَّت به في عصر هذا اليوم، تحاول أن تأنس بوجودها في بيتها الذي عرفته بصعوبة، بينما كان يدور حولها رجال ونساء وأطفال يبحثون عن حدود بيوتهم، لقد اغتالت طائرات العدوِّ ذكرياتِهم مرةً واحدة، وهي المحفورة في ذاكرة الكبار والصغار، ولكنها ضاعت اليوم على الأرض، فجأةً ظهر الشباب القادمون من عملية أبي مطيبق، أقبلوا يمشون مطمئنين، بينما كانت ضربات قلب أُمِّ محمدٍ تزداد، ونظراتها إلى السماء تدلُّ على خشيتها من وجود زنَّانات

تقصفهم .. أقبل ثلاثةٌ منهم، ووقفوا أمام السيدة وابنِها الصبي، كانوا يضعون اللثام على وجوههم، جلس أحدهم على ركبتيه، ومدَّ بندقيةً كانت في يده غريبةَ الشكل، وقال:

- السلام عليكم أختي أم محمد.

- وعليكم السلام.

وضع الشاب البندقية على الأرض، وقال لمحمد:

- ضَعْ قدمك على هذه البندقية التي قتلت أباك الشهيد، لقد قتلنا اليوم مَنْ قتله، وسلاحه تحت قدمك، هذا المشهد يا عمِّي انتقام للشهداء، وهو يلخِّص القضية بيننا وبين الاحتلال.

كان الشابُّ يحدثُ نفسه، فهو يعرف أن الصبي لن يستوعب كلَّ كلامه، ولكنَّها كلماتٌ موجهة إلى زوجة الشهيد، جارتِهم المعلمة الفاضلة، صاحبة الجولات في المساجد وبيوت الأيتام.

مسحت أم محمد دمعتها مبتسمةً، ومَدَّت يدها فحملت البندقية، ووضعتها في يدي محمد، وساعدته في حملها، ثم أعطتها للشابِّ، وهمست:

- بارك الله فيكم، أخمدتم نار صدورنا.

كانت قيادة المقاومة قد بلورت مطالبها في اليوم الثانيَ عشَر للحرب، وأرسلتها للخارج، وكان رئيس السلطة المتعاون

مع العدوّ قد وصل من تركيا إلى قطر، وتسلّم المطالب؛ ليرسلها لشركائه في الأرض المسروقة.

كان الرئيس التركي قد شَنَّ هجوماً سياسياً مشابهاً، ومكملاً لهجوم المقاومة على أبي مطيبق، كانت كلماته عمليةَ إنزالٍ سياسيٍّ خلف خطوط السياسيين إيّاهم.

***

مضى اليومُ الثانيَ عشَر للحرب، وقد تفاخر العدوُّ بقتلِ أربعةٍ وتسعين ومائتي مواطنٍ فلسطينيٍّ، بينهم خمسة وستون طفلاً، وستٌّ وعشرون سيدة، وسبعةَ عشَر من المسنين، وإصابة مائةٍ وعشرين وألفَيْ بريءٍ، وواصلوا هدم البيوت والمدارس، والمساجد، والمصانع، في مشهد يذكِّر كلَّ صاحب بصيرةٍ بما فعله الألمان في مدينة لندن في الحرب العالمية الثانية من القرن الماضي، ظَنَّ وقتَها النازيُّونَ أنهم بهدم المدن ينتصرون، ولكنْ جاءت نهاية الحرب بهزيمتهم، وأن مقاييس النصر والهزيمة ليست بعدد الضحايا من الأبرياء، لكنها بإرادة التحدي !

أرسلت جهات الرصد المقاوم في هذا اليوم أن العدوَّ يقوم بعملية بَريةٍ محدودةٍ في شرق القطاع، في الشريط الحدوديِّ الطويل، وقد غطّى هذه العملية بقصفٍ مركّزٍ من البرِّ والبحر والجو، قال إنها عملية تستهدف الأنفاق.

كانت النفوس تَوَّاقةً لمواجهة العدو، وكانت القلوب تخفق شوقاً لِلقاءٍ مباشر، وجهاً لوجه، في مبارزةٍ مكشوفة، أمام العالم، لم ينتظرِ الجنود في منطقة الشجاعية المواجهة التي خَبَّأها لهم القدر في الغد، حينما قَرَّر العدوُّ دخولَ الشُّجاعية، فقد سبق هذا دخولُ قوةٍ من النخبة الفلسطينية إلى شرق خانيونس، والتي سَمَّاها العدو "مجمع صوفا العسكري"، اسمٌ لم يعرفه التاريخ، ولن تقبله الجغرافيا.

دخل رجال المقاومة إلى الأرض المحتلة، وتقدموا للشرق عدة كيلو مترات، ثم ذهبوا شمالاً وجنوباً، فلم يجدوا فيها أحداً، كانوا يحترقون شوقاً لمبارزةٍ وجهاً لوجه، فلم يجدوا مبارزاً، كانت الزنَّانات فوقهم، وكانت الطائرات التي دفع ثمنها الشعب الأمريكي تطير فوقهم، تقصف أينما كان، وعلى أيِّ شيءٍ كان.

ومَرَّتِ الساعات، ولم يجد المقاومون شيئاً أمامهم، فقرَّروا العودة، لقد هرب الجيش الذي أصمُّوا الآذان بأنه لا يُقهر، أو كأنه يلتقط أنفاسه للغد، وعاد الرجال كأنهم يتنزهون على شاطئ بحر غزة، تنقل وسائل الإعلام نزهتهم؛ ليقرأها كلُّ واحدٍ كما شاء!

تنتسب منطقة الشجاعية إلى "شجاع الكردي"، الذي عاش في فترة الحكم الأيوبي الإسلامي لهذه البلاد، والذي شارك في جيش الأيوبيين ضد الحملة الصليبية سنة 1239م، الموافق 637 هجري.

تقع الشجاعية في المنطقة السهلية شرق مدينة غزة، وهي ليست كمدينة غزة التي بُنيت فوق التلال؛ فعرفت بالمدينة التلّية.

تنقسم الشجاعية إلى الحيِّ الجنوبي، ويسمى "التركمان"، والحيِّ الشمالي، ويسمى "إجديدة"، ولم تتخلف المنطقة المنبسطة التي تقع فيها الشجاعية عن تاريخ المدينة التي بُنيت على التل، لم تتخلف عن الدفاع عن الإسلام، وأرضه، وشعبه، فقد شاركت الشجاعية في نشر الدعوة الإسلامية في فلسطين، ومن معالمها المسجد الجامع "أحمد بن عثمان"، وهو الجامع الكبير فيها، وفي ناحية منه مقام رجل يدعى "يخلجا" وهو من مماليك السلطان "يرقون"، وفي الشجاعية أضرحة العديد من الشهداء، يرقدون في مقبرة "التونسي"، أو مقبرة "التفليسي".

يبلغ عدد سكان الشجاعية حوالي مائة ألف نسمة، ومن العائلات العريقة فيها عائلة "حسنين، وأبي جبة، وأبي الكاس،

وحِلِّس، وسُكَّر، والعكاوي، والعواصي، وحجَّاج، وجندية، والمغنّي، وغيرها".

وقد ذهبت معظم أراضي سكان الشجاعية التي كانت تمتدُّ بلا حدود في النقب المحتلِّ، وهو يمثِّلُ جنوب فلسطين، وقد اعتاد سكان غزة بكلِّ أحيائها القديمة أن يزرعوا، ويحصدوا، ويتاجروا مع مدن الخليل، وبئر السبع، وقراهما، وكانت كلُّ هذه المساحات تابعةً للعاصمة غزة، حتى تحت الانتداب البريطاني البغيض.

واليوم يتحرَّك فيها المجرمون في مساحة رملية شاسعة، شرق الشجاعية، وخلف أشجار غابة عالية. وداخل منطقة محاطة بجدران رملٍ صناعية مرتفعة، وقف غسان عليان، وقد غطَّى رأسه وجسده بطاسة حديدية ظَنَّ أنها تحميه، وأمسك برشاشه في حركة استعراضٍ، لم تستطع أن تخفيَ الخوف في جفونه المرتعشة، وعيونه الحائرة.

وقف أمام جنزير دبابة عملاقة، أكبرِ وحشٍ حديديٍّ في المنطقة، كلُّ ترسٍ فيه كقذيفة مدفع تحفر في الأرض، ومن كلِّ نافذةٍ ضيقة، ومن كلِّ قوة مدفعٍ جبارٍ ظَنُّوا أن الموت يقف ينتظر أوامرهم؛ ليحصد عدوَّهم، غزةَ، ومَنْ فيها.

وقف "يؤالي أور" على باب المبنى المُحصَّن، مقرِّ قيادة اللواء، يرقب هذا الحمار الذي سيدخل غزة، وسيدخل الجنود

اليهود على ظهر هذا الحصان، وعندما ينتهي السباق سيرفع الراكب اليهودي إشارات النصر، ويأخذ الخيّال اليهودي هذا الحصان إلى الإسطبل؛ ليطعمه بعض العلف، ولا بأس أن يمسح على رقبته بيده، فقد طفق سيدنا سليمان - عليه السلام- مسحاً بالسوق والأعناق على الصافنات الجياد؛ حين عرضت عليه بالعشي.

- فليذهب هذا العربي الرخيص إلى المحرقة، أما أنا فسأبقى هنا أراقب كيف ستدخل الدبَّابات، سأوجِّهها إلى البيوت، وأدمِّر كلَّ شيء، وأنا هنا في مأمني، ولن تنفعه رتبة قائد اللواء إذا عاد محمولاً على نقّالة، ولا بأسَ أن تحمله طائرة عمودية، ولا بأسَ إن عاش أن يَطْبَعَ قائد الجيش قطعة قماش على كتفيه .. إنها عشب الحمير المخلوقين على صورة الإنسان اليهودي ليمتطيهم، كما قال لهم الحاخام الأكبر في الجيش اليهودي.

وسط هذه الأفكار الغائبة عن عقل "غسان عليان" الواقف على سطح الدبَّابة قبل أن يدخل في فوهتها الضيقة، ويصيح باللغة العبرية، اللغة الغريبة عن الأرض التي لا تفهم إلاّ العربية، في حركات استعراض:

- اليوم هو الثالث عشر لحربنا المقدسة، الآن نتحرَّك في اتِّجاه غزة، ننزع أسلحتهم، ونقتل، ونأسر المخرِّبين، نهدم بيوتهم

ومساجدهم، ونقضي على أنفاقهم، وندمِّر مصانع صواريخهم، تحيا إسرائيل !

نزل غسان إلى الدبابة، وبقيت عيناه مسمّرتين للأمام، فقد بدأت أصابعه ترتعش، ولم يلحظ أن الدبّاباتِ من خلفه قد بدأت تتباطأ، ولم يلحظ أن بعض الجنود رفضوا ركوب الدبّابات، وبدأ بعضهم يأخذه المغص؛ حتى أفرغ ما في جوفه، والآخر يتقيَّأُ حتى كادت أحشاؤه تتمزق، أو تنخلع من جوفه لتفر، ولم يلحظ غسان أن ملابس الجنود قد حوت بعض ما في أحشائهم، وبدت الروائح الكريهة تتسرَّب، وتغيَّرت ألوان السراويل، ولم تنفعها حَفَّاضات المقعدين والمسنين التي وزَّعها الجيش عليهم!

إنها لحظاتٌ يواجه فيها الجبان الموتَ، الذهابُ إلى غزة يعني إمّا قتيلاً، وإمّا شاليطَ آخر، أو قتيلاً من الخلف بنيرانٍ صديقة، بناءً على أوامر القادة، وتطبيقاً لقانون "هانيبعل"، فلقد أصدر القادة أوامرهم بقتل كل أسير ومن معه من الخاطفين، كما فعل هانيبعل في تاريخهم الأسود!

كان "يؤالي أور" يرقب تحرُّكَ الدبّابات، ويشاهد القذائف تسقط من حوله، وصواريخ القسام تعبر من فوق رأسه .. يسأل نفسه:

- ما الذي جاء به من لوس أنجلوس إلى هنا ؟!

- قالوا: إنها أرض السمن والعسل، ها هي صارت بلادَ السُّم والفشل !

- قالوا: إنه جيش لا يقهر، هل هذا صحيح هذه المرة ؟

- يا أمي .. يا أمي ..

كانت ناقلات الجند العديدة، ومدرعاته، ودباباته، تتقدَّم في اتِّجاه الغرب؛ لتقترب من جدار الأسلاك التي تفصل الأراضيَ المحتلةَ عام 1948م عن قطاع غزة، بمرور الوقت شعر الجنود بشيءٍ من الاطمئنان وهم داخل الدبَّابات، وبدأ غسان يصدر الأوامر حسب الخريطة التي أمامه.

وقف عشرة من المجاهدين في نفق، وكان قائدهم يُطِلُّ من فوهة النفق التي تغطيها شجيرات، ينظر عبر منظارٍ مكبِّر يشاهد الدبابات التي تتمركز، وراقب الدبابة التي تضع علماً أصفر، وظَنَّ أن فيها قائد الهجوم.

نزل إلى النفق، وأسرع يخبر القائد أبا جمال.

- نحن نراقب ونرى، ولكن من الأفضل استدراجهم نحو البراميل الملغومة جنوبكم.

- إنهم بقدر الله يسيرون نحوها، ونحن سنعمل اللازم وقتها إن شاء الله.

ولم يَطُلِ الوقت حتى دخلت الدبابات، كان ديمتري لفيتاس الضابط الكبير أول من فقد حياته في هذه المغامرة،

وهو في طريقه إلى شرق الشُّجاعية، لقد وقع في حقل ألغامٍ ضخم، كلُّ لَغمٍ عبارة عن برميل يحتوي مائة كيلو جرام من المتفجرات على الأقل.

ضاقت الدبابة بمن فيها، وأصبحت ضلوع الجنود والضباط تخنق الصدور وتمنع التنفس، وتوقفت القلوب؛ فقد سمعوا بوضوح تام نبأ مقتل "ديمتري لفيتاس" قائد أحد الفصائل الهامة في اللواء الذي يهاجم الشجاعية.

كان قائد الكتيبة المدرعة (7) قد رأى الموت أمامه يأتيه من القذائف الملتهبة من الشجاعية، طراز القذائف التي قتلت صديقه ديمتري.

تحرك فيه كامن الخوف التاريخي الذي سرى في جيناتهم، وتوارثوه عبر أجيال عديدة، رأوه في أوروبا وهي تطرد أجدادهم الذي عاشوا منعزلين في جيتو السمسرة والسرقة ومعاونة الحاكم الفاسد على سلب شعبه ومصادر مقدراته، حتى إذا جاءت الثورات كانت سهام اللهب تصل أجسادهم؛ فتحرقهم، وتنحر أعناقهم، واليوم الشجاعية ترسل سهامها الملتهبة إلى الأحفاد!

نظر قائد الكتيبة (السابعة)، فوجد لافتةً كبيرةً كُتب عليها مستشفى الوفاء، وهي مؤسسةٌ طبيةٌ خيريَّةٌ للعناية

بالمعاقين، قال في اللاسلكي، وقد اختفى تماماً داخل الدبابة الجبارة:

- هذا المستشفى يحتوي على عددٍ من المخربين .. شمعون هذه مهمتك .. عليك تدميره.

وتوقفت دبابته، واستدارت أخرى، ووجَّهت فوهاتِها إلى المستشفى؛ وقصفته بعدة قذائفَ، شعر غسان بنشوة، فقد خَفَّت درجة الرُّعب التي يعيشها، ثم أصدر أوامره بالتحرك، وفجأةً حدث انفجار ضخم في إحدى الدبابات، وتناثرت جدرانها السميكة والثقيلة في الهواء، ثم انفجرت أخرى، وثالثة.

على الفور أصدر قائد الكتيبة أوامره بإطلاق قذائف الدبابات على مستشفى الوفاء للمسنين العجزة، حيث ترعى كل مرضى الشلل والشيخوخة وبتر الأطراف.

- اهدموا كل حجر فوق رؤوسهم، لا تبقوا منهم أحداً.

هكذا سمعها كل من كان محصناً في آليات الدمار التي حوت كتلاً من الخوف والرعب والأجساد المرتعشة !

وانطلقت القذائف، لكن الخوف والرعب وانتظار الموت بقوا جميعاً في الدبابات والمدرعات !!

كان أبو جمال قائد كتيبة التفاح، ومن خلف جدارٍ إسمنتيٍّ سميك، ينظر إلى الدبابات القادمة عبر منظار مكبّر؛

يرقب الهجوم القادم، كان الوقت قبيل الغروب، وقد غطّى ترابُ الأرض التي طحنته المجنزرات، السماءَ فوق المهاجمين، ويدفعه الهواء نحو الشرق؛ ليظهر الدبَّابات للشجاعية التي تنتظر دورها؛ فبدت صورة المدرَّعات واضحة .. قال أبو جمال وهو يتحدث في سماعة هاتف أرضي:

- عددٌ كبير من الآليات .. يبدو أن الهجوم يَتَّجه نحو حيِّ التفاح.

جاء صوت أبي إسماعيل قائد كتائب عزِّ الدين القسام في تلك المنطقة:

- لا .. كنَّا نتوقع أن يأتوا من هنا هذه المرة، في العدوان عام 2008م دخلوا من المنطقة الفارغة جنوب غزة، اليوم يبدو أنهم يدخلون من المدن.

- هل تَمَّ تبليغ الجميع من حولك .. خاصة الشجاعية؟

- نعم أنا أبلّغهم لحظةً بلحظة.

- كيف الحال عندكم؟

- جاهزون بإذن الله، نحن صنعنا أكبر فَخٍّ لأضخم آلياتٍ .. هل تسمع؟ سهَّل الله لكم، الآنَ الأمور سَخِنَت، بدؤوا يقذفون بالدبَّابات، أكلمك بعد أن أنتهي، ادعُ لنا !

ترك أبو جمال السماعة، وأمسك بسماعة أخرى، وقال:

- اتركوهم يدخلوا حتى يصلوا إلى مكان الزيتونة الكبيرة، وعندها نحن سنتصرف، وانتظروا الأوامر.

انحرفت فجأةً دبابة غسان عليان في اتّجاه الشجاعية، بينما تقدّمت ناقلة جندٍ في اتّجاه حيّ التفاح، وكان من المفترض أن تكون محمّلةً بستةَ عشرَ من المدجَّجين بكلِّ أدوات القتل، وتبعتها دبَّابات وآليات.

هَاتَفَ أبو جمال أبا مصعب قائد كتيبة الشجاعية؛ وأبلغه أن صَدَّ هجوم قيادة لواء العدوِّ سيكون عليه، واطمأنَّ أن الجميع يشاهد ويرقب وينتظر.

وقفت الناقلة، فأصبحت بمفردها في ساحة فارغة، وعلى الفور وجَّه إليها أبو جمال قذيفة مضادة للدروع؛ فاشتعلت فيها النيران.

استمرَّتِ الآليات الثقيلة المتقدمة في الاتِّجاه للجنوب بمحاذاة حيِّ التفاح، متجهةً إلى الشُّجاعية، بينما هربت كلُّ الآليات الكبيرة والصغيرة التي في الخلف، وقفلت راجعة وراء الحدود، وانقطعت الصلة بين الناقلة وقافلة غسان قائدِ اللواء، الذي غاص في مداخل الشجاعية.

هنا أصدر غسان أمره لغرفة عمليات الكتيبة (13)؛ حيث كان "يوآلي أور" رئيس هيئة اللواء بجوار الكبيتس يشاهدان الانفجاراتِ على شاشة أمامهما.

قال "أور":

- كيف سندخل وسط هذه الانفجارات لإنقاذ هذه الناقلة المدمَّرة .. مع استمرار التدمير الكبير للدبَّابات؟!، قل لي كيف؟!

- لا نملك الاعتراض على القرار، أرسل ناقلتي الجند لجمع الجرحى، وإسناد القوات؛ إذا لزم الأمر.

- أشعر أني سأرسلهم إلى الموت.

تحرَّكتِ الناقلتان العملاقتان على آثار الدبابات، ثم توجهت غرباً مباشرة بعدما تجدَّدت الانفجارات، أما ما تبقى من رتل الدبَّابات فقد اتَّجه إلى شارع البلتاجي.

صاح "أور" في قائد الناقلة الأولى:

- لماذا غَيَّرتَ طريقك؟

- هذه أوامر قائد اللواء، تلقيناها مسبقاً منه مباشرة.

- أنا مسؤولك المباشر .. لا تذهب في هذا الاتِّجاه.

سادت حالة من الإرباك داخل الناقلة، التي تواصلت مع الناقلة الأخرى التي أكَّدت أن مسارها مختلف عن الدبَّابات، إنهما محمَّلتان بالمتفجرات التي سيتم استخدامها حسب الأوامر في منطقة التفاح، وأعرب قائدا الناقلة عن غضبهما من حالة الارباك، وقَرَّرا الامتثال للأوامر الأولى، ورفض أوامر قائد اللواء.

صرخ "أور" في اللاسلكي:

- أريد أن أعرف هل راكبات السماء فوق المكان؟ أنا لا أراها على الشاشة، هل بدأت الناقلتان تتحرَّكان، أريد تغطية .. حالاً.

اقتربت الناقلتان من المنطقة الآمنة، الكمين الذي لم يطلق رصاصةً واحدةً منذ ساعات، فبدا كأنه خالٍ من المقاومين، وما أن بَدَتِ الناقلتانِ للعيانِ حتى تحرَّك أبو جمال مع أربعةٍ من كبار المجاهدين في منطقة التفاح، ثم أصدر إشارة من يده؛ فانطلقت قذيفةٌ مضادَّةٌ للدبابات إلى الناقلة الأولى؛ فانفجرت، وبدأت النار تظهر تحت عجلاتها.

كانت ناقلة الجند من الطراز القديم، من طراز "M.113"، تَمَّ استخدامها في اللواء منذ سنوات طويلة، كان استخدامها بقرارٍ من العقيد "غسان عليان" قائدِ لواء جولاني.

كانت الناقلة تتقدم، يقودها الملازم "أيهو" وقذائف الهاون تتساقط عليها، كان هدفها الوصول إلى مبنى بعينه، كانوا يعلمون أنه مسكون بالمقاومين، وكان عليهم تطهيره، والبقاء فيه.

تحركت ناقلة أخرى فيها الضابط "أيهود"، الذي أدرك أنه وقع في كمين، صاح فيهم أن ينزلوا من هذه الناقلة، قبل

أن تصيبها قذيفة مضادة للدروع، ولكن لم يمهله أبو جمال وقتاً، فجاءتها قذيفةٌ محكمةُ التصويب؛ فانفجر المحرك، وكان هذا سبباً في فتح باب الناقلة تلقائياً، وطار في الهواء كل من كان في الناقلة الثانية.

قُتل نائب الكتيبة، وأصيب قائد الكتيبة بجراح خطيرة، كانوا قد استعدوا لما سَمَّوْهُ "مطر بنفسجي"، وهو زخات من قذائف الهاون غير المؤثرة، كانت مهمتهم تدمير نفق كبير داخل بيت، فقتل منهم أربعةَ عشَر، من بينهم نائب قائد الكتيبة.

غامرت طائرة الأباتشي، وطارت فوق سماء الشجاعية المشتعلة؛ لتنقل قائد لواء (12) في لواء جولاني "شاي سيمانتوف" إلى مستشفى بئر السبع، لم يكن قائد الطائرة الأباتشي الضابط "عيران" يعرف كيف نزل بهذه الطائرة المسماه "روت"، لم تكن شجاعةً، ولكنها كانت حالة عملٍ تلقائيّ، يتمُّ بلا وَعيٍ أو تفكير، فصوت الصافرة، والتوتر، والخوف، والآلام، وصور الجنود القتلى، ومشاهدة المجنزرات، والجرافات وهي مشتعلة من نافذة الطائرة، كلُّها أشباح تطارده، من يومها فهو لا يكفُّ عن النحيب، فَقَدَ يومها أربعةً من مساعديه، وقد

اكتشف أن قدمه قد أصيبت دون أن يدري كيف، لم يعرف أنه سيظل يبكي طيلة حياته !

قال أحد المجاهدين:

- الله أكبر ولله الحمد.

قال له آخر:

- اخفضْ صوتك ..

فضحك الجميع.

كانت الناقلة الأخرى على مسافة بعيدة نسبياً، وقد اختفت في غبار الناقلة الأولى، فانقلبت راجعةً دون أوامر، واختبأت خلف تلّة رملٍ صناعية.

تأكد أبو جمال أن الجميع هرب من حول الناقلة المحترقة، فتقدَّم مسرعاً مع إخوانه الأربعة، واتَّجه خلف الناقلة المشتعلة، فوجد الباب مفتوحاً من شدة انفجار الشحنة، نظر إلى الباب؛ فكان الصيد الثمين أربعةَ عشرَ جندياً، مَدَّ يده، فسحب أحدهم، وحمله وقَفَلَ راجعاً، بينما أخذت النار تقتحم أكثر وأكثر على الجنود داخل الناقلة، وحالت بين المجاهدين وبين أخذهم، ثم انفجرت عبوةٌ في مقدمة الناقلة المشتعلة؛ فابتعد أبو جمال وإخوانه، وعادوا إلى موقعهم الحصين.

تعالت صرخات غسان في اللاسلكي على مقرِّ هيئة اللواء:

- لابدَّ من إرسال ما بقى عندكم من الدبابات لإنقاذ من فيها.

- لا يمكن .. لقد بدأت المتفجرات والنيران داخلها، والذخيرة تنفجر.

- أبلغوا الطائرات لتدمير منطقة الشجاعية كلِّها حتى نخرج، لقد وقعنا في كمينٍ محكم، النيران والقاذفات علينا من كلِّ بيت، نريد الخروج بسرعة .. بسرعة.

تواصلت المحاولات للاتصال بين هيئة اللواء إلى الناقلة المدمرة، ولم يَرُدَّ أحد، صرخ فيه "يوئالي أور" لقد تَمَّ تدميرها، والاستيلاء على مَنْ فيها .. هذه مصيبةٌ أخرى بعد مصيبة زكيم، لقد خسرنا الشارع، لقد خسرنا الحرب من أول يوم، صاح فيه "الكبيتس" أن يسكت، وألاَّ يفقد توازنه، فالكل يسمعه على اللاسلكي.

وفي الجانب الآخر اتَّصل أبو جمال بقيادة كتائب القسام مطمئناً ومبتسماً، يخبرهم بما حدث، فطلبوا منه ألاّ يخبر أحداً، وسوف يتصل به مسؤول في الإعلام العسكري المقاوم؛ لعمل اللازم، وإخراج الموضوع في الصورة المطلوبة، لتدمير الروح المعنوية للعدوِّ، ورفع الروح المعنوية للشعب المقاوم، ومناصريه في العالم.

عاد أبو جمال وحوله أركانه يتابعون الناقلة التي خمدت فيها النيران، وقد بقيت بمفردها في الأرض الفارغة، وقد فرَّت كلُّ الدبابات إلى الشرق، نظر "يوئالي أور" في شاشاته، وطار صوابه، فقد رأى لأول مرة عدداً من جنود القسام يقتربون من ناقلة الجند التي يحجبها الدخان المتصاعد منها ..

- هذه مصيبة .. الناقلة فيها ستةَ عشرَ جندياً من خيرة جنود الكتيبة، سيقعون أسرى في يد أعدائنا، أنجدونا بالطائرات.

- ولماذا لا تتحرك دباباتك؟

- لقد هربوا من كثافة المضادات، الحالة المعنوية سيئة جداً .. لابُدَّ من الطائرات.

- لا نستطيع فالطائرات ستصيب جنودنا.

كان أبو مصعب يراقب دبابة "غسان"، وهو يتوغل في شارع البلتاجي، حتى إذا توغل مائة متر، حوصر هو وآلياته بين البيوت على الجانبين، كان غسان ينتظر الرايات البيضاء على أسطح البيوت، وكان يخطِّط أن يدخلَّ كل بيت يرفع الراية البيضاء، ويقتل كلَّ من فيه، ويدّعي أنهم قاوموه!

كان غسان قد أصدر أوامره إلى الملازم "أور كرانديش" بالتوغل بسرعة، وتدمير البيوت المحاذية، قبل تقدم دبابته، وخاصة على البيوت التي ترفع الراياتِ البيضاء، ستكون هذه خدعةَ حماس، ودخل "كرانديش" وتوغَّل، ولم يجد رايات؛

فتوقف، والخوف يكاد يقتلع قلبه الذي يدقُّ بعنفٍ جدران صدره من الداخل!

فجأةً أصدر أبو مصعب إشارة البدء؛ فانطلقت القاذفات المضادة للدبابات؛ فاحترق بعضها، وطار جنزير هذه، وتوقفت هذه من خوف سائقها، وطارت أجساد الجنود، وهربت الآليات، فوجدت خلفها رجالاً يقفون في منتصف الشارع، يدمِّرون كلَّ شيء بأمر ربِّهم.

حاصرت الدبابات والآليات المدمَّرة من الخلف دبابةَ قائد اللواء الخائن في الشارع الشهير .. شارع البلتاجي .. مدَّ غسان يده المرتعشة إلى هاتف لاسلكي:

- إنني محاصر وسط تدميرٍ شبهِ كاملٍ لأركان اللواء، أنا في شارع البلتاجي .. أطلب تدمير كلَّ البيوت على جانبي الشارع، صفين من البيوت على الأقل .. وليس البيوتَ المحاذية؛ بل البيوت والصفوف التي تليها؛ لأنها كلّها تطلق القذائف الحارقة المدمِّرة للآليات، لقد أصيبت دبابتي، لكنَّها يمكن أن تعود .. أسرعوا .. أسرعوا .. أرجوكم أنقذونا.

كان دخول شارع البلتاجي ضرورةً لقيادة الجيش "الذي قيل أنه لا يقهر"، كانت أرصفة شارع البلتاجي تتحرك تحت أجساد الملازم "أور كرانديش" الذي أصابته شظايا في جمجمته وذراعه، فسقط بين الموت والحياة، وكان على الجانب الآخر

الرقيب "بوعز هوكشتاين" الذي كانوا يسمونه "بوزي" غارقاً في دمائه، وكان "نيشر" فاقداً للوعي، لا تتحرك أطرافه.

كان هؤلاء، وغيرهم العشرات، من الكتيبة (13) من لواء جولاني التي تعاني من الضرب من كلِّ بيتٍ وشارع، بينما دباباتهم "النمر" قد رقدت كثورٍ خائر، تلخَّصت مهمة هذه الدبابات فقط في احتلال منزلين للاحتماء بهما، بعدما تبخَّر وَهمُ دخولِ غزة، تساندهما الجرافة "D.9" التي قامت بتدمير كلِّ شيء أمامهم بأوامرَ من "كرانديش" قبل أن يلقى جزاءه، و"نيشل ايشاي" وغيره.

كانوا يستمعون إلى تعليمات "غسان عليان"، وهم يرتعدون، كانوا في حالة هلوسة، كان أبرزهم "روتمان" في أصعب نوبة من الخوف، حاول الهروب من الدبابة، وعندما حمله زميل له؛ ليهرب بنفسه وبه، أقعدته جراحه!

كان صوت ضابطٍ صغير يهاتف قيادته:

- دبابة أخرى في شارع البلتاجي قد طارت فتحة خروجها الكبيرة؛ فبقي مَنْ فيها.

دبابة النمر فقدت مدخلها، وكان أمامها فقط أن تُخرِجَ مَنْ بداخلها من الفتحة العلوية؛ ليكونوا صيداً سهلاً لرصاص المقاومين من البيوت.

الوحوش الحديدية دون قائد، ودون منقذ، الدبابات تضرَّرت، وبعضها احترقت، وأشلاء الجنود داخلها تحترق، ولابدَّ من الاستنجاد بالطائرات.

مرَّت لحظات صعبة حتى ظهرت طائرات F16، وأخذت تدكُّ البيوت الآمنة، والبيوت المقاومة على الجانبين في شارع البلتاجي، تهدم شارعاً من أكثر الشوارع ازدحاماً بالسكان.

واستطاعت الدبابات التي لم تدخل الشجاعية أن تهرب، رجعت مهرولة، وخرج غسان عليان مجروحاً في رأسه التي اصطدمت بجسم الدبابة، هرب بعيداً عن البيوت، واختفى خلف غابة شرق الشجاعية، لا يستطيع أن يرجع، فقذائف الهاون تسقط من حوله كلَّ لحظة.

جاءت الأوامر لغسان من جديد أن يتقدم نحو الشجاعية بعيداً عن الشارع المشؤوم، يجب منع تقدم قوات المقاومة نحو الشرق.

قال غسان وهو يضع يده على جرحه، وضماداته قد اصطبغت بالدم:

- المقاومة شديدة، والخسائر عندي كبيرة.

- الطائرات ستحميك .. عليك أن تدكَّ بالدبابات كلَّ بيت قائم.

- أنا لا أرى مخرِّبين، ولا مسلحين، ولا أعرف من أين تأتي القذائف؟!

تقدم للجنوب قليلاً .. هذه منطقة أقلُّ عنفاً.

كان أبو مصعب وإخوانه يتابعون مذبحة الدبابات على الأرض، وهو لا يكفُّ عن القول باستمرار في الهاتف الأرضي، وفي اللاسلكي:

- طوِّقوا الدبابة التي عليها العلم الأصفر، إنها تحمل قائداً كبيراً.

- عندنا ثلاثة من الاستشهاديين على مقربة منها، سيخرجون إليها فوراً.

هربت الدبابة، ومعها رتلٌ كبيرٌ يضرب بقذائف الدبابات في كلِّ مكان، وحتى على البيوت البعيدة، ووسط المدينة وغربها.

كانت سرية "الغراب" التابعة للواء جولاني، قد تجهَّزت لمثل هذه المعارك، ولم يكنِ الرقيب أول "روعي كوستكي" بعد أن شاهد ما حدث لهم في الشجاعية، لا يعرف عن مصيرهم شيئاً غيرَ الموت، سيشهد منهم الناجون أن كلَّ شيء في البداية كان أسودَ، فهم لا يعرفون أين هم؟ ومع من هم؟ وأصوات الانفجارات حولهم، حتى تَلَقَّوْا الصاروخ الأول، كانت البيوت التي دخلوها، قد تحوَّلت إلى قبورٍ جماعية لهم، ففي الدور

الأعلى كان صراخ الجنود والضباط، فقد سقطت كلُّ سلسلة القيادة من الضباط، ولم يَبقَ سوى رقيب أول يُدعَى "نائور عاميخاي" قام بتولّي قيادة الجيش الخائب، فقد مات قائد الكتيبة، وبجواره جُثَثُ آخرين، قتلى أو جرحى، ولم يَبقَ سوى "نائور"، والضابط "حزان" يديران عملية الهروب من جهنمَ اسمها الشجاعية!

كَان "جادي درور" قائد كتيبة المدفعية المسماة "دركون" في مَقَرِّهِ القريب من مقرِّ قيادة اللواء، والتي تبعد عن حدود الشجاعية بحوالي ثمانيةَ عشرَ كيلو متراً للشرق، وكانت إحدى الوحدات التي توجَّهت إلى الشجاعية، تحرَّكت وحدة الدبابات إلى شمال الشجاعية بقيادة الضابط "شاحر"، وكغيرها فقد تعثرت أكثر من مرة، وتردَّدت مراتٍ في التقدم، لولا إلحاحِ مركز القيادة بضرورة التقدم، وكانت القوة المدرعة الثانية تَتَّجِهُ جنوب الشجاعية على تواصلِ مستمرِ مع القائد "شاحر"، وكانت المعلومات لديهم تقول: إن قوات المقاومة تقع بين القوتين، وهكذا سيتمُّ حصرهم بين فَكّيْ الطاحونة اليهودية لتدميرهم، وليسهل دخول القوات إلى غزة في أضيق خاصرة لها.

عندما صارت الفرقتان في مرمى قذائف الكتف، تبعثرت القوتان بين من يتقدم رغماً عنه، وبين من تَدَمَّرَ فوقف، وبين

من تراجع بدون وعي، فقد كانت بنية المقاومة واستعداداتها جاهزة؛ للدفاع الفعَّال !

في مقرِّ قيادة وحدة المدفعية، تلقى "جادي درور" اتصالاً من صديقه العزيز الضابط "شاحر" في الرابعة من فجر هذا اليوم المشهود، الثالثَ عشرَ من أيام الحرب الملتهبة:

- أنقذني أنا بحاجةٍ إليك، وبحاجةٍ للمدفعية، هل استلمت؟ .. أرجوك.. أرجوك.

عندها أدرك "درور" أن أمراً خطيراً وكبيراً قد حصل في تخوم الشجاعية، أسرع "درور" إلى غرفة التحكم، حيث كان "أور" ينظر وهو لا يصدق، ويسمع وهو في ذهول:

- ليست هذه النتيجة هي التي توقّعناها، لقد كانت خُطّتُنا أن نهجم وننظِّف، ولم نتدرَّب على أن نُهزَمَ في بضعة كيلو مترات قليلة.

دخل "جادي درور" بدون سلام، وصاح في "أور":

- لقد اتصلنا على القوات في ساحة المعركة، وقالوا لي: إنهم يقومون بمساعدة الجيش داخل منطقة مأهولة.

قال "أور" وقد استردَّ توازنَه:

- قوات "شاحر" على بعد خمسين ومائة مترٍ في اليمين، والوحدة الأخرى على بعد خمسين ومائة مترٍ من الشمال، وهي تتعرض لنيران كثيفة، وفي الوسط المخرَّبون، لم يصابوا بشيء!

قال "درور" في اللاسلكي دون استشارة "أور" ومن حوله:

أطلقوا القذائف أمام القوات المتقدِّمة في الوسط بكثافة، دمِّروا كلَّ بيت، وأطلقوا على كلِّ شبرٍ من الأرض المكشوفة، فالأنفاق تحتها .. بسرعة .. أسرعوا.

كانت القذائف تسقط بالقرب من قوات "شاحر"، وكانت القذائف من فوق أكتاف المجاهدين تسقط عليهم في مقتل.

قال "درور" وهو يحدِّث نفسه:

- هذا الاشتباك أخرجنا من روتين العملية، ومن الخطط التي أعددناها.

قال "أور":

- أين تسقط القذائف التي تطلقها؟، أراها تسقط على جنودنا!

- لا تخف أنا مطمئنٌ أنها تسقط على العدوِّ، قوات العدُّو في الشجاعية تبعد عنا حوالي ثمانيةَ عشرَ كيلو متراً، وأقصى مدى لهذه القذائف هو عشرون كيلو متراً، ولذلك يجب أن تكون بدقة كاملة.

- هل جَرَّبتم هذا في أماكنَ أخرى؟

- لقد عملنا مع لواء المظليين في رفح، ولدينا بطارية أخرى في شرق خانيونس.

استمرَّتِ القذائف لمدة ساعةٍ كاملةٍ من فجر هذا اليوم المدمِّر، والقذائف تمرُّ من فوق رؤوس "شاحر"، وتنهمرُ على

الحيِّ؛ لتدمير كلِّ شيء، بينما توقَّفتِ الطائرات؛ بسبب وجود قوات الاحتلال البرية في المكان!

قال "أور":

- هل مهمتنا أن ننقذ قوات "غسان عليان" قائد لواء جولاني؟

وتهّرب "شاحر" من الإجابة، فهو لا يريد أن يعرف أحدٌ شيئاً عمَّا يجري لِلّواءِ المنكوبِ المحاصر، والذي دخل إلى الشجاعية بعد ثلاثة أيام من التدمير المستمرِّ للشجاعية!

قال "أور":

- لم تُجبني على سؤالي حتى أُحَدِّدَ مهمتي.

وبعد تردُّدٍ قال "شاحر":

- لقد خرجنا في عملية هجومية، واليوم نتلقى الأوامر؛ لتخليص جولاني من الليلة الأولى وإنقاذها!، يجب الاَّ يعرف جنودنا ما يجري، ويجب أن نبرِّر لهم هذا التراجع؛ بحجة إعادة ترتيب أنفسهم من جديد نحو مواصلة المهمة !

سادت فترة صمتٍ في أجواء الشعور بالهزيمة، التي تأكل قلوبهم .. قطعها "درور":

- لقد شاركت في معركة "بنت جبيل" الثانية في جنوب لبنان عام 2006م، وسمعت ما جرى في حرب أكتوبر مع مصر في عام 1973م، إن معركة الشجاعية ثمانية أضعاف قوة معركة

"بنت جبيل" وتأثيرها.. اسمع يا "أور" هذه هزيمة بكلِّ معنى الكلمة!

في قرابة الساعة السادسة إلا ربعاً صباحَ اليوم التالي نجحت قوات كبيرة من الجرافات في عمل ساتر ترابي حول الناقلة التي يتصاعد منها دخان قليل منذ فترة، وبدا الباب مفتوحاً على آخره، والأجساد ميتة، وقد أخذت المقاومة بعض أسلحتهم.

بدأت جرافة عملاقة، بها ثلاثة من الجنود بالاقتراب الحذر من الناقلة المنكوبة، وما أنْ وصلت حتى أصابتها قذيفة؛ فاشتعلت، وقتل الثلاثة الذين كانوا بداخلها، صرخ "أور" في اللاسلكي:

- أريد طائرات .. طائرات ..

- ستصلك في الحال .. دقائقَ وتكون فوقكم.

تقدمت جرافة عملاقة ثانية، ولكنها تعطَّلت قبل الوصول إلى الناقلة، لم يُعرف سبب تعطلها، هل توقَّف قلب الثلاثة بداخلها من الخوف؟ هل فقدوا السيطرة على أمعائهم فأغرقتهم؟ إن أحداً لم يطلق عليهم النار، فالطائرات غَطَّتِ المنطقة، والدخان يتصاعد برائحة الموت القادم من الناقلة المنكوبة!

ودخلت الجرافة الثالثة، ونجحت في الوصول إلى الناقلة المنكوبة، فربطت بسلسلة قوية وكُلّاب ظهرَ الناقلة، وبدأت في محاولة جرّها .. تحركت قليلاً؛ فانخلعت مؤخرة الناقلة، وبقيت كما هي.

نزل اثنان، وقاما بربط جنزير السحب الضخم في طرف الناقلة، تحركت الجرافة العملاقة وسحبت الناقلة، وبعد أمتار انقلبت الناقلة على أحد جوانبها، واستمرَّت الجرافة في سحبها؛ فانقلبت على ظهرها مرة أخرى، واستمرت الجرافة فانقلبت الجرافة على الجانب الآخر، وتَمَّ وقوع بعض الجثث المتفحمة والممزقة منها، دُفن بعضها في التراب، وقد استمرت الجرافة في السحب، واستمرَّ تمزق الناقلة، حتى وصلت خلف الغابة، فوجدت عدداً كبيراً من الضباط والجنود.

نظر "يوآلي أور" إلى الناقلة فوجدها أشلاءً، وليس فيها إلا بقايا آدمية .. أذرع، وأرجل، ورؤوس، صاح غاضباً:

- فلتذهب الفرقة التي نامت ساعتين إلى جمع الأشلاء.

قال الكبيتس حزيناً:

- لقد تمَّ دفن معظمها في تراب غزة، سوف تخرجهم حماس؛ وتساومنا عليهم، وقد بدأ النهار يطلع، وسوف تصطادنا بنادق القسام .. كيف نذهب؟

صاح يؤآلي أور:

- هل سنتركهم يمرغون أنفنا في مفاوضات تبادل جثثٍ وأشلاء، ولا نعرف إن كانوا أَسَرُوا أحداً حيًّاً أم لا؟!

تحرَّك بعض الجنود والضباط، وتفرَّقوا مع بداية انفلاق الصبح؛ ليجمعوا ما تبقى فوق الأرض من الأشلاء .. أربعةَ عشرَ جندياً.

جلس أور والكبيتس في مقرِّهم المحصَّن .. وكان أور يتحدث في الهاتف الأرضي حزيناً:

- لقد جمعنا أشلاء ما يقارب من عشرة .. تم تجميعها لدراسة الحمض النووي .. نعم كان فيها أربعةَ عشرَ فقط .. أما الباقي فقد أصيب بإسهالٍ وقيئ، وتخلَّفوا عن ركوب الحافلة، وتَمَّ تحويلهم إلى المستشفى.

كان المشهد مأساوياً .. فقد دخل الجنود حدود غزة في العاشرة والنصف مساءً، وبعد نصف ساعة تَمَّ حصار الدبابات في شارع البلتاجي، وتَمَّ تدمير كلِّ من طالته يد المقاومة، واضطروا أن يهربوا، ليطالهم رصاص القناصة، وفقدوا أكثر من ثلاثين من خيرة الضباط والجنود في أول ساعة في هذا المكان فقط، ولم يفصح رئيس الأركان عن أرقام الخسائر الأخرى في مناطق غزة، وخانيونس، ورفح، وبيت حانون،

واشتعلت الناقلة، وخرج قائد اللواء من الشجاعية بأعجوبة، ورجعت بقية الدبابات، وتَمَّ أسرُ جنودٍ، وقتلُ آخرين.

كان هذا ما يدور في رأس "يؤالى أور"، وفجأةً صرخ، ولا يعرف إلى من يتكلم:

- لماذا فكّرنا في دخول غزة، ونزع سلاح حماس؟ وهذا حالنا! كيف يفكر هؤلاء القادةُ المجانين؟!، من اتَّخذ هذا القرار الأرعن؟!، كيف سندخل غزة بعد الآن، وهذه أول ساعات فيها؟!

***

حمل اثنان من المقاومين حمّالة عليها الجندي، وقد غطّى الدم جسده، والحروق قد غيَّرت سِحنَتَه، ونزلا به في نفق مظلم، وسارا به كأنهما يحملان كنزاً ثميناً، فثمن هؤلاء هو الحرية للمئات من الأسرى خلف القضبان، عاشوا لعقودٍ طويلة ينتظرون هذه اللحظات؛ لينعموا بشمس فلسطين الدافئة، ونسيمها العليل، ومقدساتها الراسخة، وزيتونها المضيء، وقمرها المنير، ومقاومتها الأجمل من القمر!

أسرعوا ليضعوا ما يحملون في يدٍ أمينة، تعرف كيف تساوم عليه، وعادوا والبنادق معلّقةٌ على الأكتاف، وتكاد رؤوسهم تلامس السحاب، رغم أنهم يسيرون تحت الأرض بأمتارٍ بعيدة.

تلقى أبو جمال مكالمةً من القيادة العليا للكتائب:

- لا يتمُّ الحديث عمَّا في أيديكم حتى لأقرب المقرَّبين.

***

بعد اثنتيْ عشرةَ ساعة من العملية الفاشلة، جلس رئيس الأركان، ووزير الحرب، يشاهدان المتحدث باسم كتائب القسام .. وقف الشابُّ الملثَّمُ يعرض اسم الجندي الذي وقع في يد المقاومة، وتُظهر الشاشة بطاقته، وتفصح عن هويته، وبعدها تظهر صورة بندقيته، ورقمها.

صورة مهينة للدولة، ومذلة للجيش، أيُّ جيش، في أيِّ زمان، وفي أيِّ مكان؟!

وصلت الأخبار والصور إلى رئيس حكومة لصوص الأرض، ومزوِّري التاريخ، زاغت عيناه يمنةً ويسرةً، كعادته منذ بدأ عدوانه على قطاع غزة، وبدت أحلامه تتبخر، كما الماء في القدر المعدنيّ، لا هو يستطيع أن يمنع البخار، ولا يستطيع أن يمسك القِدرَ النحاسيَّ الساخن، ولا يستطيع أن يطفئ النار بكَفَّيْه!

لقد أشعل المجنون النار في نفسه، ولا أحدَ يستطيع أن يُطفئها، هكذا حدّث اللصُّ القادم من أمريكا نفسه، عندما رأى هذه الصورة، وقبلها بأيامٍ شاهد صورة الأربعة الذين خرجوا من البحر؛ ليعود إلى وطنه، ولو بعد حين، حتى يشفى ويستردَّ

أرضه، ويستعيد دوره في كتابة تاريخ الخير والمحبة؛ ويقضي على اللصوص والكُفّار والمجرمين !

توالى نزول الطائرات المروحية شرق الحدود، وهي تنقل الجرحى من الجنود .. صرخ "يوآلى أور"، وجاء صوت سماعة الهاتف يردُّ عليه:

- اهدأ الطائرات تعطّل فيها تسجيل التصوير، والثانية تُظهر وجود خمس أجسامٍ مشبوهةٍ حول الناقلة المشتعلة.

دقَّ جرس هاتفٍ آخرَ، من رئيس الأركان:

- ماذا عن الناقلة؟ ماذا فعلتم لاستردادها؟

- كلُّ من يقترب منها يُقتل ..

- سنرسل لكم في منتصف الليل من يضع خُطّةً لاسترجاعها، المهم ألاّ يصل إليها أحد، لا يجب أن يُصَوِّرَها أحد من العدوّ .. غَطُّوا المنطقة بكثافة النيران ..

- قد يؤدّي ذلك إلى قتل الناجين منهم ..

- فَعِّلوا قانون هانيبعل .. إذا علمت وجود أسرى أحياء اقْتُلْهم .. أتفهم؟ .. هل استلمت؟

قال أور بصوت خافت حزين:

- استلمت، لكن يبدو أن جميعهم قد ماتوا.

أغلق أور سماعة الهاتف الخاصّ، ووضع رأسه بين ساقيه، وأغلق عينيه، وعادت به الذكرى إلى أُمِّه، التي سألته يوماً في وجود زوجته:

- هل ستطلق النار .. أو تأمر الجنود أن يطلقوا النار على أسيرٍ إسرائيلي؟

- نعم طبعاً .. هذا قانون تاريخيٌّ مارسه أجدادنا .. قانون هانيبعل ..

- وإذا كنت أنت الأسير؟ هل تقبل أن يقتلوك؟

ولم يَرُدَّ ساعتها أور على أُمِّه، ونظر إلى زوجته، وبلع ريقه.

دقَّ جرس الهاتف الأرضي الخاص في مقر "أبو جمال":

- السلام عليكم .. كيف حالكم؟

- وعليكم السلام .. أنت ابن حلال لقد رأيتك بالأمس في رؤيا، وقد تحقَّقت قبل دقائق، والحمد لله، إنها ستربك ظهر العدو وتكسره.

كان أبو جمال، وقبل دخول ناقلة الجند، قد رأى في المنام أن أحد القادة السياسيين زارهم في سيارته على الجبهة، وعندما نزل نظر أبو جمال، فوجد تفاحتين على المقعد، فتناول واحدةً، وأخذ يأكلها، وجاء زميله "أبو العروبة"، وأخذ الثانية، ثم ذهب إلى رفح.

قصَّ أبو جمال رؤياه على محدِّثه في الهاتف الذي حمد الله وشكره، وسأل:

- هل اتَّخذتم الإجراءات اللازمة؟

طمأنه أبو جمال أن الإعلام المقاوم قد حضَّر، وعمل اللازم، وسوف يعرض ما تَمَّ تسجيله منذ قليل.

أغلق القائد السياسيُّ السماعة، ونظر إلى زميله:

- لقد سقط في يدنا جنديٌّ على الأقل، سيتم نشر صورة بطاقته، ورقمِ سلاحه، واسمه.

- الله أكبر ولله الحمد، هذا وقت السجود شكراً لله.

توقَّف دكُّ الطائرات جانبي شارع البلتاجي، ولساعاتٍ توقَّف تدمير البيوت التي تُطِلُّ على الشارع مباشرة، أو التي تُطِلُّ شرفاتها عليه من الصفوف الداخلية، وخرجت النساء في الشوارع تصرخ، وخرج الناجون وهم قلة من السكان يرفعون أكفَّهم إلى ربِّ السماء والأرض، وبعد أن افتضح أمر أهل الأرض ممن يدَّعون الإسلام، كانت صرخاتهم شهادةً تُسَجِّلُها الملائكة على خذلان حكام المسلمين لهم، كانت صيحاتهم صفعاتٍ على وجوه بعضهم من ملوكٍ وأمراءَ ورؤساء، أولئك الذين كانوا ينتظرون نتيجةً واحدة .. أن ترفع غزة الراية البيضاء، أن تُسلِمَ غزةُ عنقها للذبَّاح، أن يضع المقاومون

أقدامهم طواعية في فلقة أستاذ المنطقة، مُؤَدِّبها ومربّيها وحاكمها.. الصهاينة!

انتظر أصحاب مشاريع الاستسلام للأمر الواقع تسليمَ القيادة لمن يدفع رواتبَ المتعاونين معهم ضدَّ كلِّ شريفٍ عفيفٍ نظيف!

كانت صرخات الناجين شكوى صادقةً من القلب للربِّ سبحانه وتعالى، وهو أعلم بهم من أنفسهم، لقد كانت كلماتهم كجمراتٍ على قفا كلِّ من انتظر رفرفة الراياتِ البيضاء فوق منازل قادة المقاومة ورجالها.

نعم للمقاومة .. نحن مع المقاومة .. اللهم انصر المقاومة.

جلس الطفل حسام، وكان في الثالثة من عمره في حجر جدِّه العجوز، على ركام البيت المهدَّم في الشجاعية، كان الطفل يتأمل الركام، وفي رأسه أسئلةٌ عديدة، لا يعرف كيف يقولها، وظن جدُّه أنه يعرف ما يدور في رأسه، فقال:

- يا جدُّ .. هذه طائراتٌ أمريكية، أعطوها لليهود المحتلين؛ حتى يدافعوا عن أنفسهم، هكذا قالوا، ولكنْ هذه جريمة أمريكا وإسرائيل.

صمت الطفل، وبدا وكأنه يُفكِّر في شيءٍ آخر، فقال:

- يا جدُّ .. سمعتهم بالأمس يقولون: إن الشهداء هم الشمس والقمر، فهل الشمس هي أمي، والقمر في الليل هو أبي؟ كيف صاروا؟

- يا بني أبوك وأمك أغلى عند الله من الشمس، ومن القمر، نحن نموت وندفن في القبور، ونعود عظاماً ورُفاتاً، لكنَّ الشهداء يَبْقَوْنَ أحياءً عند ربهم يرزقون.

- هل سأقابلهم يا جدي؟

- في الجنة إن شاء الله، المهم تكبر وتتعلم، وتحمل السلاح، وهذا ما كان يريده لك أبوك وأمُّك.

قفزت دمعاتٌ من بين جفونٍ عاصية، فالعمر قصير، والبيت مدمَّر، والجدة عجوز، من سيرعى هذا الطفل حتى يكبر، ويتعلم، ويحمل السلاح.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

كانت منطقة جنوب الزيتون مسرحاً للعدوان الصهيوني في عام 2008م، فقد جاءتها الدبابات من أقصى الجنوب؛ لتدمر كل شيء أمامها من بيوت وأشجار، وتقتل كل إنسان تصل إليه، وكان من عائلة الدحدوح رجال كثر حملوا لواء المقاومة في حركة الجهاد الإسلامي، حتى قضى أكثر من عشرة من القادة من هذه العائلة التي قدمت خيرة الناس للوطن في مجالات التعليم والقضاء والطب والمقاومة، والتي كانت تجاور مسجد صلاح الدين، غير أن العدوان

الجديد الذي عصف بكبرياء المحتلين؛ جعلهم يرصدون مصادر إطلاق الصواريخ من هذه المناطق الزراعية، والتي كانت تؤلم كبرياءهم، وتكوي غطرستهم، فاستهدفوا بيت القائد شعبان سليمان الدحدوح، ونجا القائد وانتقل إلى موقع آخر في شارع عمر المختار في برج "دار السلام"، ولحقت به قنابل الدمار؛ فانهار البرج على الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، وقضى الشهيد القائد راضياً مرضياً ليلحق بإخوانه.

ولتشرُف هذه العائلة بالمزيد من العطاء لوطن يستحق البقاء، وتكتب في الواحد والعشرين من تموز شهادة شهيد بطل جريء آمن بتحرير كل البلاد.

وصل المجاهدون إلى اليومِ السابعَ عشرَ من الحرب، وكان لابدَّ من تأديب موقع "التبة 16" العالية، التي لم تتوقف عن استهداف المدنيين بالقذائف الثقيلة، تجمع عشرةُ مقاومين من شمال القطاع، واثنان من بيت حانون، وقَرَّروا أن يصلوا إلى الموقع عبر نفق؛ فذهب سبعة منهم على الأقدام، واشتبكوا بسيارة جيشٍ، وتَمَّ القضاء بوابل من النار على ستة جنود منها، وتجمع خمسة من كتائب القسام على طرف النفق، وخرجوا فجأةً؛ وأمطروا الموقع، وأعطبوا أكثر الناقلات، وحرَّقوا بعضها بما لديهم من قوة، وقد استشهد منهم عشرة، ورجع اثنان من

الجرحى عبر النفق، وهربت القوة المعادية من هذا الموقع بعيداً إلى الشرق هروباً دائماً، وبذلك تَمَّ تحييد هذا الموقع الخطير.

وصل الجرحى إلى بيت الشهيد نادر أبو جراد، فوجدوا والدته قد ذَبَحَت دجاجتين، وجَهَّزَتِ الأرز للشباب، وقد كانت توزِّعه يومياً على المرابطين في البيوت المهدَّمة.

أصبحت المعادلة الجديدة لدى الصهاينة أنه لا مكانَ آمنٌ في الأرض المحتلة على طول النهار والليل، واستمرَّت عملية استهداف مطار اللدِّ وسط فلسطين المحتلة، فأرسلت المقاومة صاروخاً كبيراً بالقرب منه، وتوقَّفت حركة الطيران من البلد المسروق وإليه، وتعطَّل المطار، كانت هذه كارثةً سياسيةً دوليةً، تكرَّرت مراتٍ عديدةً طول فترة الحرب.

نقلت وسائل الإعلام صُوَرَ إلغاء الرحلات من فلسطين المسروقة وإليها، منذ سِتٍّ وستين سنةً، خاضت فيها دولة الاحتلال حروباً، ونزاعاتٍ، وتوتراتٍ مع جيرانها العرب، ولم يحدث من أيٍّ من الدول المحيطة بفلسطين أن أطلقوا رصاصةً عليها، باستثناء الرئيس الراحل صدَّام حسين، الذي استهدفها بحوالي أربعين صاروخاً ثقيلاً، ولم يكن في حربٍ مباشرة معها؛ بل كان ينتقم من أسيادها حين سامها سوء العذاب.

كانت فلسطين تزهو بأبنائها، وكان أبناؤها فخورين بإخوانهم في غزة، وكان كلُّ فلسطينيٍّ، وكلُّ مسلم، يزهو بهذا النصر العزيز، كان مسيحيو فلسطين يجاهرون بدعمهم للمقاومة، وكانت المساجد تشكو إلى الله الحزن على تدميرها، كلُّ ذلك قد هان بعد إغلاق مطار اللد بالكلمات الصاروخية.

لم يستطع كيري وزير خارجية أمريكا أن يحصل على شيءٍ من زيارته لمصر، بعد فشله في المنطقة.

صرخ العرب والمسلمون الشرفاء، الأوفياء لدينهم ووطنهم، منذ بداية العدوان في الغرب المتفرج، فخرجت الأمم المتحدة، لِتَذُرَّ الرماد في العيون الباكية، بتشكيل لجنة تحقيقٍ في جرائم حرب الدولة المعتدية!

اقتنع العدو أن صفحاتِ غزةَ، وخزاعةَ، والزنة، والقرارة، ورفح، قد طويت بعد سبعة عشر يوماً بكلمات كتبتها المقاومة بدماء القتلى والجرحى من جنوده، فأرادوا أن يختبروا الماء في بحيرة بيت حانون، وتقدَّموا .. تقدَّموا بهدوء، ثم انهالت عليهم يد القسام الباطشة، واستهدفتهم سرايا القدس، وصارت المواجهات في بيت حانون من بيت لبيت، حتى تَمَّ دحر المحتلين بعيداً عن المنطقة، لكنَّهم تحصَّنوا داخل حدود الأراضي المحيطة ببيت حانون.

تجمَّع جنود الاحتلال في مدرسة هايل عبد الحميد للبنات، بعد أن تركها كلُّ النساء والأطفال الذين غادروا بيوتهم وتجمَّعوا فيها من قبل، ولم يَبْقَ فيها فلسطينيٌّ واحد، عندها قَرَّرَ المجاهد "مؤمن عكاشة" مباغتة العدو فيها، فأمطرها هو وإخوانُه بقذائفَ مضادَّةٍ للدبابات مرتين، وتَمَّ القضاء على عددٍ منهم، وهرب منها الكثير.

كان الجندي "حاييم إليستر" من الذين وصلوا إلى منطقة خزّان المياه "الحاووز"، وكانت المقاومة شديدة، فهرب من الخزان إلى أحد البيوت؛ فوجد أربعةً قتلى من جنوده، عَرَفَ منهم "جاي بويلاند"، وهو من مستوطنة "جينوسار" الذي كان من أوائل القتلى.

استمرَّتِ المقاومة على هذا الحال، وتَمَّ فتح فجواتٍ في الجدران ما بين البيوت، والانتقال من بيتٍ لآخرَ، ولم يتقدم الاحتلال خطوةً واحدةً لمدة ثمانية أيام.

في أحد الأيام جاءت سيدة إلى بيتها، ففوجئت بشخصٍ داخلَ حمّام البيت، أغلق الباب عليه، حاولت فتح الباب، سألت:

- هل من أحد في الحمام؟

- نعم أنا القسام.

- الله يبارك فيكم .. خُذ راحتك يا بُنَيّ.

جاء أحد المجاهدين يبحث عن طعام، فوجد ربطةً فيها خبزٌ متعفّن، فقام بمسح العفن عنه، وقام بتوزيعه على المجاهدين في أماكن رباطهم.

كانت وحدة الإسناد الخلفيّ للمقاومة تعرف أن الإعلان عن هدنةٍ أصبح وشيكاً، وقد رصدت وحدة الرصد حافلاتٍ كبيرةً تجمَّعت تحت وابلٍ من قنابل الدخان، عندها قامت وحدة المدفعية بإمطار اليهود بقذائف الهاون، فهرب الجنود، واستمرَّ المجاهدون في استهدافهم؛ حتى هربوا جميعاً!

بدأت التهدئة، وبينما كان العدوُّ يُخلي قتلاه وجرحاه، كان المقاومون يوسّعون الفتحات في جدران البيوت والغرف؛ حتى ينتقلوا من بيتٍ لبيت، فتجمَّع ثمانيةَ عشرَ من المقاومين، وفي الجانب المقابل بقي حوالي ألفِ جنديٍّ من لواء "نحال".

جاء وقت صلاة العصر، فأدَّى المجاهدون الصلاة، ثمَّ انقسموا إلى ثلاث مجموعات، ذهب "عبد الرحمن سعدات" مع عدد من المجاهدين إلى بيتٍ في طرف المدينة، كان يرجِّح أن فيه جنوداً، فوضعوا عبوةً على النافذة، وابتعد سريعاً، وانفجرت؛ فسمع الجميع صراخ الجرحى، وأخذ أحد الجنود يَسُبُّ الدين الإسلامي، وهو يهرب مع الهاربين، وقد تركوا جرحاهم وقتلاهم، ثم أمطروا المنطقة بقذائف الطائرات حتى تَمَّ إخلاء أشلائهم، وتركوا خلفهم ما يكفي لإطعام المئات، من

كلِّ أنواع الأطعمة والمكسَّرات والحلويات، بينما كان عند المجاهدين وقتها عشرُ تمراتٍ أفطروا عليها، وتسحَّروا على ما تبقّى منها!

قرَّرت قوات النخبة للمقاومة أن تقتحم موقع (16) داخل الأرض المحتلة، وهو يقع بين مدينة بيت حانون وقرية "هوج" في موقعٍ حَصِين، كان العدوُّ قد صَبَّ فيه عشراتِ الكتل الإسمنتية لمدة ستة أشهر، وقد تعرَّض هذا الموقع لقذائفَ ثقيلة في أول يوم للهجوم الذي شنَّه المجاهدون، نتج عنه استشهاد عشرة، وعاد اثنان بعد أن قتلوا قائدَ الكتيبة الصهيونية، ونائبَه، وستةَ ضباطٍ كبار، كانت الشهادة بطعم الانتصار، ذهب فيها الشهيد خالد، وبهذا مَنعوا خروج أيِّ جنديٍّ من الموقع للمشاركة في الهجوم.

بعد يوم من هذا الهجوم، تجمَّع من جديدٍ عددٌ كبيرٌ من النساء والأطفال والشيوخ الفلسطينيين في مدرسة وكالة الغوث في بيت حانون، وفجأةً جاءت طائرات العدوِّ؛ لتقتل ستةً وعشرين منهم؛ انتقاماً لما حدث لموقع (16)، وتَمَّ تدمير المستشفى، وقصفوا سياراتِ الإسعاف، وقتلوا اثنين من المسعفين.

هدأت المنطقة بعد انسحاب اليهود، وقد جمعوا أشلاءهم، وابتعدوا خلف الحدود بمساحاتٍ آمنة، وبدأ الأطفال الفلسطينيون يتسلّلون بعد بزوغ شمس اليوم الجديد، من مكان إقامتهم في مدارس الوكالة، ذهب اثنانِ منهم ليشاهدا بيتيهما، وهما متجاوران، وجدا الجدران قد تحوَّلت إلى نوافذَ للانتقال من بيتٍ لبيت، دون غضب أحد، ودون خوفٍ على أيِّ شيءٍ فيها، أعجبتهما الفكرة، فأخذا ينتقلان من بيتٍ لبيت، حتى وصلا إلى غرفة كان يرابط فيها اثنان من المجاهدين، كانت الجروح والخدوش تملأ وجهيهما، وقد حَشَوْا جروحهما بعجينةٍ من الدم والتراب؛ لوقف النزيف!

وقف أحدهما خلف نافذةٍ يُطِلُّ بجزءٍ من رأسه، والآخر يأخذ راحةً من سهر الليالي.

جلس الطفلان والسعادة باديةٌ على وجهيهما، جلسا بالقرب من المجاهد الساند ظهره إلى الحائط:

- أنتم من القسام؟

- نعم يا بني.

اتَّسعت العيون، وارتسمت بسمة على كلِّ ثَغرٍ، أخيراً شاهدا القسام حقيقة، وجهاً لوجه، الذي يرونه في التلفزيون.

جلسا يتأملان البيت، والحجارة المتناثرة على الأَسِرَّةِ والمقاعد، نظر أحدهما إلى الشرق، فوجد الشمس قد اعتلت

سطوح البيوت المنخفضة، بعضها خلف أشجار البرتقال، وبعضها يُطِلُّ من فوق حائطٍ مهدَّم، قال أحدهما للآخر:

- هل تعرف لماذا وجه الشمس أحمر؟

لم يجبِ الصبيُّ الثاني، فتوجه الأول برأسه إلى المجاهد الجالس، المستند بظهره إلى الحائط:

- وجه الشمس أحمر .. هل أصاب الشمس صواريخ من الطائرات، كما أصابت بيتنا ومسجدنا؟

ابتسم المجاهد رغم تعبه، وشعوره بالنُّعاس، ووضع يده على كتف الصبي:

- ما اسمُك؟

- حامد.

- اسمع يا حامد: الشمس لا يصيبها اليهود بسُوء، هي أعلى من الجميع، لا الشمس، ولا القمر، ولا النجوم، تطالها صواريخ اليهود، اطْمَئِنَّ عليها.

قال الصبي الثاني:

- أنا لا أحبُّ الشمس؛ لأنها تضيء للطائرات، حتى يقصفوا البيوت، ويقتلوا الأطفال، صاحبي محمد استشهد .. وأختُه، وأمُّه.

- لا يا حامد .. لولا الشمس ما عاش الشجر الذي نأكل منه، ولا تكوّن السحاب الذي يأتي بالمطر، والطائرات يا حامد فيها أجهزة تَرَى بها في الليل كما لو كانت الدنيا نهاراً.

بدأت طلقات الرصاص وقذائف المدفعية تتزايد، قال المجاهد الذي يرقب من النافذة:

- يا شباب مع السلامة .. عودوا إلى المدرسة، وسَلِّموا على الجميع.

قال حامد:

- نحن لن نقول لأحد: إننا شاهدناكم .. تمام؟

- تمام يا حبيبي.

وسط حالة من الصمت الرسمي الكامل، وغليان الشارع العربي والإسلامي منذ سبعة عشر يوماً، الذي امتدَّ إلى شوارع أوروبا وأمريكا وساحاتها، ينددِّون بالجرائم الصهيونية، والتواطؤِ الدوليّ، خرج الرئيس التونسي يدعو إلى قمةٍ عربية؛ لتحميل العدوِّ المسئوليةَ عن الجرائم، ولكسر الحصار عن غزة، ولم يعرف أحدٌ من الشعب تحت النار؛ هل عُقدت القمة أم لا؟ وهل كان يدعو أرباب "قمةٍ" أم أذناب "قمامة"؟ ومتى علَّقَتِ الشعوب العربية المظلومة أملاً واحداً على تلك الأنظمة ؟!

سارع وزير الخارجية الأمريكية؛ لإنقاذ كرامة السلاح الأمريكي، ودور المال الصهيوني في الانتخابات القادمة، دعا لوقف إطلاق النار بعد أن حصل بسهولة على موافقة مصرَ، والأردن، وتركيا، وقطر، .... فلم تَرُدَّ المقاومة الفلسطينية.

منذ بداية العدوان على قطاع غزة، انتقلتِ الأُسَرُ في كل مدن قطاع غزة وقُراه التي فقدت بيوتها؛ للعيش في أيِّ مكان، فمنهم مَنْ ذهب إلى المستشفيات، ونصب سواتر قماشٍ تقيهم حرارة الشمس، ومنهم مَنْ ذهب إلى أقاربه، وأغلبهم ذهب إلى مدارس وكالة غوث اللاجئين، إلى المراكز الدولية التي ظَنُّوا أنها تحميهم، وانقسمت فصول الدراسة الواسعة إلى أماكن عيش عائلات، لا يفصلها إلاّ سواتُر قماشيّةٌ مُثَبَّتةٌ أطرافُها في النوافذ، وقد تجمَّعت مقاعد الطلاب الخشبية في ركن هنا، وفي ممرٍّ هناك!

تحوَّلت حياة البشر إلى جحيم لا تطاق، أين يذهب هؤلاء من الرجال والنساء لقضاء حاجاتهم، طوابيرُ أمام دورات المياه، لا أحدَ يستطيع أن ينظِّف التراب عن جسده، وقد خرج من تحت البيت المهدَّم، لا يستطيع كبار السنِّ الوقوفَ في هذه الطوابير، ولا أن يجلسوا القرفصاء، فقد تحوَّلت إلى أماكنَ

غيرِ مناسبة، وكانت طوابير انتظار الطعام معاناةً أخرى للنفس قبل الجسد.

كان من بين العائلات من يرفض المقاومة، ويؤيد مشروع التفاوض الجاري مع الصهاينة، فتعمَّد أن يثير الشِّقاق داخل هذه التجمُّعات، ويُحمِّل المقاومة مسؤولية هدم البيوت، وتهجير الناس، وكان هناك من يَرُدُّ عليه من الرجال والنساء، فيتحوَّل التجمُّع إلى خلافٍ وصِدام، وسرعان ما يصمت هؤلاء؛ لِمَا يرون من شدة التأييد لإنجازات المقاومة وبطولاتها.

وكان من بين النازحين من يُدخِّن في هذه الأماكن المغلقة، فيثور الرجال والنساء خوفاً على أولادهم، وكرهاً لِنتّنِ الدخان، وتنشأ الخصومات، وفي كلِّ مرةٍ كانت تجد من يتدخل لِحلِّها.

***

كانت آلامُ فراق البيت، وضياعُ الذكريات، واحتراق الملابس، والفراش، والأدوات، واقتلاعُ الأشجار، ودمارُ المصانع والمزارع، وقتلُ الماشية، وتدميرُ الشوارع .. كانت آلاماً عميقة، وكانت المعاناة بعدها أشدَّ، ووسط هذه الآلام التي يعيشها الكبار، وجد الأطفال ساعةً من النهار؛ ليفرحوا رغم أنف العدوان، يتجمَّعون في ساحات المدارس، يلعبون ويلهون، يحاولون نسيان أشخاصٍ ذهبوا، ولن يعودوا إلى هذه الدنيا.

لم ترحمهم طائرات أمريكا، ولا أسلحتها الجديدة التي حملتها بوارجُ نقلٍ عملاقةٌ من قواعدها في العالم العربي، لِتصلَ إلى الأرض المسلوبة، ولتجد طريقها إلى أجساد الأطفال في مدرسة بيت حانون لِلّاجئين في شمال قطاع غزة، تفرَّقت أشلاء ستةَ عشرَ من الأطفال، مع مائتي جريحٍ من الذكور والإناث، والكبار والصغار، في ساحة المدرسة، وعلى بابها، أمام الآباء، والأمهات، والأجداد الذين هُرِعُوا يجمعون أشلاء مَنْ فارق الحياة، ويحملون الجرحى إلى المشفى القريبة، وهم يعلمون أن الطريق ليست آمنة، فقد يستهدفهم مَنْ ألقى الصواريخ على سيارات الإسعاف، وقتل المسعفين، والممرضين، والأطباء، ودمَّر المشفى!

لقد تحوَّلت المدارس إلى بيوت عزاءٍ بلا مُعَزِّين، تحوَّلت إلى مستودعات حُزنٍ، لو وُزِّعَتْ على الأمة الإسلامية لكفتها، وربما جعلت بعض زعمائها يشعر بالخجل؛ لأن هذه المدرسة لم تكن الأُولى، ولم تكنِ الأخيرة، فقبلها ضُربت مدرسة بحر البقر في مصر، ودُمِّرت بغداد على أيدي الأوغاد، الذين طغوا في البلاد؛ فأكثروا فيها الفساد!

في طرف المدرسة المكلومة في بيت حانون الحزينة، لم تغادرْ بُقَعُ الدم الكبيرة عقول الأطفال، وهذا صبيٌّ في الثامنة

من عمره جالس يُسند رأسه على كَفَّيْهِ، كما يفعل الكبار، وأمُّه تجلس على بُعدِ أمتارٍ منه، لا تريد أن تكلِّمه؛ حتى لا ينفجر بالبكاء، كما يفعل منذ فقد والده في بيتهم المهدَّم فوق رؤوسهم، كلما اقترب منه شخص سمعه يهمس لنفسه: الدم .. الدم، كان قد أصابه حجر في رأسه, وتوقَّف الدم بسبب تجلطه مخلوطاً بتراب البيت وغباره، ودخان القنابل، وربما أشلاء من والده وَجِدَّتِهِ اللذين قضيا شهداء .. صوت أمِّه لا يغادر أذنه:

- الجنة .. الجنة إن شاء الله.

فجأةً ضجَّت ساحة المدرسة بسياراتٍ بيضاءَ عليها أعلامٌ زرقاء، مرسوم فيها حلقةٌ من أغصان زيتون، رمزِ السلام، يا لَلْعَجَب؛ هل يوجد في هذا العالم من يُصَدِّقُ هذه المقولة "السلام" ؟!

نزل رجال وجوههم ليست كوجوه الذين يسكنون المدرسة، انتشروا في كلِّ ركنٍ فيها، وقد قُسِّمت فصول المدارس بأغطية، وقماش إلى عوازل بين العائلات، حيث ينام الرجال والنساء والأطفال وكبارُ السِّن، لا يفصلهم إلا هذه الأقمشة !

جاء من يدعي أنه طبيب نفسي، ليرمم ما دمَّره العدوان، مَرَّ مسرعاً من فصل لفصل، والناس تجري من حوله، وحوله حراسة:

- متى سننتقل من هذه المدرسة؟ متى سنعود إلى بيوتنا؟

نزل الزائر إلى ساحة المدرسة، فوجد الأم جالسة قد أسندت رأسها إلى كَفِّها حزينةً لا تبالي بالمنعوت زوراً بالزائر الكبير، والمنقذ العظيم، الذي لا حولَ له ولا قوة، أحد الذين زَيَّنوا الظلم، وسوَّغوا الإجرام الدولي، المبعوث الدولي كما يُسَمُّونه.

توقَّف أمام الصبي الذي لم يَجرِ خلفه، كما يفعل الآخرون، وقف أمامه، ولم يُعِرهُ الصبيُّ اهتماماً، فلا زالت كفَّتاه تُسندانِ وجهه على ركبتيه.

تحدث المبعوث الأممي إلى المترجم، الذي سأل الصبي:

- لماذا لا تذهبون إلى المستشفى؟

كرَّر المترجم الكلام مَرَّتين، وتدخَّلت الأمُّ تحثُّ ابنها، لِيَرُدَّ على الضيف ذوقاً وأدباً، فقال وهو ينظر إلى الأرض:

- أريد أن أذهب إلى الجنة عند أبي، وعند جَدِّي، وإخوتي الذين قتلتهم إسرائيل، ليس في الجنة طائرات إسرائيلية تقصفهم، أو تهدم بيوتهم فوق رؤوسهم.

وقفزت من بين جفون الصبيِّ قطراتٌ شفَّافةٌ من الدمع الساخن، ولكنه بقي متماسكاً.

لا أحد يعرف من البشر ماذا حدث في قلب المبعوث الأممي وعقله ووجدانه، وهل بقيت عيونه جافةً زرقاءَ وفقط، وهل

زادت ضَرَباتُ قلبه، هل قارن بين هذا الصبي وبين ابنه؟ هل يرضى بوجود هذه الآلاف في هذه المدارس، بينما أرضهم وأرض آبائهم يسكنها الروس والبولنديون والإثيوبيون، وكل من جاء من كلِّ بقاع الدنيا؟ هل وَصفُ دولهم لهذا الشعب بالإرهاب صحيح؟!

جاء اليومُ الثامنَ عشرَ للعدوان، كان شارع "النعايمة" في مدينة بيت حانون الصامدة على موعدٍ مع نصرٍ كبير؛ لِيُطْفِئَ المجاهدون غضبهم؛ لأن أحذية المحتلين عادت اليوم تقترب بعد أن طردوهم من غزة في عام 2005م شرَّ طَرْدة !

قرَّر مسؤول التدريب، الذي كان من أشجع المقاومين في بيت حانون، أن يقوم بخطف جنود محتلين، أحياءً أو أمواتاً، فصورة المعتقلين في سجون الاحتلال لم تغادر مُخَيِّلَتَه، ولاشك أنهم اليوم يستمعون إلى الأخبار، وأجسادهم تختنق بجدران السجن، كأنَّ قلوبهم تكاد تقفز من صدورهم، تتمنى لو كانت في شَرَفِ المواجهة مع هؤلاء المحتلين، كان مسؤول التدريب الفلسطيني سجيناً سابقاً، يعرف أهمية أن يقع جنودٌ يهودٌ في يد المقاومة؛ أَسرُ جنديٍّ واحدٍ سوف يَمسَحُ كرامة الدولة الكبرى بأزقة المخيمات والأحياء وشوارعها، ليس في

كلِّ فلسطين، ولكن في أروقة الدول الكبرى، التي تعلِّق عليهم آمالها.

- سنعمل لهم كميناً في الساحة، سنستدرجهم، وعند انسحابهم نشتبك - نحن الستة- ضدَّهم، المهم خطف الجنود .. الله أكبر ولله الحمد.

سار الرجال الستة حوالي سبعمائة متر، بين البيوت من فتحة جدار إلى أخرى، حتى وصلوا عين النفق، ظلُّوا على بُعدِ عشرة أمتارٍ منها، وأخيراً أقبلتِ الفريسة، آليةٌ حاملةٌ للجند، وجرافةٌ عملاقةٌ، ودبابة، نزل منها الجنود مسرعين إلى بيت كبير يتكون من طابقين، حتى إذا أقاموا فيه لحظاتٍ أطلق مسؤول التدريب قذيفةً مضادةً للدروع على البيت، واتَّبعه المجاهد الثاني بواحدةٍ أخرى، ثم توقَّفا ليشاهدا الدخان والنار، وأدركا أن القذيفتين قد آتت أُكُلَهما.

كان بقيةُ المجموعة الأربعةُ قد استعدوا لاستقبال القوة التي ستأتي؛ لتنقذ المصابين، وتنقل القتلى، ولم يَخِبْ ظنُّهم، فَقَدْ جاؤوا مسرعين، أطلق عليهم إسماعيل قذيفةً، فانحرفوا بعيداً، ووقعوا في الفخِّ تماماً، لقد اتَّجهوا جهة المجموعة المجاهدة الأخرى، فوقع العدوُّ بين فَكَّيِ الحوت الحانوني، ثَمَّ قنصُ خمسة جنود، كان صوت الرصاص أقلَّ تأثيراً في نفوس

المعتدين من التكبيرات .. الله أكبر ولله الحمد .. نصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده .. الله أكبر، ولله الحمد.

وعلى الجانب البعيد كان إبراهيم، خبير القنص المتميِّز ينتظر فريسته الثانية والعشرين، وكان أخوه قد أعدَّ آلة التصوير؛ لينقل هذه الحادثة إلى العالم، وجاءت الفرصة، دبابةٌ عملاقة من "الميركافاه 4" وقفت تطلق النار على البيوت، وجَّه إليها إبراهيم بندقيته "الغول" التي لم تستطع أن تطاوله رغم طولها، فهو جميل الوجه، مبتسم الثغر، طويل القامة، أبيضُ البشرة، يبتسم وهو يركِّز بندقيته، إنه اليوم يبستم بعد أن رأى فريسته تقف خارج مدخل الدبابة العلوي، أطلق رصاصةً واحدةً مشفوعةً بصيحة "الله أكبر".

سجلت آلة التصوير ذراع الجندي وهي تغادر جسده، وتطير بعيداً عنه، وسقط الجندي على الدبابة غارقاً بدمائه النجسة.

دخل المقاومون الستة إلى البيت الكبير، فوجدوا خمسةَ عشرَ جندياً صرعى، وانتظروا مجيء المسعفين؛ ليضيفوا إلى هذا العدد المزيد.

لم يحضر أحد، فقد هربوا شرقاً، وبدأ الطيران يدكُّ المكان، فابتعد قائد التدريب وإخوانه إلى بيتٍ بعيد في شارع أبي عودة، سأل القائد أخاه:

- ما تاريخ اليوم؟

- الخامس والعشرون من تموز، الثامنَ عشرَ من العدوان علينا.

فجأةً دخلت والدة الشهيد نادر أبي جراد، وقد حملت دجاجتين مُحَمَّرتينِ، وصَحفةً من الأرز الأصفر الذي يَشتهر به سكان تلك المنطقة.

- السلام عليكم يا أبنائي.

قام قائد التدريب، فأنزل من يديها الطعام، وحيَّاها، وأجلسها على حجرٍ من جُذاذ البيوت المهدمة:

- يا خالتي احذري، فالمكان خطر .. والقصف من حولنا سيزداد.

تنهَّدت الأم، وتحركت قطرات دمعٍ بين جفونها، وقالت:

- ذهب الغوالي إلى رَبّهم، إنه يحبُّهم أكثر منا، فأكرمهم واصطفاهم، ولم يَبقَ لِيَ إلاّ ألمُ الفراق!

سادت فترة صمت، مسحت الأمُّ دموعها، ولم تلحظ دموع المجاهدين إلا بعد فترة، ثم تبسمت، وقالت:

- يا ابني يا حبيبي .. قابلت زوجتك بالأمس، قالت لي ابنتك الجميلة: هل تعرفين يا عمتي أن غداً يوم ميلادي، أصبح عمري تسعُ سنوات، هل سيذكرني أبي؟ هل هو حيٌّ، أم شهيد؟

ولم يعقّب المجاهد، وفجأةً أقبلت سيدتان تحملان الماء، قالت إحداهما وقد قَبَّلَت يدَ أمِّ الشهيد:

- كيف حالكِ يا عمتي؟

- بخيرٍ والحمد لله، لماذا حَضَرتُنَّ؟ المنطقة خطر!!

- الذي جاء بك جاء بنا، يا شباب هذه البيوت بيوتكم، لا تَتَرَدَّدُوا أن تأخذوا منها ما تريدون، الجميع يتحدث عن بطولاتكم في شارع النعايمة، كلُ غزة تعرف ماذا فعلتم، لقد رصدوا عدد الخسائر في العدو.

تنهَّد مسؤولُ التدريب، قائدُ هذه المجموعة الباسلة، ونظر من فتحة الجدار، وقال بهدوء:

- أرجو أن تغادروا، سنتناول الطعام، وبعدها - بعون الله تعالى- سننهي وجود العدوِّ في بيت حانون اليوم، الجمعة 25 تموز، سنُخرج من بقي منهم اليوم إن شاء الله .. فلا ترجعوا يا أخواتي، هل تسمعين يا خالتي؟ .. نحن بخيرٍ اطمئنوا.

تناول المجاهدون طعامهم، وأَلَحُّوا على أمِّ الشهيد نادر أبي جراد أن تأخذ نصيبها منه، وكذلك الأخوات، أَخَذنَ نصيبهن، وجلسنَ في زاوية غرفةٍ أخرى، يتنصتن بحذر، فأصوات المجنزرات تتصاعد، وتقترب في مسامعهم، انطلقت أمُّ الشهيد نادر والسيدتان وهن يستمتعن بشعورٍ يُسَمِّيهِ الآخرون بالشجاعة، هذا الشعور الجميل، لا خوفَ فيه، ولا حَزَنَ، ولا تردُّدَ؛ بل متعةٌ لم يستشعرنها من قبلُ، وغادرنَ المكان.

قال القائد:

- علينا في ساعةٍ واحدةٍ رصد كلِّ مكانٍ يمكن أن يكون فيه بقية من المجرمين، سننطلق، وسيكون يومُ شارع النعايمة جزءاً من تاريخنا، نكمل صورته في الساعات القادمة .. على بركة الله.

تحرَّك المقاومون بهدوءٍ من بيت إلى زقاقٍ ضيقٍ إلى بيت، ومن بيتٍ لآخر حتى عادوا بعد ساعة وقد أجمعوا على حقيقةٍ واحدة: بيت الحاج كامل هو الهدف، كلُ مَنْ تبقّى من المعتدين حياً قد تجمَّع فيه.

أخذ قائد التدريب يشرح خطته، إن الغاية هي تنظيف بيت حانون من آثار العدوان، لِيكنْ هذا اليومُ الثامنَ عشرَ للحرب، نهايةَ وجودهم في بيت حانون، وحانت لحظة التنفيذ.

جنَّ الليل على البلاد، فزحف أحد المجاهدين يحمل على ظهره عبوةً ناسفةً كبيرة، وضعها في بداية الليل بالقرب من باب بيت الحاج كامل، ومَدَّ الأسلاك، وابتعد عن البيت، دخل وأغلق الباب خلفه؛ حتى لا يمتدَّ الانفجار إلي إخوانه، أخذوا يرصدون الشارع من ثقبٍ في الجدار، فجأةً اقبل حمارٌ أَبَقَ من صاحبه، وأخذ يزيح العبوة برأسه، ألقى المجاهد عليه حجراً فلم يبتعد، واستمرَّ الحمار يحاول قلب العبوة الناسفة، علَّه يجد طعاماً فيها، اضطر المجاهد أن يقذفه بحجر من الأحجار الكثيرة في الحارة، فابتعد الحمار.

عاد المجاهد، وبقوا يرصدون البيت حتى العاشرة مساءً، الكلُ يكتم أنفاسه، قام القائد المجاهد وقد خاف أن تَمُرَّ الليلة دون أن يقيم ليلةً في طاعة الله سبحانه وتعالى، وبقي شابٌّ يراقب العبوة، والبيت المسكون بشياطين الإنس.

فجأة أقبل الشاب مسرعاً، وطلب من المصلين إنهاء الصلاة فوراً.

كان الضابط "جلعاد يسترنك" قد نسى أن اليوم هو الخامس والعشرين من تموز المشئوم وهو يقترب من الشارع الضيق، ومعه أربعة جنود من وحدة "يهلوم" قد الْتَفوا من الخلف؛ لتفجير العبوة المزروعة في الشارع، حتى إذا وصلوا في مرمى نار القائد الحانوني أطلق عليهم النار من رشاشه؛ فقتل على الفور الضابط "إيجال يسون"، وسقط اثنان آخران صرعى بجوار الباب!

ألقى "جلعاد يسترنك" ثلاث قنابل يدوية على المهاجمين، الذين بَدَوا كأنهم أجساد حديدية لا تخاف الموت، ولم يُصابوا بأدنى أذى!

التفَّ المجاهدون خلف المبنى؛ لخطف جنديٍّ، هي الغاية التي تحركهم بقوة، بعد خمسِ دقائق وصل الرقيب أول احتياط "يوجيف أوفير" كان أوفير قائداً في كتيبة (931) من قوة لواء "الناحل" العاصفة، كانت السرية التنفيذية في

كتيبة "شاحم" قد فقدت أحد جنودها، وجُرح الباقي؛ بسبب قذيفة مضادَّة للدبابات، قام "أوفير" بسحب المصابين، وإبعادهم عن نيران المعركة.

كان "جلعاد باسترناك" قائد السرية ومجموعته جالسين في الغرفة، وجوههم صفراء شاحبة، الخوف ترتعد منه فرائصهم، ويُسَرِّع من أنفاسهم، يحاول كلٌ واحدٍ منهم أن يبدوَ متماسكاً، فجأةً أصابت قذيفة البيت، فامتلأ بالغبار، وتساقطت الجدران عليهم، حاول باسترناك أن يرد على الجندي "جاك" أحد المستنجدين، وهو لا يعلم أن باسترناك يريد من يساعده.

وهم وسط جراحهم وقتلاهم، جاءت إشارة بتكليفٍ جديد، أن مهمتهم أن يصلوا إلى شارع صلاح الدين، ثم يتقدَّموا جنوباً نحو مدينة غزة؛ ليقولوا: إنهم دخلوا، واحتلوا، ونجحت الحرب البرية !

كان على مهمتهم أن تبدأ الساعة العاشرة مساءً، كانت القوة مكونةً من أربعةَ عشرَ جندياً من مقاتلي الناحل، ويهلوم، ووحدة عوكتس، وقفوا ليخرجوا في الموعد من الفتحة في الجدار، بقوا يحتمون خلف جدار بجوار باب حديدي.

كان الضابط "بنيف هرتمان" يعرف أن معه سبعين جندياً، قد تَقَسَّمُوا إلى ثلاث مجموعات، ودخلوا ثلاثة منازل،

اقتربت الساعة من العاشرة وهم محبوسون في الغرف الثلاثة، وبينهم القتيل "إيجال يسون" في الشارع، وكان الجنود يطلقون الرصاص حول القتيل؛ حتى لا يقتربَ منه رجال القسام؛ فيخطفوا جُثَّتَه!

هدأت موجة إطلاق النار، فقد أراد المقاومون أن يوهموا العدو أنهم ماتوا، أو انسحبوا .. خرج جنديٌّ يهوديٌّ ومعه كشاف كهربائي يُطِلُّ برأسه، يستطلع الشارع المعتم، كرَّر الجنديُّ ذلك ثلاث مرات، ولمَّا اطمأنَّ خرج ثلاثة آخرون، ووقفوا بجوار العبوة.

قال القائد المجاهد لأحد إخوانه:

- اضغط الصاعق، وفجِّر العبوة.

نفذ المجاهد ما طُلب منه، ولكن لم تنفجر العبوة، ولم تعمل البطارية، كرَّرها مرتين، وبدأ الدم يغلي في رأسه، وارتفعت دقَّات القلوب غاضبةً، تكاد تخرج من الحلق، وهي تلهث بالدعاء .. يا رب .. فجأةً انفجر الجدار، ووقع الباب الحديديُّ على بعضهم.

انفجرت العبوة فمزقت الجدار والأجساد، وكانت المفاجأة أعدادٌ كبيرة كانت في البيت وحوله، واستمرَّت المواجهات لمدة خمسٍ وأربعين دقيقة، وبدأت الطائرات تقصف

كلَّ مكان، فانسحب المجاهدون من البيوت المهدمة، وتركوا خلفهم زُهاءَ عشرين قتيلاً من المعتدين.

أسرع باسترناك يرفع الباب عن الجنود، ففاجأتهم صليات نارٍ كثيفةٌ، فصرخ باسترناك في جهازه اللاسلكي:

- وقعنا في كمينٍ مكوَّنٍ من عشرين مخرِّباً، قُتل عندي الرقيب "إيجال يسون" من وحدة يهلوم.

صدرت الأوامر لقوةٍ من الجنود؛ لنجدة قتلى بيت الحاج كامل وجرحاه، وأسرعتِ القوات الإسرائيلية المهاجمة؛ لِتُنقِذَ قوة باسترناك، ونائب قائد السرية "هرتمان" .. وجدوا الجنود قتلى، وحولهم عددٌ من الجرحى يُخرِجون في تثاقلٍ ما في حقائبهم العسكرية من قنابلَ يدوية.

- خذوا ما معنا؛ فنحن غير قادرين على استعمالها.

تولَّى "لي" ضابطُ صَفٍّ السرية، والرقيب أول "يوغيف" مهمة نقل المصابين إلى البيت المدمَّر مرةً أخرى عبر الفتحة الكبيرة في الجدار، وهربوا بقتلاهم الذين لم يعلنوا عنهم حتى اليوم، وانتشلوا فوق عشرين من الجرحى، وانتهت قصة بيت حانون؛ حيثُ دفن الجيش الذي وُصِفَ بأنه لا يُقهر جزءاً كبيراً من كرامته تحت أنقاض بيوت المجاهدين!

ختموا يومهم الثامنَ عشرَ للعدوان، وقد ودَّع قطاع غزة كلُه أرواح اثنين وثمانمائة شهيد تتسابق أرواحهم إلى السماء،

منهم تسعون ومائة طفلٍ، وخمس وسبعون سيدةً، وأربعون من المسنين، وتركوا في المستشفيات ثمانيةَ عشرَ ومائةً وخمسة آلاف جريحٍ، منهم خمسُمائة وألفُ طفلٍ، واثنتا عشرة وألفُ سيدةٍ، وثلاثة ومائتان من المسنين.

***

أشرقت شمس اليوم التاسع عشر للحرب، حيثُ اجتمع مَنْ نجا من المجاهدين في أحد البيوت البعيدة عن ساحة معركة الأمس، وبدؤوا صلاة الضحى بالتيمم بالتراب، لا يعرفون هل اختلط بدماء الشهداء، ودموع الأطفال، وعرق المجاهدين، وهم على حالهم بين يدي الله تعالى، اختارهم؛ لِتصعدَ أرواح ثلاثة منهم إلى الجنان، وبقي اثنان تحت ركام البيت وسط الغبار، فخرجوا وهم يُحصُون القذائف التي تسقط عليهم، ثلاث قذائفَ في كلِّ دقيقةٍ على مدار المعركة الأخيرة في مدينة العزِّ والفخار .. بيت حانون.

***

تنفَّس الشجر، والحجر، والبشر شيئاً من الهواء النقيِّ القادم من البحر، فقد كانت أمواجه ترتفع بقَدَر؛ لتلامس وجه غزة المغطَّى بالتراب والدخان والبارود؛ ولِتُنظِّفَ ذلك الهواء، وتبعثه مع الدعاء إلى صدور الجرحى، والثكالى، واليتامى، والمجاهدين فوق الأرض، أو في الخنادق، أو تحت

الركام، انتظاراً لإنقاذهم، كان الهواء يحمل أوزار لصوص الأرض، ويذهب بها إلى الشرق؛ حيث يسكن اللصوص، فتلك بضاعتهم رُدَّت إليهم!

تحرَّكت الأمم المتحدة برجاءٍ وضغطٍ، وتوسلٍ وتخويفٍ، من اللصوص وحلفائهم، فأعلنت عن تهدئةٍ إنسانيةٍ مدة اثنتي عشرة ساعة، وافقت عليها المقاومة، و تَمَّ تمديدها ليومٍ واحدٍ؛ خدمةً لمشروعها، وحُبَّاً في شعبها، ورغبةً في إنقاذه ممَّا أصابه، واستعداداً للساعات التالية، لقد نسي الشعب أن هذه وقفةُ العيد التي كان يشتري فيها الأطفال ملابسهم الجديدة، اليوم يبحثون عن الأكفان، بفضل عدوان الجيران، وخذلان زعماء أمةٍ خافت من اللصوص والأعوان، وبقيت أسيرةَ الخوف من الطغيان؛ فماذا يفعل الخائفون ؟!

جاء أول أيام العيد ليواكب اليوم الثاني والعشرين للحرب، والعيد عند غزة بدايةُ عهدٍ جديدٍ من الصفاء الروحي للكبار، وهو فرحةٌ عظيمةٌ للصغار، العيد هذه المرة في هذا اليوم له طعمٌ آخر، لقد تَمَّ ذبح الفرحة في قلوب الشعب الفلسطيني، وفي قلب كلِّ إنسانٍ حُرٍّ في العالم، منذ بدأ السكين الأمريكي في أيدي اليهود يُقَطِّعُ لحم البشر في قطاع غزة، نسي الناس طعم الفرحة، فقد احتلَّ الأسى كلَّ مكان منذ اثنين وعشرين يوماً !

عرضت جهاتٌ عديدةٌ وقف إطلاق النار في هذا اليوم، ورفض الجزّار أن يوقف نزيف دم الضحية، وتحدّى الأطفالُ هذا المجرم، لبس الأطفال بعضاً ممّا نجا من ملابسهم، وخرجوا في العيد؛ يَتَحَدَّوْنَ كلَّ ذَبَّاحي البشر في العالم، وصعب على المجرم أن تهزمه ملابس العيد، وبسماتٌ ارتسمت على شفاه تمزج بين الحزن والفرح، بسماتٌ تبدو على شفاه الشهداء لحظةَ مغادرتهم هذه الدنيا!

نزلت صواريخ اليهود على أطفالٍ أمام محلٍّ بيع حلويات في طرف مخيم الشاطئ، غرب مدينة غزة، فاختلطت الدماء بالشراب، واختلطت أشلاء الأطفال بالحلوى التي لم تصل إلى أفواههم، صرخ الكبار والصغار، الذين تجمّعوا لنقل الأشلاء إلى المستشفى، وتجمّدت الأنفاس في صدور من يشاهد أشلاء الأطفال في ملابس العيد على وسائل الإعلام، تجمّد الزمن عند هذه اللحظة؛ ليرسمها بوضوحٍ كامل؛ نحتاً على صخور الضمائر الميتة المتحجرة المتيبسة!

كانت قطرات الدم التي سالت على الشارع ترسم خريطة فلسطين، والطرق المؤدية إلى القدس، كانت بقع الدم تتجمع على الأرض في موقع القدس من الخريطة، تُذكِّر بأيامٍ خلت، كتبها التاريخ في أواخر عام 1099م، عندما تجمّعت هذه الدماء، دماء الأجداد في المسجد الأقصى المبارك، سبعون

ألف جسدٍ سُرِقَتْ أرواحهم، سرقها لصوص أوروبا الصليبيون، برعاية .باباوات اللصوص وملوكِهم وسلاطينِهم، لصوص الأرواح البريئة، الذين عَزَّ عليهم أن يُعْبَدَ الله في هذه الأرض حقَّ العبادة، رفعوا يومها شعار فريضة تحرير قبر "الرب" من الكفار، ومثل كلِّ اللصوص فقد كذبوا، فلا الربُّ هو الربُّ؛ بل هو عيسى بن مريم، عبدُ الله ورسوله، وعيسى – عليه السلام- لا مات ولا دفن في القدس؛ بل رفعه الله من بين أيديهم المشرعة بالسيوف والسكاكين، وألقى شبهه على رئيس العصابة، فقتلوه، ولا كان أجداد المسلمين في هذه الأرض كفاراً؛ بل هم أتباع خاتم الرسل والأنبياء – عليه الصلاة والسلام-، وحملة رسالة الحق، والعدل، والحرية.

كان صوت قادة الكنائس المسيحية الوطنية في غزة والضفة مكملاً ومجملاً للمشهد الفلسطيني؛ يؤكد على وحدة الصف المقاوم في مواجهة الاحتلال والعدوان، في اللحظات الصعبة ذهب قادة الكنائس بعيداً في تحدِّيهم للعدو، ودَعَوْا إلى مواجهته، وإيلامه بكلِّ الوسائل.

ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة، لكن الصورة اليوم قد اختلفت، فقذائف الرعب تنطلق، قذائف القسام، وخلفها نيرانٌ تحرق كلَّ من يحاول اللحاق بها، تنطلق من مركز العزة والكرامة

إلى أرض متعطشة أن تَشُمَّ رائحة عَرَقِ المجاهدين عليها؛ تعطِّر به جوَّ فلسطين وسماءها، ولتزيح روائح الخمر اليهودية، ولتلقيَ بأكاذيب قادتهم في مزابل الإعلام، التي لا يُصَدِّقُها إلا الخونة!

جاء دور منطقة الزيتون، وجارتِها الشرقية "الشجاعية" أن تقدِّما "عيدية" الشعب الفلسطيني في أول أيام العيد في قطاع غزة، بعد صوم شهر الصبر والثبات، الذي ارتوت فيه الأرض بدماء الشهداء، وغُرِسَت بأجساد الشهداء الذين ارتقت أرواحهم إلى بارئها كما، أشرف فيها المجاهدون على الموت في نفق القرارة العميق!

كانت منطقةُ الزيتون في تاريخ فلسطين، وهي بيتُ استقبال القادمين من مصر ومن الشام، حلقةَ الوصل بينهما، تحمل الخير للجميع، وكانت قلعةَ التصدي للعدوان القادم من الشمال، أو من الجنوب، اقتطعت غزةُ من حدودها الشرقية طريقاً؛ ليمرَّ منه الغزاة من الشمال إلى الجنوب، أو من الجنوب إلى الشمال، فأوقفت زحف هؤلاء، وسمحت لهؤلاء؛ لترسم تاريخ العالم القديم وتكتبه، وفق ما تريده هذه البلدة الصغيرة، التي ضمَّت كنيسةَ "للملكة هيلانا" في أعلى منطقة من المدينة، وسط البيوت، فوق التلة الخالدة غزة، وسمحت للكنيسة أن تحفر نفقاً يمتدُّ من الكنيسة إلى شاطئ البحر

غرباً، واستضافت غزة القبائل القديمة؛ فعاش فيها الرومان، وبَنَوْا كنائسهم، لتجاور المساجد التي جاءت بعدها!

استضافت المعبد الذي هدمه "شمشون"، وحوّلته في عصرها الجديد إلى مدرسة "هاشم بن عبد مناف"، واحتضنت أرضها قبر "الشمشوم الجبار" على بُعْدِ أمتار من المعبد المهدَّم أو المدرسة، وللغرب - وعلى بعد حوالي خمسمائة مترٍ- استضافت غزة قبر السيد "هاشم بن عبد مناف"، جَدِّ الرسول الأعظم محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم- الجد الذي جاء في تجارةٍ بين الشرق والغرب من الجزيرة العربية، وعلى شارع غزة الشرقي، وبالقرب من أبواب قلعة صلاح الدين الأيوبي التي تحوَّلت اليوم إلى "مدرسة الزهراء للبنات"، بعد أن ذَبَحَ الصليبيون سبعين ألفاً في المسجد الأقصى، في نهاية القرن الحاديَ عشرَ الميلاديّ، وتوجَّهوا إلى غزة لإخضاعها، ولكن رجالها الأطهار كانوا سنداً منيعاً، فأوقفوا زحفهم، وشردوا جمعهم، وتعطرت أرضها الطاهرة بالدم الزكيّ، واحتضنت أجساد الشهداء، بالقرب من المسجد الذي يحمل اليوم اسم القائد الهمام، مسجد صلاح الدين، وبقيت أعمدة "شواهد القبور" مخلِّدةً أسماء الأبطال، حتى جاء الاحتلال اليهودي في

عام 1967م؛ ليزيل هذه العلامات، ولم يستطع أن ينتزع خلايا الأجساد الطاهرة من تراب المدينة الباسلة.

من جديد غزةُ تُعِدُّ عدتها في حيِّ الزيتون الأصيل، وقد هيَّأت شبابه للتصدِّي الجديد لنجمةٍ سداسيةٍ مزَّيفة، هي من أذرع الصلبان المدمَّمة بشهداء الأقصى، سَمَّوْها نجمة داوود، وهو -عليه السلام- منهم براء.

استشعرت المدينة خطر الصلبان المتجمِّعة في نجمة صهيون، كانت المدينة صائمةً قائمةً، تصلي المغرب، تفطر وتتسحر على حبَّات تمرٍ، ويعلو صوتها فوق صوت المدافع، وصوت القذائف، التي ترسلها دبابات النجمة من الشرق، أو تسقطها الطائرات التي صنعها الصليب في الغرب؛ لتنتقم من أحفاد صلاح الدين.

كانت البيوت تتهاوى وتسقط، تتكوَّم في غير ترتيب، بعضها يجثهم فوق أجساد النساء والأطفال والشيوخ، والتراب يغطي كلَّ شيء من الأجساد المطحونة، كانت الأصوات تكبِّر الله، وتعلي ذكره، وتدعو: حيَّ على الجهاد والمقاومة والاستشهاد، فأغاظت أعوانَ الصليب والنجمة السداسية، فاستمرَّ القصف يحصد الأطفال في اليوم الحادي والعشرين للعدوان، ليقتل واحداً وثلاثين وألف إنسانٍ، منهم ثمانية

ومائتا طفلٍ، واثنان وثمانون سيدة، وأربعون مسناً، ويجرحَ أكثرَ من ستة آلاف، منهم واحد وستون وخمسُمائة وألفُ طفلٍ ممن لا زالوا على فطرة الله التي فطر الناس عليها.

كانت الدماء ساخنةً في العروق الشابَّة، فتجمَّعت قيادة المنطقة، وبعيداً عن أعين الطائرات، والجواسيس، قام "أبو المنتصر" قائدُ لواء غزةَ والشجاعية، فجمع ثمانيةً من النخبة المميزة، شبابٍ بين العشرين والخامسة والعشرين من العمر، ففي هذا اليوم يومِ العيد، سقطت قذائف الطائرات على أطفال تجمَّعوا أمام محلٍّ لبيع حلوى العيد، فقتلتهم، لقد أوقدت هذه الجريمة الجمرَ في قلب كلٌّ إنسان، وبخاصة المجاهدون الثمانية وقائدهم، فأسرع إليهم غاضباً، وقال:

- كلُّ عام وأنتم منتصرون، هذه لحظة مباغتة العدوِّ من خلفه، لقد أعددنا عُدَّتَنا لهذا اليوم، نريد أن نهدي "عيدية" للشعب في هذا اليوم، وننتقم لدماء أطفالنا في مخيم الشاطئ، وأنتم في هذا النفق ستتمكنون بإذن الله، مهمتكم معلومة، الدبابات القادمة من الشرق في طريقها إلى الشجاعية والزيتون، نريد أن نُؤَدِّبَها حتى لا يتجرَّأ غيرها على الاقتراب، جاهزون؟

- جاهزون بإذن الله تعالى.

- انطلِقوا على بركة الله، من يُستشهد منا يشفع للآخرين، هذا عهدنا، لقد رصدنا قبل قليل الدباباتِ قادمةً، لا نعرف عددها؛ لأن الغبار كثيف، لكنكم تعرفون طريقكم إليها، انطلِقوا على بركة الله، وأخلِصوا النية.

كانوا قد اختاروا هذا المكان لحفر نفق يمتدُّ إلى داخل الأرض المحتلة، في الشهور التي سبقت هذه المعركة.

كان المجاهدون الثمانية قد نزلوا قبل ثمانية أيام إلى النفق بُعدَّتِهِم وعتادهم، وأدوات الحفر اليدوية، ووصلوا العين الأخيرة التي تخرج بانحدار مريح، وقاموا بفتحها، وإخفاء التراب في أحد تفرعات النفق، وأغلقوا الفتحة بالقش الجاف، وذهبوا ورصدوا في اليوم نفسه "أول أيام العيد" المنطقة، ووجد أحدهم موقعاً عسكرياً للعدو، مكوَّناً من سورٍ من الكتل الإسمنتية الضخمة المربعة، المرصوصة فوق بعضها، والتي ترتفع لخمسة أمتار عن الأرض، ورصدوا برجاً دائرياً إسمنتياً للمراقبة داخل الموقع، ولم يجدوا آثار جنودٍ فيه.

مكثوا عدة ساعات بالقرب من الفتحة التي تبعد عن موقع الجيش مائة متر تقريباً، وهي تقع في أرضٍ زراعية طينية، تم جمع ما فيها من نبات بذور عباد الشمس الكبيرة، وبقيتِ السيقان منتصبةً فوق الأرض.

دقَّ جرس الهاتف داخل النفق، فرفع قائد المجموعة السماعة وهو يستمع إلى "أبي المنتصر" يقول له:

- إن عدداً من الدبابات غير معروفة لدينا بسبب كثافة الأتربة تتجه نحو معبر المنطار، فتعاملوا معها.

كان المنطار مَعلَماً من معالم قطاع غزة، فهو جبل مرتفع عن سطح البحر بحوالي ثمانين متراً، في تماس مع الأرض المحتلة، وكان في هذا المكان في فترة احتلال العدو لقطاع غزة حتى عام 2005م، مصنعٌ لتشميع الحمضيات، التي كان يشتريها المستوطنون بأبخس الأثمان، ويلصقون عليها "زُرِع في إسرائيل"، ويُصَدِّرونها إلى العالم الذي لا يتحرج أن يأكل الحرام، وفي يومٍ من أيامِ انتفاضة الحجارة في آخر العقد التاسع من القرن العشرين، ذهب اثنان من المجاهدين، وتخلّصوا من اثنين، هما أصحاب هذا المصنع، فهرب بعده اللصوص، وأغلقوا "مصنع كارني" الاسم المزيف للمنطار، الذي تقول الأساطير: إنه كان هنا وليٌّ من الأولياء الصالحين، اسمه "المِن"، حدث في ظروفٍ غيرِ معروفةٍ أنه "طار"؛ فسمي "المنطار".

لقد استحضر أبو المنتصر عملية قتل لصوص مصنع كارني التي دَبَّرها القائد "عز الدين الشيخ خليل"، وهو الذي اغتالته عصابة إسرائيل في سورية بعد ذلك، ورأى أنه لابدَّ من

استهداف هذا المكان المُسَمَّى "نحال عوز"، وهو الاسم المزيف لمنطقة "هوج".

تحرَّك الأبطال الثمانية مسرعي الخطى، ثم دقَّ جرس الهاتف الأرضي مرةً أخرى، فردَّ قائدهم "أبو جهاد"، سمع أبا المنتصر يقول:

- الرصد يقول: خمسة وثلاثون آلية، أَسرِعوا.

أسرع الجند داخل النفق، ووصلوا فتحته .. خرج المجاهدون السبعة إلى أرض مستوية، مَشَّطَتها شفرات محراثٍ ضخم، وحصدت بذور عباد الشمس، لحق المجاهدون بالدبابات التي ابتعدت بسرعةٍ كبيرة في اتجاه الشرق، لم تستطع همة أرجلهم أن تجاري سرعة الآليات الكبيرة.

ضغط الشاب الأسمر الطويل الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين على مشغل آلة التصوير المعلَّقة على جبهته، وقد فرغت شواحن الآلات الأخرى، كان يسير مسرعاً في اتجاه الموقع، فقد زاره صباحاً، وشاهد وهو يسير آثار ثقبٍ في الأرض، كان قبل عام قد أخرج منه ماسورةً وكاميرا، وتَمَّ تصوير مدينة غزة في الغرب منه، وتصوير كلِّ المناطق.

كان يسير وهو يظنُّ أن خلفه إخوانه يسيرون على مسافات متباعدة، كانت دماء شهداء أطفال الشاطئ كأنها تجمَّدت في حلقه، أو تَجَلَّطت في حنجرته، كان يريد البكاء،

ولكنه كان يعضُّ على الألم بأسنانه، كان يرى في وجوه الأطفال المقتولة صورة أولاده.

كان قائد مجموعتهم "أبو جهاد" يحمل مسئولية الانتقام هدفاً فوق كلِّ الأهداف، كان والدبابات تبتعد آلاف الأمتار، يشعر بالإحباط، فدعا ربَّه ألاّ يَرُدَّهُ خائباً، وعندما أيقن أنه لن يلحق بالدبابات التي لم تَرَهم، قرَّر أن يدخل الموقع الخالي من الجنود، ويمكث فيه؛ انتظاراً لصيد يسوقه الله إليهم!

نظر خلفه فلم يجد سوى ستة من إخوانه، تفصلهم عنه مسافات قريبة، بينما لم يظهر الثامن، كان الثامن يَهُمُّ بالخرج من الفتحة، وخلف ظهره حقيبته المنتفخة بالذخيرة والقذائف، وكان قد وضع قاذفاً مضاداً للدبابات أمام جسمه، فَعَلِقَ في الفتحة الضيقة، كان كلما أراد أن يدفع أرض مخرج النفق بحذائه يبتعد التراب؛ حتى أصبح مغلقاً تماماً، فلم يستطع أن يخرج إلى سطح الأرض، ولم يستطع العودة إلى داخل النفق؛ ليخفِّف ممّا يحمل، ولكنه ظلَّ عالقاً معلقاً يكاد ينفجر غيظاً مع كلِّ خطوةٍ يقترب فيها إخوانه من الموقع، كان يريد أن يكون أوَّلَهم، ولكنَّ الله قد شاء أن يَعلَقَ في هذه الفتحة "الملعونة"، وقد رآها إخوانه بعد ذلك الفوهة "المحبوبة"!

اقترب "أبو جهاد" من الموقع، لم يسمع صوتاً، اتَّجه إلى شمال الموقع، فوجد باباً موصداً بجنزير وقفل، ازداد يقيناً أن

الموقع فارغ، لحق به زميله "أسد الله"، فنظر إلى داخل الموقع من خلف فتحات الباب الواسعة، وصاح:

- هذا جنديٌّ، إنه جنديٌّ، تعالوا .. هنا جنديّ.

كان الجندي واقفاً وقد ألصق ظهره بجدار البرج الإسمنتي المرتفع لأكثرَ من عشرة أمتار، لقد تيبّست عضلاته، وتوقّفت أنفاسه، فأمامه من يلبس زيَّ جنديٍّ إسرائيلي.

أسرع أبو جهاد إلى قُفْلِ الباب، وأطلق رصاصة من قرب؛ فانكسر القفل، ودفع الباب بقدمه، عندها هرب الجندي خلف البرج.

ذهب أبو جهاد إلى يسار البرج، بينما ذهب أسد الله إلى اليمين، فإذا بتسعة جنودٍ جالسين القرفصاء، وأسلحتهم مستندة على الحائط بجوار أرجلهم، وأيديهم مُشَبَّكة على رؤوسهم، كانوا قد سمعوا صوت إطلاق رصاصٍ كثيرٍ من يسار البرج، بعدها وضعوا أيديهم فوق رؤوسهم، وبنادقهم تلامس ظهورهم مستندة على الجدار، ترتعش بارتعاش أجسادهم، وبدؤوا يصرخون، ويستغيثون بأمهاتهم:

- إيما .. إيما ..

أطلق أسد الله عليهم الرصاص، أفرغ مخزن الرصاص فيهم، ثم استبدله بالمخزن الثاني، كان يطلق الرصاص وهو يعضُّ على أسنانه، وهو يتخيَّلُ أنه يَقْضِمُ أصابع الذين أطلقوا

القذائف على أطفال العيد في مخيم الشاطئ على ساحل بحر غزة الحزين.

كان أبو جهاد قد وصل إلى الجندي الذي كانت نظراته جاحظة، وكان درعه على الأرض، وبندقيته تمرّغت في التراب.

اقترب منه أبو جهاد، وكان قد دخل من شقٍ كبيرٍ شرق الكتل الإسمنتية، وصل إلى الجندي، وفجأةً أطبق الجندي الواقع على الأرض يديه على ساقي أبي جهاد، فحاول أن يتخلّص منه ويبقيه حيّاً، فلم يستطع، كانت حالةٌ من هستيريا الخوف قد تَمَلّكتِ الجندي، ظنَّ أنه بهذا سينجو، كان يصرخ مستغيثاً، ومتوسلاً.

حاول أبو جهاد، وأسد الله أن يحملاه فلم يستطيعا زحزحته، فقد تيبَّست أطرافه من شدة الخوف، فأطلق عليه ثلاث رصاصات، وتخلص منه.

فجأة أبصر أسد الله جندياً مغشيّاً عليه من الخوف قد حمله "يوسف"، الذي جاء بجنديٍ صهيونيٍّ كان هو الوحيدَ الذي يلبس درعه الواقي، وسأل قائده:

- هل نعدمه؟

- كلا نريده حياً.

نزع الدرع عن الجسد الذي يرتعد، وضربه بعقب البندقية على رأسه، وسَحَبه حتى البوابة، ففقد الوعي، حمله يوسف على ظهره، وأسرع به خارج الموقع، وقد هدأت المنطقة، وأسرع به نحو فتحة النفق، كان زميله قد سبقه يبحث عن فتحة النفق فلم يجدها، فأخذ يصيح:

- أين عين النفق؟ أين هي؟

كان أسد الله ويوسف وأبو جهاد يسرعون بالجنديِّ الحيِّ الذي بدأ يسترد وعيه، فأخذ يصرخ مستغيثاً بأمه "إيما .. إيما" ومن حقِّه ألاَّ يستغيث بأبيه الضابط السابق، فالرجال الصهاينة في هذه الحرب فقدوا مُبَرِّراتِ الاستغاثة بهم.

ومع اقتراب المجاهدين من فتحة النفق، ظهرت الدبابات من بعيد تطلق قذائفها باتجاههم، وبدأت زخَّات الرصاص تلاحقهم.

سبقهم الجميع، وقفوا حول عين النفق ينظرون إلى أخيهم العالق في عين النفق، ثم وصل أبو جهاد ويوسف وأسد الله إلى فتحة النفق، فوجدوا أخاهم عالقاً لم يظهر منه سوى رأسِه، فقام أسد الله بوضع قدمه فوق الرأس، ودفعه إلى أسفل، فوقع داخل النفق، وانفتحت أمامهم فرصة النزول، بدأ المجاهدون بالنزول، ولم يَبْقَ سوى أسدِ الله، ويوسف، والجندي المحمول، وفجأةً جاءت رصاصة من جنديٍّ إسرائيليٍّ كان فوق

البرج، مجمَّداً من الخوف، وقد استردَّ وعيه من جديد؛ فأطلق الرصاص على الجميع، فأصيب أسد الله في جدار صدره، ووقع على وجهه مغشياً على الأرض، وأصيب أبو جهاد بطلقة في أعلى فخذه الأيمن، ألقته على جانبه كأنه سقط من سقف بيت، وأصيب الجندي المحمول بطلقة في رأسه؛ فسقط من فوق كتفي حامله الذي كاد يدخل به فتحة النفق.

صاح أسد الله مخاطباً إخوانه الذين سبقوه في النزول إلى النفق:

- اذهبوا واتركونا هنا، لقد أوشكوا على الوصول إلينا كلِّنا.

صاح يوسف:

- والله لا نترك أُظْفُراً منكم، اذهبوا بالجرحى، وسنبقى هنا، إن شاء الله سنخرج من بوابة النفق، فإذا جاءوا؛ ليدخلوا منه، أو يضعوا فيه الغاز؛ فجَّرنا أنفسنا فيهم، فلا يصلون إليكم.

- وما تدرَّبنا عليه، وما اتفقنا عليه من قبل؟

- هذا شيء، ولكنَّ مشاعرنا أخي الحبيب لا تسمح لنا.

- إذن بعد نزولنا فجِّروا العين بعد أن تغلقوا الباب الثالث.

- هذا ما سنفعله بإذن الله.

ترك الرجال فريستهم، وأخذوا الجريحين، وأخذ أحدهم سلاح الجندي من نوع "تافور"، ونزلوا إلى النفق، وأسرعوا رغم

الألم، فالدماء تنزف، والتعب والإرهاق، يزيدهم وهناً على وهن، وأخذت الدبابات تقترب من الموقع.

حمل المجاهد الذي كان عالقاً أسد الله المصاب على ظهره، وأَسرَعَ به داخل النفق؛ ليبتعدوا عن الغاز الخانق الذي يمكن أن يَضُخَّه الأعداء من فتحة النفق.

أفاق أسد الله وهو محمولٌ على ظهر أخيه، ورائحة العرق منه كرائحة المسك، كان ينظر إلى النفق، وكأنه يراه لأول مرة، وهو الذي أشرف على إعداده منذ عامين، وتذكر حبيبَه "أبا الحسن" الذي خرج من هذا النفق في أول يوم للهجوم البريّ، حيث خرج وفجَّر جرافةً كانت على بُعدِ كيلو مترٍ واحدٍ من عين النفق، ثم أصابته شظايا الانفجار؛ فاستشهد، وهو الذي أخبر قائده أنه رأى قبل العدوان في المنام أن البحر سيثور عليه ويغرقه، وكأنه يعرف أن مصيره الشهادة؛ ففاضت الدموع على فَقْدِ الحبيب الذي فجّر الجرافة، وقضى في سبيل الله.

وصلوا جميعاً إلى منطقة الأمان، وأغلقوا ثلاثة أبواب خلفهم بإحكامٍ كامل، وجلسوا وقد سيطرت عليهم مشاعر السعادة بقتلهم الجنود التسعة في الموقع، ومشاعر الحزن لفقدهم الجنديَّ الذي بات لقمة عند فَمِ النفق، وقد اطمأنُّوا

أن إصابة الأخوين طفيفة، فقد سيطروا على النزيف، وضَمَّدوا الجروح.

لقد نجحت تدريباتهم المكثَّفة، وجهودهم في حفر النفق، ونجحوا في الوصول إلى ما هو أفضل من قنص الدبابات.

تفقَّد أبو جهاد آلاتِ التصوير؛ فوجدها كلّها قد توقفت عن العمل قبل خروجهم من النفق إلى الموقع، ولم تَبقَ سوى واحدةٍ قامت بتصوير المشاهد المطلوبة، كلُ ثانيةٍ منها لا تُقَدَّرُ بثمن، عمليةٌ بطولية، وجراةٌ لا تزويرَ فيها، ولا مبالغة، وخزيٌ وعارٌ على الجنود اليهود إخوان القرود .. كانت الخطة تحتاج إلى مزيدٍ من شواحن الكاميرات.

هدأتِ النفوس، وحين فرغوا من صلاة المغرب، قام أسد الله يذكرهم بالله، وبوجوب حمده وشكره على فضله وكرمه ثم جاءوا ببعض الأطعمة والحلوى المخزنة، بينما أسد الله بقي ينظر إلى إخوانه، فوجد أخوين غائبين، فضرب جبهته بكفِّ يده، وقال:

- أخوانا خلف الباب الثالث.

أسرع يفتحه وقد حمل في يديه بعضاً من الطعام، فوجدهما منهمكين في وضع بطاريات الشحن في آلات التصوير، فاستَسمَحَهُما عذراً، وقدم لهم الطعام الذي جلبه.

كان يوسف - وهو يحمل الجندي الجريح على كتفيه- قد تذكّر وصية جدِه، إمامِ المسجد، والذي لم يكن يفارقه إلا للنوم، أو تناول الطعام.

- يا بُني أعلم أنك من المجاهدين، لي عندك طلبٌ واحدٌ فقط.

صَمَتَ وقتها المجاهد وهو يعلم أن جدَّه لا يريد طعاماً، أو شراباً، أو كسوة، كان سكوته بسبب أنه يحاول جاهداً أن يُخَمِّنَ ماذا يريد جدُّه، وحتى لا تزداد حيرة الحفيد، قال الجد:

- يا بني .. إذا قدّر الله لك أن تدخل الأرض التي احتلها اليهود، اذهب إلى بلدتنا "قلج" و"رسوم" التي يسميها اليهود "نحال عوز"، وهي تقع شرق الشجاعية، واطْرُدِ الروس الذين يسكنون بيوتنا، اطلب منهم أن يرحلوا، واغسل الدار من بعدهم سبعين مرة، واسألهم سؤالاً واحداً فقط: ما الذي سَوّغ وجودهم في بيتنا طوال هذه المدة؟!، وإذا رفضوا فاقتلهم، وأحضر لِيَ واحداً منهم حيّاً؛ حتى نخرج به عمَّك من السجن المؤبد، هو وإخوانه، مثلما عملنا مع صفقة وفاء الأحرار .. هذه وصيتي، وهذا طلبي.

كان يوسف وهو يحمل الجندي على كتفيه يدعو ربَّه أن يكون هذا من الروس الساكنين بلدتهم "المُحَرَّقة، أو قلج، أو رسوم"؛ حتى يهدي هذا الخبر إلى جدِّه الحبيب؛ علّه يدعو له في صلاته؛ فيستجيب له الله، ويدخله الجنة.

بدأ اثنان في فتح باب الدخول إلى النفق، تحت البيت الذي كان ينتظرهم فيه قائد اللواء، وهو يرقب بالمنظار المكبّر مجرياتِ العملية، وصله أحدهم من غير المصابين، ووضع أمامه تسجيل العملية، نظر إليها، كان اثنتي عشرة دقيقة فقط، وابتسامته تتسع من لحظة الخروج من النفق وحتى العودة إليه، مع كلِّ صورة تظهر، حتى صاح:

- الله أكبر ولله الحمد.

خرّ ساجداً شاكراً، وهو الذي لم تَتحَنِ هامته أمام صواريخ العدوّ، ولا مجنزراته، ولا قذائفه.

- أسرع بهذه الصور إلى الإعلام، إنها تساوي ملايين الدولارات، هذه العملية بعد عملية أبطال البحرية في "هربيا" شمال بيت حانون؛ ستقصم ظهر الجيش المغرور.

تم صياغة البيان في نفس اليوم، وتَمَّ إخراج صور الجرحى، وتَمَّ ترتيب المادة الإعلامية الثمينة، وتَمَّ حذف بعض الصور، وقَدَّمها الأبطال من حيِّ الزيتون وحي الشجاعية عيديةً لأسر الشهداءِ الأطفالِ في الشاطئ في ثاني أيام عيد فطرٍ من هذا الطراز، طبخوها في أول يوم، وقدَّموها للعالم في اليوم الثاني للعيد، حملها قائد المجاهدين "أبو خالد الضيف" للعالم، وَزَيَّنتها صورة قطعة الرشاش "تافور" التي تَمَّ أَخذُها بسهولةٍ من يد جنديٍّ من الجيش "الذي زعموا أنه لا يقهر"،

وعشرة جنود قتلى، تَمَّ القضاء عليهم في اثنتي عشرةَ دقيقةً فقط!

***

بعد مذبحة كرامة الجيش الصهيوني الذي تمرَّغ اليوم أنفه في تراب خزاعةَ، والزنة، وقلج التي سَمَّوا جزءاً منها "نحال عوز"، بدت صورة الجندي مخزيةً وهو جالس بجوار سلاحه، واضعاً كَفَّيْهِ مشبَّكتين على رأسه، ينتظر مجاهداً واحداً؛ ليقتل العشرة دفعةً واحدةً، ولِينفِّذَ عملية واحدة في اثنتي عشرةَ دقيقةً ذهاباً وإياباً!

هنا جاء الصراخ الأعلى في كلِّ المستويات السياسية والعسكرية في دولة اللصوص، أغيثونا .. أدركونا، فطلبوا هدنة لمدة أربع ساعات، ورفضتها المقاومة.

وليس من عجبٍ أن يغيظ هذا الكثيرَ من المخلوقات، فجاءت عملية هدم الأنفاق على الحدود الجنوبية مع غزة شيئاً غير مُبَرَّرٍ، غيرَ معقول، وخارجاً عن السياق التاريخي، لكنَّ الهزائم تطيش معها الألباب.

على الفور، وعلى صورة دماء عشرةٍ من جنود العدو، الذين جلسوا ينتظرون الموت القادم من الغرب، لحظة انتقام أصحاب الأرض المسروقة من اللصوص، سارع مجلس أمن إسرائيل في الأمم المتحدة للدعوة لوقف إطلاق النار فوراً،

وتأمين مؤسسات الأمم المتحدة، فقد اعتدى الصهاينة على مؤسساتها، ولم تشجب، ولم تستنكر، ولم تتخذ خطواتٍ عقاب، ولكنِ اكتفت بالذي هو أدنى، الدعوة إلى حماية هذه المؤسسات، وبعد هذه العملية تسارع لوقف إطلاق النار، فهل هي حماية المؤسسات، أم إنقاذ المؤسسة الأم مستوطنة إسرائيل؟!

كان حصاد الأرواح في غزة حتى هذا اليوم، ومنذ اثنين وعشرين يوماً للعدوان خمسة وثمانين وألف شهيد، منهم واحدٌ وخمسون ومائتا طفلٍ، وأربعٌ وتسعون سيدةً، وخمسون مُسِنًّاً، وبلغ عدد الجرحى سبعين وأربعمائة وستة آلاف جريحٍ، منهم واحد وستون وخمسُمائة وألفُ طفلٍ، واثنتا عشرة وألف سيدةٍ، وواحدٌ ومائتا مُسِنّ.

أعلنت قيادة المقاومة أن عدد قتلى العدو حتى اليوم: بلغ عشرةً ومائة من الجنود والضباط، ووسط هذه الأجواء، حيثُ مصارعة الكبار، يُطِلُ على الساحة مَنْ أعلن أنه شكّل وفداً للذهاب إلى مصر، وفداً موحَّداً؛ ليتفاوض بطريقةٍ غير مباشرةٍ مع العدو.

لم تعرفْ غزةُ ما تبريرُ وجود من يتعاون مع العدو ضدَّها في وَفْدٍ يُمَثِّلُها؟ بل ويرأس وفدَها، كيف ينسجم؟!، كيف يلتقي وفدٌ يضمُّ من يرى خيانةَ الوطن أمراً مقدساً، وبين من

يريق دمه في سبيل الأرض، ويعتبر هذه التضحية عملاً "مقدَّساً"؟

كيف سيقف الوفد الذي يضمُّ "المدنَّس" مع "المقدَّس"، هل هي طيبة القلب، وحسن السريرة، والرغبة في الوحدة، أم ماذا؟! إنه حقاً زمن الغرائب والعجائب!

فهل كان لهذه المعاني مستقبلاتٌ في الأطراف كلِّها؟، لقد شكَّ الجميع في هذه المعادلة، وقالوا: دعونا نُجَرِّب.

استمرَّ العدوان في ذلك اليوم على كلِّ مناطق قطاع غزة، وكان برج رقم "سبعة وستين" من أبراج حيِّ الشيخ زايد في شمال قطاع غزة الضحيةَ الكبرى فيه؛ فهل حَقَّقَت تلك الجرائمُ أهدافها؟

لقد توقع الجميع أن تسقط حكومة العدوِّ هذه، وأن يأكل اللصوص بعضُهم لحمَ بعض، وأن يتصاعد الخلاف عند افتضاح أمرهم، كما يختلفون عند انتصارهم.

كانت الهزيمة مرةً، وآثارها عليهم كارثيةً؛ لأن السنن التي تجري عليهم جرت في غيرهم ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

مضت عشرة أيام على مذبحة المعتدين في الزنة، وفي محاولاتٍ لا تنقطع من تحقيق اختراقٍ لحائط المقاومة الصلب

في بيت حانون، والشجاعية، وخزاعة، وأبي طعيمة، ورفح - قرَّروا أن يعودوا إلى الزنة من جديد، فتَمَّ تجهيز قوةٍ جديدةٍ إلى محور الزنة، بعد عملية الْتفافٍ، ظناً منهم أن المقاومة قد غادرت المكان، واكتفت بما حقّقته من إنجاز، ولم يعرفوا أن خَطّاً جديداً للمقاومة تَمَّ تكوينه على مشارف مدينة بني سهيلا في نهاية حدود "الزنة".

دخل اليوم الثالث والعشرون للحرب الملتهبة في هذه المنطقة، وكان العدوُّ يريد أن يسجل أيَّ نصر؛ فقام بالهجوم السهل على منطقة الفراحين، حيث تقطنها عائلات عريقة، عَرَفَت طوال تاريخها كيف تخدم وطنها.

تقع منطقة الفراحين في الزاوية التي تنفرج فيها الحدود مع الأرض المحتلة عام 1948م، حيث تبدأ الحدود تتسع في الجنوب؛ لتصل إلى اثنَيْ عشرَ كيلو متراً، بين القرارة ومنطقة أبي ريدة، تقدَّمت الدبابات بسرعة، وكان عجب العدو شديداً؛ لسهولة دخوله إلى الفراحين، واستيلائه على مبنى العيادة الصحية، وهو بناء مهجور، متهاوٍ، يقع على مفترق طرق، ظنَّ العدو أن فيه فتحة نفقٍ؛ فقد انفجرت في المنطقة ناقلةُ جنودٍ قبل أيامٍ قليلةٍ من اندلاع عدوان 2012 على قطاع غزة، ظنَّ العدو أن الانفجار انطلق من هذا المكان، وفي محاولةٍ للبحث عن انتصار، كانت هذه فرصةً أن يسجِّل قائد هذه الكتيبة،

وقد أعدَّ خُطَّته لاقتحام المبنى؛ فبدأ بإرسال كلابٍ مدربة دخلت المبنى، وكانت آلات تصوير مثبتةً في رؤوس الكلاب؛ تصوِّر كلَّ شيءٍ في الداخل، خرجت الكلاب وكلُّ شيء هادئ، لا أحدَ، لا أثرَ، ولا نفقَ، فتحركت قوةُ استطلاعٍ مكونةٌ من عشرين جندياً، نزلوا من باب الدبابة الضخمة إلى باب المبنى مباشرةً، فقد كادت جنازير الدبابة تهدم الجدار لشدة قربها منه، وبذلك ظَنُّوا أنهم تفادوا قنصهم من بعيد.

كان المجاهدون في النفق تحت المبنى، وقد سمعوا أن المعتدين بدؤوا في هدم الجدران الداخلية، لتصبح مركز قيادة؛ لتنفيذ خطة هجومٍ جديدٍ على منطقة عبسان الكبيرة، تلك المنطقة التي تقع على بعد خمسة كيلو مترات شرق مدينة خانيونس، ويبلغ عدد سكانها عشرين ألف نسمة.

صدرت الأوامر داخل النفق بهدم المبنى في الوقت الذي يكتمل فيه دخول الجنود، قال أحد المجاهدين:

- تفجير المبنى قد يغلق العين التي يمكن أن نخرج منها، وهي على بعد أربعة أمتار منه، ونحن نريد خطف جندي منهم بعد قتل الآخرين.

- نفجر المبنى بصيدٍ ثمين، والله يرزقنا جندياً في مكان آخر.

كانت وحدة "ماجلان" قد تمركزت على الخط الحدودي في اليوم الرابع والعشرين للحرب؛ للتسلل إلى عيادة

"عبسان" في منطقة الفراحين، وكانت قيادة الوحدة قد علمت بوجود نفق داخلها، كان النفق على طول ألفي مترٍ داخل قطاع غزة، كانت مهمتهم استخدامَها نقطةَ انطلاقٍ، ومقدمةً لاجتياح منطقة خانيونس، وقراها الشرقية، وبعد الهزائم التي واجهها العدوُّ في دخول المناطق قَرَّروا العدول عن هذا القرار، وانتظار التعليمات.

تأسَّست هذه الوحدة في ثمانينيات القرن الماضي، وشاركت في حرب لبنان، وكان أولُ نفقٍ واجهوه هو في قرية مارون الراس، في جنوب لبنان، حاولت هذه الوحدة أن تطوِّر من عملها، خاصةً بعد ظهور قضية أنفاق قطاع غزة.

كما أن أفراداً منها قد شاركوا في الأسبوع الأول للحرب البرِّية، ودخلوا منطقة القرارة، كقوة كوماندوز التابعة لكتيبة المظليين، ولكنهم انهزموا، وأُصيب خلالها أكثرُ من عشرين جندياً، منهم نائب قائد الوحدة الرائد "حجاي بن آري".

في الليلة التالية وفي اليوم الرابع والعشرين للحرب، قَرَّروا دخول عيادة "عبسان" في منطقة الفراحين، بصورةٍ مكشوفة، ظنًّاً منهم أن هذه القوة الكبيرة ستردع المقاومين، قامت القوة بمحاصرة العيادة المشبوهة، درس قائد الوحدة المقدَّم "ي" المكان جيداً، ودخلت القوات المهاجمة اليهودية العيادة، واختبأ فيها أعدادٌ كبيرة.

فجأةً انفجرت العيادة من أسفلها ببراميل ضخمة، فانهار الجزء الأكبر فيها على الجنود، لقد رأوا مشهداً لا يُصَدَّقُ، سُحُبٌ من الغبار .. آذانهم فقدت السمع، قنابل الهاون تسقط عليهم، ورصاصٌ يمرُّ من بينهم، ويستقرُّ فيهم.

كانت عيون القادة نحو فوهة النفق تنتظر من يخرج منها؛ ليأخذهم، فإن مهمتهم العظمى ألاّ يسقط منهم أسير، ويبدو أن حلم دخول غزة قد تبخَّر هنا أيضاً، كانت تأتيهم صيحات الله أكبر، ولا يعرفون من أين تأتي؟!

أخذوا يبحثون عن أنفسهم، كانوا يعتبرون وحدة "ماجلان" هي الكتلةَ الصلبةَ التي تصطدم مع العدوِ وجهاً لوجه بدون خوف، عندما استردَّ القائد المعتدي توازنه طلب باللاسلكي أن يرسلوا طائراتٍ مروحيةً تنزل لأخذ الجرحى، فرفضت الطائرات، وأكدَّت أنها ستستهدف إذا حلّقت على ارتفاعٍ منخفضٍ، أو نزلت بساحتها، وعندئذٍ فساءَ صباحُ المعتدين.

أخيراً قَرَّروا نقل المصابين على متن دراجاتٍ بخاريةٍ رباعيةِ الدفع يسمونها "تراكترون" تابعةٍ لوحدة التنقل، بعد أن صرخ الطبيب المرتعش النقيب "غاي" قائلاً في اللاسلكي:

- انقلوا أولاً القتيل الرقيب أول "متان جودليف"، والرقيب أول "عومر جاي"، والرقيب أول "جال الغرنتي"، ومعهم عشرون آخرون، لا يُعرف أحدٌ حتى الآن مصيرهم!

كان وقع الأيام الثلاثة والعشرين الماضية على الاحتلال صاعقاً، لا تستطيع كلُ الأحزاب، وكلُ أجنحة الجيش تَحَمُّلَه، إنه يهدِّد مصير دولةٍ تَعرف أنها إذا هُزمت مرةً واحدةً ستكون هي الأخيرة، فكان في هذا اليوم لحظةُ الجنون، وفَقَدَ الكلُّ توازنه في قيادة الجيش والحكومة، من أين يأتينا الخطر؟

من المساجد، إذن اضربوا اليوم المساجد بقوة، لقد تَمَّ هدم العديد من المساجد في الأيام السابقة .. لا يكفي، فتَمَّ ضرب مسجد الأمين محمد "عليه الصلاة والسلام" في غرب غزة، ومسجد أبي بكر الصِّدِّيق في غزة، ومسجد جامع الرضا، ومسجد السوسي في مخيم الشاطئ، الذي هَوَت مِأذنته على بيتٍ يجاورها، فضحّى البيت بغرفه على ألاّ تسقط المئذنة على الأرض، واستمرَّت حملة تدمير محاضن المجاهدين و"بيوت الله" في كلِّ القطاع.

أين يمكن إيلام غزة؟ كما آلمتهم هجرة اللصوص من نصف فلسطين المحتلة الجنوبي إلى وسطها والشمال فكان

استمرار استهداف الأبراج المزدحمة طوال الحرب، فقد ضربوا في هذا اليوم برج الصدّيق، والبرج الإيطالي، وبرج الكيالي، وبرج داوود، وبرج الكرامة، وبرج الجندي المجهول، وبرج الباشا في مدينة غزة!

ولمزيد من القتل رصدت طائرات الموت مجموعةً من الباعة المتجولين في منطقة شرق الزيتون، وغرب الشجاعية، فألقت عليهم قنابلها، فقتلت منهم العشرات، حتى انتهى اليوم الرابع والعشرون وقد بلغ عدد الشهداء خمسةً وتسعين وثلاثمائة شهيد، ومعهم أكثر من ستمائةٍ وسبعة آلاف جريح.

إنه لشرفٌ عظيمٌ للإله يهوه، أو إنه لعارٌ كبيرٌ عليه وعلى أتباعه!

بعد تدمير العيادة بيومٍ واحدٍ، كان خطُّ دفاع المقاومة الثاني الجديد قد ضَمَّ ستةً من المجاهدين، بَقُوا في نفقٍ له عدة عيون، وقد استنزف معظم ما لديهم من سلاح أربع عمليات، كان معهم أربع عبوات "شواظ"، وعبوةٌ ضدَّ الأفراد، كانوا قد أَمضَوْا ستة أيامٍ في النفق، الذي أصيب بتصدُّعاتٍ من شدة القصف، لكنهم استمرُّوا، وفتحوا عيناً في منطقةٍ زراعية.

كان أحد المجاهدين لا يكُفُ عن تكرار أمنيةٍ له؛ أن يقف على ظهر دبابة، وأن يرفع يده لسائقها، ويقول له باي .. باي!

جاءت اللحظة، فقد خرج المجاهد "أمجد"، ووقف على ظهر الدبابة المذعورة التي تَلُفُّ حول نفسها، كما يفعل الحمار إذا حطَّ عليه طائر ينقره في عنقه.

نظر تحته، وأشار للسائق بيده مودِّعاً، وألقى عبوته داخل الدبابة، وقفز مسرعاً، واختفى داخل المزرعة، ثم أسرع إلى عين النفق؛ ليسمع تتابع انفجارات هذه الدبابة، وبذلك وَدَّعَ من في باطن الوحش الحديدي بلا رجعة.

ظلَّت عيون الجميع معلقةً على "بشير" الذي اختفى لنحو ساعة، ثم عاد مسرعاً، وألقى بنفسه في حضن القائد، يبكي ويبتسم:

- الحمد لله .. الحمد لله .. وجدت فتحةً في منطقة بيارة برتقالٍ كثيفة، وحولها أشجار الصبار العريضة، رأيت الشمس، لكن المخرج متدحرج.

وفجأة جاء إسماعيل من الجهة الأخرى يجري، ويعانق كلَّ من قابله:

- الحمد لله رب العالمين، نصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، لقد تَمَّ إصلاح الاتصال مع الإخوة، فقد كلَّمتهم وهم يريدون أن تكلِّمَهم.

فأسرع أبو سليم وخلفه جنوده، أمسك بسماعة الهاتف الأرضي:

- الحمد لله على السلامة يا أبا سليم، سَلِمت يمينكم، لقد هرب الجنود بعد التفجيرات المباركة، وأتاح لنا ذلك العودة، وأصلحنا الاتصال.

قال أبو سليم بصوتٍ متحشرج بين السرور والبكاء والنشوة:

- لقد عثرنا على فتحة في كرم البرتقال.

- المنحدرة؟

- نعم سنقوم اليوم بإصلاحها، وسيخرج أحدنا؛ ليتفقد الطريق للخروج إليكم.

- هل عندكم من الزاد ما يكفي؟

- نعم؛ الكثير، والحمد لله، ولكن ماذا عن إخواننا في النفق الآخر؟

- الله يتولاهم برحمته.

سادت فترة من الصمت، حاول فيها القائد الكبير أن يكتم حزنه، والكلمات التي كادت تكشف ألمه وحسرته على إخوانه .. ثم قال:

- اثبتوا، ولْيَبقَ أحدكم، أنت بالذات بالقرب من السماعة، ونتواصل عند اللزوم، .. السلام عليكم.

دبَّ الأمل من جديد، في الأجساد التي وهنت، ولم تَهِنِ العزائم، استمدت بالعزيمة قوةً جديدة.

في صباح اليوم التالي، الخامس والعشرين للحرب دقّ جرس الاتصال، فأسرع أبو سليم، وخلفه إخوانه .. يسمعون:

- يا إخوان تمَّ انسحابٌ برّيٌّ كامل من منطقة القرارة كلِّها، جَهِّزوا أنفسكم للخروج بسرعة، وانتظروا منا الإشارة عندما نرى الوقت مناسباً.

أسرع الجنود البواسل في جمع أمتعتهم وأسلحتهم، بقي خلفهم ثلاثةُ جالونات من الماء ممتلئة، والكثير من التمر والعسل والمربى والزعتر، حُقَّ أن يُسَمُّوهُ نفق الرفاهية.

وجاء الأمر، اخرُجُوا فرادى، وعلى مسافاتٍ، وبهدوء على بركة الله، حفظكم الله ورعاكم، وسدَّد خطاكم، وتقبَّل منكم.

علمت قوات المقاومة أن العدوَّ يعلم أن الأمم المتحدة ستعلن في الأول من أغسطس عن تهدئة متبادلة، مُدَّتُها ثلاثة أيام، يتمُّ تمديدها حتى تنتهي الحرب، وأن العدوَّ يريد أن يدخل المنطقة الشرقية الواسعة من محافظة رفح، حتى يقول لشعبه، وللعالم عند وقف إطلاق النار أنه احتلَّ جزءاً من قطاع غزة، وأن العملية البرية قد حقّقت أهدافها، فأرسلت كتائب القسام بعددٍ من قوات النخبة إلى هذه المنطقة، ينتظرون القادم الخائف.

تقع مدينة رفح في أقصى جنوب قطاع غزة، على تماسٍّ كاملٍ مع أراضي سيناء، تمتدُّ حدودها إلى أربعةَ عشرَ كيلو متراً من البحر غرباً إلى أرض النقب المحتل شرقاً، كانت المنطقةُ الشرقيةُ للخطِّ البريِّ الذي يؤدِّي إلى معبر رفح- مصر، منطقةً غيرَ مأهولةٍ بالسكان، وكانت حقلاً مناسباً لعمل المجاهدين للدفاع عن أنفسهم من تحت الأرض، أقاموا فيها عدة أنفاقٍ متعددةِ العيون.

تحمل هذه المنطقةِ وسامَ شرف إطلاق سراح أكثر من ألفٍ من أبناء فلسطين من سجون الاحتلال، ممن قَضَت محاكم صهيون ألاَّ يخرجوا منها أبداً، كان هنا أسر الجندي جلعاد شاليط، حيث كان القائد الشهيد محمد أبو شمالة صاحب الذهن المتوقد، والوجه الباسم، هو من قاد هذه العملية مع القائد الشهيد رائد العطار صاحب الوجه الأبيض، والعيون الزرقاء، والقامة العالية، واللسان الذي لا ينطق بغير ذكر الله إلا قليلاً، والابتسامة الآسرة للبشر، التي تنافس ابتسامة أبي شمالة الواثقة.

هنا تَمَّ انتزاع "جلعاد شاليط" من وحوشٍ حديدية في صيف 2006م، واليوم تهيَّأت هذه المنطقة بقائدها العطار، وأخيه محمد أبي شمالة .. تهيأت لدورها التاريخي.

كان هذا اليوم هو الخامسَ والعشرين للعدوان على غزة، ساعةَ الفجر لاحظ الجميع قصفاً مُركّزاً عنيفاً ومدمّراً، فأيقن المجاهدون أن هجوماً بَرّياً سيتبع هذا الدمار، فتحصن سبعة من المجاهدين في داخل النفق الذي امتدَّ لأكثرَ من ثلاثة آلاف مترٍ تحت الأرض.

تحركت الآليات الضخمة، والوحوش الحديدية في شمال منطقة رفح، منطقة "أبي الروس"، كانت فارغة من السكان، ومن البناء، تواصل القائد العطار مع منطقة المطار، يسأل عن تحركاتٍ مصاحبة، وتأكد من الهدوء هناك، إذن المعركة هنا، معركة أبي الروس.

كان المجاهدون يُصلّون الفجر، يشعرون بالتعب من مجهودٍ قليل، فَظَنُّوا أن في الأنفاق غازَ "أول أكسيد الكربون" الخانقَ الذي ليس له رائحةٌ ولا لون، فربما استطاع العدوُّ ضَخَّها فيها.

كان ثلاثةٌ من النخبة من الشباب قد استأذنوا في الذهاب إلى المدينة؛ ليُغَيِّرُوا ملابسهم، فقد كانت فترة وقف إطلاقٍ للنار.

كان خمسةٌ من السبعة، ومعهم "وليد مسعود"، يتمازحون في غرفة من بيتٍ مكوّنٍ من طابقين، رَصَدًا في المنطقة قريباً من عين النفق الهامّة، وكانوا على تواصلٍ دائمٍ

مع القائد العطار، وكانت التهدئة سارية، فأرسل "أبو إسلام" شاباً يلبس زيّاً مدنياً يرصد العبواتِ المزروعةَ في طريق الدبابات المحتمل، كان الجنود اليهود يرقبونه عن بُعدٍ، فقرَّروا القبض عليه، فأرسلوا وحدةً من القوات الخاصة، مكونةً من قائد كتيبة وستة جنودٍ لاعتقال هذا المدنيّ!

في الساعة الثامنة والربع، أيْ بعد ربع ساعة من وقف إطلاق النار، كان نائب قائد الوحدة "بانيا شرائل" قد لاحظ البيت المكوَّن من طابقين، والمراقب الذي وقف عليه، تحدَّث في وسيلة اتِّصاله اللاسلكي أنه ذاهب لخطف هذا الحارس؛ ليجبره على الإدلاء بمعلومات.

تقدمَّ مسرعاً، فقد فاجأه المجاهد إسماعيل، وباقي أعضاء الخلية بإطلاق النار، فَقُتل كلٌّ من قائد السرية الرائد "بانيا شرائل" و"لئيال جدعوني" ضابط الاتِّصال، وهُرِعَت مجموعةٌ من الجنود للنجدة، وصل "إيتان" مع القوة، فوجد فتحةَ نفقٍ مفخَّخةً، وكان هناك جنديٌّ ملقىً على الأرض يصرخ: جولدن .. جولدن، قُتل خمسةٌ من الجنود، واختفى جولدن، وكان من بين الجنود ضابطٌ قديمٌ متقاعد تعوَّد أن يعمل كضابط احتياط، يُدعى "إيتان فوند"، وجد نفسه ينزل إلى النفق، ويعثر على بقعة دمٍ كبيرة، فظنَّ أن جولدن قد قتل، وخرج هارباً ليبلغ قادته.

اختفى جولدن، ولم يلحق به الجنود الصهاينة لإنقاذه .. وا حسرتاه!

عندما وصلتهم أنباء تحرُّك الدبابات والآليات إلى منطقة "أبي الروس" رفض قائدهم السماح لهم بالذهاب، حتى لا يتمَّ اكتشاف شخصياتهم.

أرسل رائد العطار جهاز فحص الغاز بالهواء إلى الحاج "أبي الطيب" عن طريق ابنه ومعه رسالة؛ فتحها أبو الطيب، ومَزَّقها قطعاً صغيرة، ثم وضعها في جيبه، وتوجَّه بالجهاز إلى المنطقة النائية، وهو يخرج من جيبه قطعاً صغيرة منها، كلَّما قطع مسافة، يرمي قصاصات الأوراق في الطرقات، وصل فجراً إلى فوهة النفق، وسلَّم الجهاز للمجاهد "وليد توفيق مسعود" أبي إسلام.

كان أخوه قد استشهد في منطقة الشجاعية، وهو يعمل في الدفاع المدنيّ؛ لِينقذ مجموعةً من المجاهدين أُصيبوا بتسممٍ غازيٍّ في أحد الأنفاق الهامة، قبل بداية الحرب، وكان أخوه الآخر "يوسف" محكوماً مدى الحياة في سجون الاحتلال!

كان عدد المجاهدين في النفق سبعةً، فاتَّصلوا بالهاتف الأرضي الخاصّ، يطلبون مزيداً من الإسناد، وعلموا أن أبا إسلام سوف يصلهم سريعاً.

وصل الثلاثة الذين كانوا في بيوتهم سريعاً إلى إخوانهم، وتوزَّع الجميع فوق الأرض، قرب عيون النفق، كانت إحدى العيون هي الأكثَر أهمية.

كان أبو إسلام حريصاً إلى درجة كبيرة على أَسرِ جنودِ يهود، كان أمله أن يفرج عن أخيه يوسفَ، وإخوانِهِ المعتقلين، كان دائم الحديث عن إطلاق سراح الأسرى.

كان يرقب تقدُّم الجنود والضابط، وأمله يقترب من يديه، كان قد لبس درعه، وشحن سلاحه، ومعه أخوان اثنان، أصبح الجنود اليهود بالقرب من البيت، قفز "أبو إسلام" من الغرفة العلوية على الأرض، ولم يفصله عن الضابط والجنود المحتلين سوى عشرين متراً تقريباً، تفاجأ الجنود، فقد ظَنُّوا أن الغرفة فارغة، وحدث الاشتباك.

اتصل رائد العطار يسأل الحاج أبا الطيب الذي اختفى بعيداً عن الساحة المكشوفة:

- ما نتائج هذا القصف الرهيب عندكم، أربعون غارةً جوية، وأكثر من ألف قذيفة سقطت عليكم؟!

ولم يَرُدَّ عليه أحد، فلا وقتَ للكلام، فظنَّ أنهم قد قَضَوْا ..

وقف رائد العطار سارح الذهن لعدة دقائق، حيث تذكَّر رؤيا أحد معاونيه، قائدِ سرية مشهودٍ له بالورع والإخلاص الكبير، كانت بعد صلاة الفجر، ظهر فيها الشهيد "تيسير أبو

سنيمة"، وهو قائد كتيبة، وأحد الذين شاركوا في أَسْرَ الجنديٌ "شاليط" في عام 2006م، ظهر في الرؤيا يعطي قائد السرية ثلاث بطاقات، في كل واحدة منها صورة لجلعاد شاليط!

ما أن أفاق اليهود بعد لحظاتٍ من مذبحة الضابط والجنود، حتى سادت لحظةٌ هستيرية، فأخذوا يطلقون الرصاص على كلِّ شيء، حتى على أنفسهم، صرخ أحدهم بجنون:

- أَوقِفوا إطلاق النار .. كفى .. لقد ذبحتم بعضُكم بعضاً، ركع منهم خلف الدبابات من ركع على ركبتيه يلطم وجهه، وآخرون زاغت أبصارهم، وبلغت القلوب الحناجر؛ ينتحبون.

بدأت الطائرات على الفور تلقي حُمَمَها على منطقة البلبيسي، فقتلوا ثمانين من المدنيين، أطفالاً، ونساءً، وشيوخاً، هاجموا بقذائف الدبابات مستشفى "أبي يوسف النجار"، وهدَّدوا مدير المستشفى، وأَخلَوْا الجرحى.

هدموا المجمع التجاري الرئيس في مدينة رفح المكّونَ من عدة بنايات، وعددٍ من الطوابق، ونسفوا مجموعةً من البيوت المحيطة بالمستشفى، وأطلقت الدبابات أكثر من ألف قذيفة خلال ساعتين!

أعلنت الأمم المتحدة عن هدنة لمدة اثنتين وسبعين ساعة، جاءت هذه الدعوة قبل أن يتم نشر القوات في شرق مدينة رفح، تزامن هذا الاجتياح مع سفر الوفد الفلسطيني الموسَّع إلى القاهرة.

وكالعادة .. الأمم المتحدة أصدرت بياناً تَتَّهِمُ فيه حماس باختراق التهدئة، ولأن المقاومة تعرف كيف تسير الأمور في الأمم المتحدة، أصدرت موقفها، ولم تشعر بأي تردُّدٍ من تحميل العدوِّ المسئولية، وتعلن عن انحياز هذه الأمم للعدوِّ في كلِّ مراحلها.

وكانت المفاجأة أن يتصل أمين عام الأمم المتحدة بأمير قطر هاتفياً في اليوم التالي؛ ليبلغه أمير قطر عن استغرابه لموقفه بتحميل حماس مسئولية خرق وقف إطلاق النار في قطاع غزة.

استطاعت أجهزة العدو الأمنية أن ترصد تحركات بعض القادة الذين فرضت عليهم مهامهم أن يتنقلوا من مكان إلى آخر، وخاصة في شمال مدينة غزة حتى عثرت على ضالة هامة تخفف عنهم عار الهزيمة، فرصدته الزنانات والعيون من كل مكان وهو في أحد البيوت، حتى إذا هدأت الأمور قرر أن ينتقل إلى موقع آخر، وكان موعده مع الشهادة، فأصابته صواريخ الزنانات، وحملت سيارات الإسعاف جثامين الشهداء

من الرجال والنساء والأطفال وانتقلت بهم إلى مشفى في شمال القطاع؛ ليلحق القائد في سرايا القدس "دانيال منصور" بركب الفائزين بآخرتهم في أكرم مواجهة وأشرف قضاء !

فُوجئ العالم في اليوم السابع والعشرين من أيام العدوان بجنازة حُمل فيها تابوت الضابط "هدار جولدن" ابن رجلٍ جاء من بريطانيا، وهو أحد أقارب وزير الحرب في دولة اللصوص، وسارت الزفة، دليلاً على خيبة الدولة التي لم تُهزم؛ فهل كانت جثته في التابوت المحمول؟

نسى العدو أن حصيلة الحرب حتى هذا اليوم السابع والعشرين هي اثنا عشرِ وسبعُمائة وألفُ شهيدٍ، منهم ثمانية وتسعون وثلاثُمائة طفل، وسبعٌ ومائتا سيدة، وأربعةٌ وسبعون مُسنًّا، وبلغ عدد الجرحى ثمانين وتسعةَ آلاف جريحٍ، منهم أربعة وأربعون وسبعُمائة وألفا طفلٍ، وخمسون وسبعُمائة وألفُ سيدةٍ، وثلاثة وأربعون وثلاثُمائة مسنٍّ.

أين أنت يا قانون حقوق الإنسان، والقانون الدولي الإنساني؟!، يبدو أنه في سلة ... !

انتهت الأيام الثلاثة للتهدئة، رفضت المقاومة تمديدها؛ فاستمرت المواجهة في شروط انتصار أفضل للمقاومة، وتدخَّلت كلُّ القوات الضاغطة؛ لتمديد التهدئة لمدة ثلاثة

أيام؛ لإنقاذ المفاوضات، والتي اشترطت فيها المقاومة رفع الحصار لوقف الحرب، وعودة الهدوء.

وقف الحاج مُصَبِّح بعقاله الأسود وحَطّتِهِ البيضاء المشبَّعة بعرقه، ودمعه، ودخان موقده الذي انطفأ منذ بدأت الحرب الأخيرة، وقف أمام ابنه الشابِّ الذي امتشق بندقيته، وحقيبة ظهره، والدرع المضادِّ للرصاص، وكاد ينزل قِناعُهُ، وقد حشى بندقيته بخزنة طويلة، وبقيت مئات الرصاصات مخبأةً في جعبته، تنتظر دورها.

عانق ولده بقوة، وقبّل الابن يد أبيه وجبهته، واختلطت دموع الأب بعرق صيف غزة الملتهب، قال الأب وهو ينظر - وكأنه يقرأ من صفحة الذاكرة-:

- اسمع يا ولدي .. اذهبْ شَرِّقْ، ورَوِّحْ بلدنا سَلِّمْ على كلِّ العرب، هناك الترابين والحناجرة والعزازمة والغوالي، وأبو روَّاغ، وعرب التيايهه، وأبو رقيق، والجرامنة، وإذاَ شَرَّقْتَ قليلاً على عرب الصانع.

وتوقّفت الكلمات في الحلق الذي تشنَّج من الحزن، فهو يخشى كما غاب عن هؤلاء، فيغيب عنه ابنه الحبيب .. إمام المسجد، صاحب الصوت الندي، والذي تخرج كلمات القرآن، وكأنها من صوت يقلد جبريل عليه السلام.

استدار المجاهد بعد أن كرَّر تقبيل يدي الأب الحزين، واستدار مسرعاً ليلحق بصحبه المنتظرين، محمد أبي شمالة، ورائد العطار.

كان صراخ العدو قد تعالى وتكرر، يشكو لمصرَ ما أصابه، ويؤكّد على ضرورة وقف إطلاق النار، وكان الوفد المفاوض في القاهرة يعاني من اختلاف توجهات أفراده، واهتماماتهم، وتقديراتهم، فقد ضمَّ أشخاصاً يحاربون المقاومة، ويعتبرون التعاون مع العدو مقدَّساً، ولا يريدون للمقاومة الانتصار، وفي الوقت نفسه يريدون أن يجنوا ثمارها التي أوشكت أن تنضج، وما حال المحتضنين للمفاوضات منهم ببعيد، ووصلت سفن الموت إلى يوم التاسع عشر من أغسطس !

كانت الاتصالات الآمنة بين مكونات القيادة طوال الحرب قد شغلت ساعاتِ النهار والليل، واستجابت القيادة لاتفاق وقف إطلاق النار لأيامٍ قليلة، من اليوم السادس والثلاثين حتى الثالث والأربعين للحرب، تنفّس فيها العدوُّ عميقاً، بعد أن انقطعت أنفاسه لأيامٍ زادت عن خمسة أسابيع، وهو الذي بنى وجوده على نظرية الحروب الخاطفة.

نشط الجواسيس في بعض الزوايا من القطاع، وقد التُقط أحدهم معلومة أن قائد كتائب القسام، الشخصية

المطلوبة بإلحاحٍ للعدو قد شُوهد في بيت في منطقة الشيخ رضوان، وكانت المعلومة ساذجةً وسطحية، فقد أعدّتِ القيادة مسبقاً أماكنَ تواجدها، وأدوات تواصلها بصورة محكمة، ولكنَّ الغريق الصهيوني في بحر الهزيمة، الباحثَ عن قشة يتعلق بها، الساعيَ بأيٍّ ثمنٍ إلى تحقيق إنجازٍ، يفاخرون به الانتخابات القادمة، الذي كان يقف فيه رئيس وزرائهم، ووزير الحرب أمام شاشات العالم، وأعينهم منكسرة، وأطرافهم تتحرك بلا هدف، ويلقي كلٌّ واحدٍ منهم الحِملَ على الآخر، وأصوات الائتلاف الحكومي تُمَزِّقه، وتُحَمِّلُهُ المسئولياتِ، ككرة نار تُلقي بها أقدام العدو على الآخرين.

كانت المعلومة كنزاً، الرجل المطلوب بإلحاحٍ في بيتٍ، كنزٌ كبير، النيل منه سينسف كلَّ مظاهر الهزيمة، وأقنع القادة الفاشلون أنفسهم المتلهِّفة للتصديق، وجاء قرار ضرب البيت، وتدميره على مَنْ فيه، وبكلِّ ما فيه، تدميراً كاملاً، ليس أقلَّ من ذلك.

ماذا نفعل مع وقف إطلاق النار؟

كانت الخطة هي افتعالَ خرق وقف إطلاق النار من الجانب المقاوم، فخرجت صواريخُ قصيرةُ المدى، مجهولةُ الهوية، لا أثر لها، وبذلك توفَّرت الحجة، غزة خرقت وقف إطلاق النار، وأخذ الإعلام المعادي، وأعوانه في الغرب، يردِّدون

ذلك بإصرار .. وبعدها فَلْتُقْلِعِ الطائرات الكبيرة التي وصلت من مخازن أمريكا حديثاً، وعَبَرَتْ قناة السويس، وأخذت مواقعها، وحشت بطونها بقذائف جهنم:

- اضربوا ولا تترددوا، وأنا أنتظر، وأشاهد على شاشات التلفزيون، هكذا كان حلم رئيس وزراء مهزوم، وقادة الجيش والتجسس!

انفجر البيت المكوَّن من عدة طوابق، ونقلت هذا المشهد شاشات العالم، عدد من الشهداء من الأطفال والنساء، كان قادة المقاومة يشاهدون بألمٍ وحُزنٍ دمار البيوت، واحتراق سيارات النقل العامة، كانت واقفةً في الشارع، وفجأةً قال مراسل العدو:

- إن محمد الضيف كان في البيت.

أسرع قادة المقاومة إلى هواتفهم الخاصة، وجاء الجواب قاطعاً:

- ليس صحيحاً، ولكن زوجته، وابنه عليّ .. رحمهما الله تعالى.

وتكشَّفتِ الحقيقة، وخاب فَأْلُهم، وطاش سهمهم، وسقطت غمامةٌ سوداءُ على أعينهم، وطمست على قلوبهم، وانقلبوا على أعقابهم، تبكي قلوبهم، فقد جَفَّ الدمع في عيونهم، من طول المواجهة، وحجم الخسائر، وتآكل الجبهة الداخلية، ولو كان البكاء يشفي لاشتروه، أو لأخذوه مجاناً من

الغرب المنحاز، ولو كان الصراخ ينفع لصرخوا، لقد نزلت الفأس في دماغ الرأس.

تواصلت قيادة المقاومة، وتنفّست بارتياحٍ، واطمأنت، رغم الألم لفقد الأبرياء، وهدم البيوت، فقد وصل عدد الشهداء حتى يوم التهدئة إلى تسعةٍ وثلاثين وتسعِمائة وألفِ شهيدٍ، وبلغ عدد المصابين ستةً وثمانين وثمانمائة وتسعةَ آلاف.

لم يحقق العدوُّ غايةً، ولم ترفع لهم رايةٌ، وكُنِسوا على أعقابهم خائبين، وكان لابدَّ من العقاب الفوري، فانطلقت الصواريخ أشدَّ غضباً، وأقسى أثراً، وتكرَّر الرجاء والتوسل والدعاء لمصر أن تتوسط؛ لتوقف المقاومة طعناتِها المستمرة.

خرج المتحدث باسم كتائب القسام في اليوم التالي، يحذر فيه الطائرات الدولية من الاقتراب من مطار اللد، مطار "بن جوريون" أكبر لصٍّ شارك في قتل الآباء المسلمين والمسيحيين، وجلب اليهود، واللصوص من كلِّ مكانٍ إلى فلسطين.

كانت خيبة كبيرة، ضربت المطار، وضربت محاولة صنع إنجازٍ باغتيال قائد كتائب القسام محمد الضيف.

كان يوم الواحد والعشرين من أغسطس حدثاً استثنائياً في مسيرة المقاومة، كان تاريخ الصراع المقاوم مع العدوّ الصهيوني صفحاتٍ كتبها أفرادٌ وقياداتٌ لم يستطعِ العدوُّ أن يَمحُوَها، ولا استطاع التاريخ أن يُغفِلَها، إنَّ أسر جنديٍّ إسرائيليٍّ واحدٍ ليست قضية عالمية، ولكن أسر جندي يكون سبباً في إطلاق سراح أكثر من ألف معتقل نصفهم من الطراز الثقيل، أمر تاريخي بلا ريب.

كان رائد العطار ومحمد أبو شمالة، وآخرون مجهولون، وراء هذا الحدث الكبير، كانوا من قبله أهدافاً لسلطةٍ فلسطينيةٍ جاءت بتحالفٍ شيطانيٍّ دوليّ، تآمر على الشعب المظلوم، وأخذوا جزءاً منه في سرداب، جدرانه سوداء منتنة، ورائحته كريهة برائحة التجسس، تحت عنوان "التعاون الأمني مع العدو"، وزيّن لهم الشيطان أوصاف هذا الفعل المشين، بأنه مصلحة وطنية، أنه مُقدمةٌ لاستقلال الشعب، وهو ضرورةٌ لطرد الاحتلال، ومقدمة لقيام الدولة، حدث هذا في وقت جمعت فيه قوات الاحتلال عشرين وأربعمائة من قيادة المقاومة في الضفة والقطاع، وأبعدتهم إلى لبنان في ديسمبر 1992م، جاءت ولادة اتفاقية أوسلو المولودِ اللقيط، الشاذ عن تاريخ الآباء وسيرة الأجداد، كان محمد أبو شمالة أولَ من أطلقت رجالات أوسلو عليه الرصاص، فقطعوا

مجرى الكلية في ظهره، ودخل المستشفى، كما دخل السجن في عام 1995م، ولم يغيّر هذا من سيرته ومسيرته شيئاً، يقود المقاومة في محافظة رفح.

وكان رائد العطار قائداً، أصابه رصاص أوسلو بعد محمد أبي شمالة في عام 2000م، ولم يظفروا باعتقاله، وسار على الأقدام، وفي السيارات التي تنتظرها عيون تنظر، وعلى عربات تجرها الدواب، وصل إلى عيادة في غزة؛ لغلق جُرحِه النازف من ذراعه وصدره، ثم اعتقلوه بعد شهرٍ؛ ليحققوا معه، وينقلوا ما جمعوا من معلومات إلى حلفائهم المحتلين.

عندما انحنى عود الخيزران المقاوم في هذه السنوات لم ينكسر، فاعتدل واقفاً من جديد، وأشرع سلاحه في وجه المتعاونين مع العدو، في وجه رموزهم وجنودهم ووزرائهم، آخر أيام القرن العشرين؛ ليواصل صناعة المجد أربعة عشر عاماً، وفي اليوم العشرين من آب عام 2014م، وقد سادت فترة تهدئة متفقٍ عليها بين الجميع، خرجوا ليتفقدوا الابن الذي هو كالصخرة لم تَهُزَّها ريح الطائرات، ولا قصف المدافع، خرج القادة ليطمئنوا على رجلٍ نذر نفسه لتزويد المجاهدين بكلِّ ما يلزمهم من عتادٍ يرهبون به عدوَّ الله وعدوَّهم، وذهبوا إلى المواقع المتقدمة يَشُدُّون على السواعد المفتولة بإيمانٍ ويقينٍ

بالنصر، فقد مضى شهر ونصف، ولم تستطع قوى الشيطان أن تحتلَّ شبراً من قطاع غزة، أو تمكث فيه آمنة، كانت عيون القادة وهي تنظر إلى أُسُودِ الأنفاق والبيوت، والمزارع والمواقع، كلٌّ واحدٍ منهم قصة شرف وعِزَّة، تفقّد القادة متطلبات إخوانهم، وزاروا بيوت الشهداء، كانوا قد وضعوا على رؤوسهم لثاماً، ولكنَّ الشمس لا يخطئها صاحب بصر، فتتبعتهم عيون الشيطان، ورصدت تحركاتِهم الزنانات، وتكاثفت الاتصالات، حتى إذا انتهت ساعات التهدئة، واضطروا أن يدخلوا بيتاً في غرب مدينة رفح الصامدة، طالتهم في فجر هذا اليوم صواريخ الطائرات، فهدمت البيوت، وطحنت حجارتها بدم الشهداء الأبطال.

كان رحيل الهرمِ مُثلَّث العقول ضربةً مؤلمة، محزنة، مصيبة، عندما تغيب شمس رفح، ونجمها، وقمرها، قد تظلم الدنيا، ولكنَّ القلوب الصابرة الراضية بقضاء الله وقدره ولا تُظلم.

خرجت المدينة تحمل الجثامين الثلاثة "رائد العطار، ومحمد أبي شمالة، ومحمد برهوم" ريح المسك، وعبق النقاء، وحبُّ القلوب الصادقة، وشوق الشوارع، والبيوت تودِّع، تبكي ولا تعترض، تدعو ولا تيأس، ولا تتعجَّل!

وتضمُّ الأرض وليدها من جديد، كما ضمَّت إخوان صلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، وشهداء الإخوان المصريين، والمسلمين، والعرب.

حياة جديدة في عالم آخر، وفي جوار أفضل، إنه النجاح بعينه !

جاء اليوم الثالث والعشرين من أغسطس الحزين، وكان الناس قد فرغوا من صلاة العشاء في حيِّ الرمال غرب مدينة غزة، يشاهدون خبر ذَهابِ زعيم التعاون الأمني الفلسطيني مع العدوِّ، وهو يزور مصر.

وكان الشارع الفلسطيني يرقب ما قيل عن قتل عددٍ من العملاء والخونة الجواسيس؛ الذين تعاونوا مع العدوِّ في قطاع غزة، وتسبَّبوا من قبل هذا العدوان وأثناءَه في قتل العشرات من المجاهدين، وهدم بيوتهم، وبيوت قادة المقاومة، والمساجد.

كان معظمهم قد اعترف في تحقيقات أجهزة الأمن المدنية بجرائمهم مسبقاً، وفق أصول التحقيق والتحقق، وعُرِضَ بعضهم على القضاء؛ في انتظار أن تصدر عليهم الأحكام المناسبة، ولمَا تمَّ تدمير مقرات الشرطة، وحتى لا يهرب أولئك المجرمون؛ تمَّ ملاحقتهم، وإنزال العقوبة ببعضهم من رجال أمنٍ يعرفون ماذا يفعلون.

في هذه الأجواء نزلت قذيفة طائرة زنانة على برج من أكبر الأبراج في حي الرمال برج الظافر، ونزلت المناشير تطالب الجميع بإفراغ البرج من سكانه.

كان عدد طوابق البرج تزيد عن اثني عشرَ طابقاً، ويسكنه المئات من الرجال والنساء والأطفال.

هُرع الكبار والصغار، والنساء، والرجال إلى الشوارع، لم يجد بعضهم ساتراً من القنابل التي نزلت على البرج؛ فقد أصبح حطاماً في ثوانٍ معدودة، وامتلأت سماء غزة بالدخان، واللهيب، ورائحة البارود، فكانت دليلاً على حجم المعاناة التي سببتها المقاومة للعدوّ، وحجم الجرائم التي يمكن أن يرتكبها، وإلى أيِّ منحدرٍ يمكن أن يسير.

كانت الأيام التالية لمحاولة اغتيال قائد كتائب القسام الفاشلة صعبةً ومؤلمةً على العدو، فقد تمَّ تفريغ المنطقة الجنوبية، والتي تقترب من شطر مساحة فلسطين كلّها، من الذين جاءوا يبحثون عن وطن، وطنهم كان بيتاً حقيراً في مزرعة يعملون فيها كالدواب، يعيشون كما تعيش الأنعام، ولا يشعرون برابط مع الأرض، وليس لآبائهم أو أجدادهم ذكرياتٌ في هذه البقعة، هربوا إلى الوسط والشّمال، وطالبوا بالإقامة في الفنادق، والطعام، والتعويض عن خسائرهم.

كانت هذه أقسى لحظات المواجهة، فهجرة اليهود من النقب والجنوب ترمز إلى إمكانية تحريرها من مستوطنيها، فالجيش لم يستطع أن يدخل غزة، والجيش يهرب من غلاف غزة، والمستوطنون يهربون أيضاً، يعني أن الاحتلال سينتهي يوماً ما بهذه التجربة، وكان هذا هو الكابوس المخيف والمرعب.

قادهم إبليس إلى ردٍ على هذه المصيبة، ووسوس لهم: هجّروا السكان من الأبراج الكبيرة، كما هَجَّروكم، واستجاب أتباع إبليس!

فأخذت الطائرات الأمريكية الصنع في ضرب الأبراج السكنية المكدسة بالسكان الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ، فقبل أربع دقائق من آخر يوم للعدوان، دون علم أحد من البشر، تَمَّ تدمير الجزء العلوي من البرج الإيطالي في شمال مدينة غزة، وبعد ثماني دقائق من القصف نزل صاروخان كبيران على البرج؛ فأكلا من جسده الكثير، وبقي الصرح واقفاً، وبعد دقائق ذهبت الطائرات؛ لتضرب مدرسة اللاجئين (2) التابعة لوكالة الغوث الدولية؛ لتقتل مَنْ فيها من النساء والأطفال في منطقة جباليا، وقبل عشرين دقيقة من وصول عقارب الساعة إلى الثانية قبل الفجر، جاءت الغارة السادسة على البرج الإيطالي، ولم ينهزم البرج، فذهبت الطائرات إلى برج الباشا في منطقة سكنية مزدحمة، فدمَّروه بثلاثة

صواريخ ضخمة، هذه هي البطولة في ميزانهم، إذا فشلوا في مواجهة المقاومة لجؤوا إلى هدم البيوت والمدارس والمساجد والمشافي.

ثُمَّ توجَّهوا إلى خزاعةَ مرةً بعد مرة؛ ليقصفوا بيوت قياداتٍ من الجهاد الإسلامي، واشتدَّتِ المقاومة عنفاً، وتركيزاً عندما أدركت أنها على بُعدِ ساعاتٍ من وقف إطلاق النار.

تحرك أبو الحسن بسيارته من مدينة رفح مسرعاً في اتجاه غزة، حاملاً ثلاثة ملايين دولار في حقيبة سيارته، جمعها من عدة مصادر؛ ليرسلها إلى قيادة المقاومة في المساجد والمدارس؛ حتى يتم توزيعها على المحتاجين، هذا دأب القيادة التي يدها على الزناد، وعلى بطارية الصاروخ، توزعها على من يستحق من الأعداء، ويدها على المال توزعها على من يستحق من أبناء الشعب المقاوم، كانت مكالمته بالأمس لمسؤول المال التي لم يعرف أنها الأخيرة، وهو يقول للأستاذ معاذ:

- قل لي الرقم تماماً؛ حتى إذا استشهدت لا يقول أحد أن المال سُرق !

وصلت السيارة إلى غزة بسلام، وصلت مدنية غزة حيث كان في الانتظار تحت شجرة كبيرة مسؤول، وبالقرب من مدرسة فلسطين الثانوية، وأمام السفارة المصرية، والساعة الثانية بعد الظهر، أصابت قذيفة طائرة السيارة؛ فاحترقت،

وتناثرت أشلاؤها، كما تناثرت الأموال في الشارع، وتجمع على الفور رجال المقاومة، والعامة من الناس يجمعون المال، ويطاردون نفراً ممن حاول أن يخفيها، وأخيراً صعدت روح الشهيد "محمد طلعت الغول" أبي الحسن إلى بارئها، وذهبت الأموال إلى مستحقيها، بينما تجمدت الدموع في عيني مسؤول المال، وقلبه يكاد يتفطر من الحزن!

كانت منطقة "الرميدة" في بني سهيلا منطقة خالية من الأشجار، تعوّد الناس أن يجدوا رمالها ساخنة في الصيف؛ فسموها بهذا الاسم، وكانت هدفاً سهلاً للزنانات والطائرات الكبيرة، وكانت الصواريخ الرابضة تحت الأرض قد قل عددها بسبب طول فترة الحرب، وصعوبة حركة الإمداد، وخلوها من البيوت والسكان.

كانت قيادة حركة الجهاد الإسلامي كحركة حماس تريد أن تتحدى العدو في هذه المنطقة في آخر لحظة، فأرسلت صاروخين من طراز "براق" طول الواحد منهما ستة أمتار، سأل قائد ميداني:

- كيف سيتم نصبهما ووضعهما على الحامل الخاص، وأعدادنا قليلة؟

- نريد ضرب ديمونة قبل انتهاء الحرب.

أقبلت سيارة نقل كبيرة وضعت الصاروخين على الأرض، وقفلت راجعة مسرعة .. تجمع اثنا عشر شاباً جاءوا بمبادرة محلية من القيادة، وكان وقت الفجر، جاء صبي يقود عربة صغيرة يجرها حصان، قاموا بسحب الصاروخ الأول، ووضعوه بصعوبة على الحامل الخاص، وعادوا إلى الثاني، قال أحدهم:

- نطلق هذا ونحاول مع الثاني.

- كلا سنطلق الاثنين معاً.

اضطر ثمانية من المجاهدين للعودة إلى موقع الصاروخين، وأمضى أربعة من المجاهدين منتصف النهار وهم يدحرجون الصاروخ، وكأن قوة خفية كانت تساعدهم، حاولوا، ونجحوا في نصب الصاروخ بصورة مذهلة.

كان وقت العصر، فجأة ظهرت طائرة نفاثة مقاتلة، وضربت المنطقة المجاورة لهم، ولم تصب الصواريخ.

هنا أطلق المجاهدون الصاروخ الأول، فانطلق محفوفاً بالدعاء، ولم يفلح الصاروخ الآخر فقد أصابته قذيفة نفاثة، وهو رابض على الأرض في عصر هذا اليوم الكبير.

وصلت سفينة الموت إلى السادسة مساءً في اليوم الواحد والخمسين للجريمة الكبيرة، عندما تمَّ الإعلان عن وقف

إطلاق النار، فكان الصاروخ الخاتم إلى حيفا، ميناءٍ فلسطين، الذي مسحوا وجهه بالدم، وغيّروا ملامحه، وجعلوا مياهه مالحة؛ حتى لا تصلح للوضوء، وفشلوا، فلا يزال أصحاب الأرض يتوضؤون لهذه الملحمة، وسيبقى ذلك الميناء حتى يأتي من يضع يده الطاهرة المتوضئة على وجهه؛ فيرتد بصيراً، كما فعل أبناء يعقوب بعد توبتهم مع أبيهم!

سيضع أبناء هذا الوطن الراية المزينة بكلمات التوحيد على وجه فلسطين؛ فيرتدُّ البصر، ويقوى السمع، ويصدح الآذان في كل شبرٍ منها، الله أكبر الله أكبر .. لا إله إلا الله.

وصلت سفينة الموت إلى ميناءٍ تم تدمير الأسس الأخلاقية، والمبادئ الإنسانية، والشرائع السماوية له، وقد حققت دولة إسرائيل غايتها، فقتلت ثلاثةً وثلاثين ومائةً وألفي شهيدٍ، وأصابت مائة وأحدَ عشرَ ألف جريحٍ من الأطفال والنساء والشيوخ، وتدمير الآلاف من البيوت والمساجد والمدارس والمستشفيات، حُقَّ لها اليوم أن تفاخر بأنها مشروع الهدم والدمار والقتل رقم واحد في العالم المعاصر .. المجتمع الحر، الديمقراطي، الإنساني .. من الطراز الفريد !!

أمر صاحب الملكوت السماوي والأرضي؛ فانزاح بساط الظلام الكوني عن غزة، وبدا النور ساطعاً ينتشر شيئاً فشيئاً، حتى في وجود الليل، وحمل الهواء رذاذ البارود والغبار وآثار

الدمار، وذهب بها شرقاً وشمالاً ينثرها في عيون اللصوص وصدورهم؛ لتنتهي حياتهم باختناق أو بمرض يأخذهم في اللحظة المقررة!

وتنفس المظلومون نسيم البحر الأبيض الذي ازداد بياضاً، وتزين كما تتزين العروس يوم عرسها استعداداً ليوم الزينة الكبرى، عندما تتخلص كل شواطئه من لصوص الوطن وأعوانهم وعملائهم!

كانت قيادة المقاومة قد كلّفت واحداً منها أن يخرج؛ ليكون بين الناس في اللحظات الأولى للانتصار، دعوا له بالتوفيق في هذه اللحظة التي تطفو فيها المشاعر على العقل والمنطق، لحظة انتصار تاريخية، لحظة عبر عنها الشارع، عندما خرج هذا الرجل ليرى الآلاف تتدفق كالسيل في شوارع المدينة، بالقرب من مبنى السرايا المهدم، الذي بناه الاحتلال البريطاني، واستخدمه العدو الصهيوني ليعذّب الشعب، مبنى السرايا الذي خرج منه الاحتلال هارباً في عام 2005م، ثم هدمته طائراتهم؛ لتمحو آثار جريمتها، وجريمة بريطانيا التي تجلت بإقامة الكيان الصهيوني في عام 1948م، كان موقع الاحتفال بالانتصار بالقرب من المبنى المهدم، وفي شارع الشهيد عمر المختار، قائدِ المقاومة الإسلامية في ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي.

وقف الرجل في سيارة مكشوفة تبرق أمامه عيون الفرح في وجوه كلّ الناس، الرجال والنساء والأطفال من كلّ شرائح المجتمع وفصائله، لحظة اعتراف هذا الشعب بالانتصار، فكان لابدَّ أن ينزل بينهم، وأن يَشُدَّ على أيديهم، وأن يقبِّل أيدي كبارهم، وجباه أطفالهم، ويرسل الدعاء والتحية إلى نسائهم، ويقف الرجل بجوار قائد الجهاد الإسلامي، ونائب رئيس المجلس التشريعي، وقيادات من قوى المقاومة، ليقول للناس، أنتم صُنّاع النصر، أنتم حاضنة المقاومة، نساؤكم خيرة النساء، خرجنَ من تحت الركام؛ ليقلن: نَعَمْ للمقاومة، رجالكم خيرة الرجال الذين قَدَّموا فلذاتِ أكبادهم؛ لمواجهة العدو، وصنعوا الصمود، وصنعوا النصر العزيز الذي يؤسِّس للنصر الكبير، تحرير كلّ الأرض، والمقدسات، والإنسان.

شكر اللهَ جل جلاله قبل كلّ شيءٍ وبعده، وأرسل شكر المقاومة إلى كلّ مَنْ وقف معها، وتجاهل عن عمدٍ الخونة والعملاء، مهما كانت أسماؤهم، وصفحات تاريخهم، ودرجة ضلالهم السبيل.

وأفصح للعدو عن معادلةٍ جديدة، قلبت نظرية أمنهم القومي المزعوم، فلا نظريةَ، ولا حقيقةَ أمنٍ لهم، وهم الغرباء، ولا هم قومٌ بالفهم الذي تعرفه الشعوب، فهم خليطٌ لقيطٌ غريبٌ متناقض.

قال لهم: سنبني مطارنا وميناءنا البحريّ، فإذا اعتديتم علينا رددنا عليكم، هذه هي المعادلة الجديدة، احفظوها، وقد قلنا لكم قبل عدوانكم، نغزوكم ولا تغزوننا، فكنا الصادقين.

وكان اليوم التالي موعداً للقاء الشعب المنتصر بقيادته السياسية والتشريعية في المجلس التشريعي؛ ليستمعوا إلى كلمات النصر التي صنعتها المقاومة بعرقها ومالها وسلاحها ودعواتها وخيرة شبابها، لقد انتصر المسجد على الكنيست، وانتصرت الدعوة على السب والشتيمة، وانتصر الصدق على الكذب، في إشارة واضحة إلى مآل دولة لا مستقبل لها، كشجرة خبيثة اجتُثَّت من فوق الأرض، مالها من قرار !

كانت بيوت العائلات الحرة - في كلِّ القارات سعيدة- بهذه النتيجة، رغم الألم على فراق ثُلّة من الأطفال والنساء والشيوخ، وكذا المساكن التي احتضنت أغلى ذكرياتهم.

لكنَّ الفوز له ثمن، والهزيمة لها ثمن أفظع، والحرب سجال، والغالي ثمنه غالٍ، وفلسطين أغلى الغوالي.

جولة انتهت، وقد طفقت المقاومة تتأهَّبُ لجولة بعدها، وربما غيرها؛ حتى تصل إلى معركة وعد الآخرة، التي يتخلّص بها الجسد الفلسطيني مما أصابه من السرطان، ويشفى الإنسان، والبيت، والشارع، والبحر، والنهر، يشفى من قاذورات المجرمين ونجسهم !

وفي اليوم التالي تجمعت جماهير غزة المنتصرة في المجلس التشريعي بساحة الجندي المجهول؛ لتلتقي القيادة السياسية للحركة، وأعضاء المجلس التشريعي، في حفل زفاف أرواح الشهداء، والوفاء للجرحى، والتأكيد على إصرارهم على حمل مشروع المقاومة.

انتهى الرجل من سرد رواية العصف المأكول ، التي عاشها لحظة بلحظة وهو يتذكر إخوانه القادة الكبار الذين قضوا قبل التحرير وبعده، والذين يجوبون هذه الأيام مدن الضفة وقراها، وكذا القدس وحيفا ويافا ورأس الناقورة والنقب، وكل ومدن وبلدات قرى دولة فلسطين الحرة.

قفل الرجل الكبير راجعاً في الجيب الأبيض، يقوده ابنه، والصبي صلاح الدين في حجر جده، والحراس الثلاثة في المقعد الخلفي، والصبي لا يكفُّ عن ترديد السؤال:

- لماذا تجمع كل الناس حولك يا جدي؟ كيف يعرفك الناس في القدس؟ وفي كل بلد؟ ولماذا استقبلك أمير القدس، وكل أمراء مدن فلسطين؟

كان الصبي يظن أن غزة تحب جده؛ لأنه عاش فيها، ولكنه لم يدرك لماذا يحبه الناس في كل بلاد فلسطين ..

قال أبو صلاح لابنه:

- جدك مجاهد .. كان يقول للناس في أشد الأيام مكابدة من المحتلين وعملائهم: إننا سنصلي في المسجد الأقصى، وأن الاحتلال سيزول يوماً ما .. لقد صدق جدُّك الناسَ .. فأحبوه !!

وقف الرجل الكبير أمام قبور، ووقف ابنه وحفيده خلفه، في ذكرى رحيل الكبار .. حيث تزدحم الكلمات؛ فلا تخرج إلا مشحونة بالمشاعر النبيلة، تختلط، في النفس ذكرى لهم، وحب يضمهم، وذكريات تجمعهم، ودموع ترسم في الذاكرة صورهم.

ستبقى ذكرى الأحباب من الكبار والصغار قادة المشروع الكبير، الذين صاغوا من أيامها حروف اليوم، وأسمعوا العالم في ساعة العسرة أن المستقبل لنا، وأن دورتنا الحضارية قادمة، وأن جرائم الصهيونية إلى زوال .. ومنذ تلك اللحظات وجدت المحبة في الله سبيلها بينه وبينهم.

لقد سبق قدر الله في إخوانه وأحبابه .. قضوا راضين مرضين وسط حزنه أنهم ليسوا اليوم معه، أنه لم يكن اليوم معهم.

أخذ في نفسه يناجيهم.. يؤكد على وصاياهم: أيها الأحبة .. أبث إلى الله رجائي وأسمعكم دعائي.

وختم: اللهم ارحمهم رحمة واسعة، وأدخلهم جنة عالية، واجمعنا به في صحبة حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم .. آمين.

تمت بحمد الله رواية العصف المأكول .. في طريقها لرواية وعد الأخرة

غزة - فلسطين

30/ 3/ 2015